إذا صمّ النصّ

أبحاث نصّية نحوية

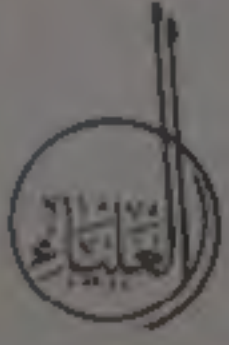

الدكتور محمد جمال صقر
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

إذا صح النص
أبحاث نصية محررة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ١٨٧١٢/ ٢٠٠٧

الناشر
مؤسسة العلياء
للنشر والتوزيع
٤٦ شارع البستان - عابدين - القاهرة
ص.ب ٢٠٣٣ الرمز البريدي ١١٥١١
تليفاكس ٣٩٦٢٣٤٦
E-mail:alolyapublisher@yahoo.com

إِذا صَحَّ النَّصُّ

أَبْحاثٌ نَصِّيَّةٌ نَحْوِيَّةٌ

الدكتور محمد جمال صقر
كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

مؤسسة العلياء

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللّـهِ

ـ سُبْحانَه، وَتَعالى! ـ وَبِحَمْدِه،

وَصَلاةً عَلى رَسولِه وَسَلامًا،

وَرِضْوانًا عَلى صَحابَتِه وَتابِعيهِمْ،

حَتّى نَلْقاهُمْ!

مُقَدِّمَةٌ

نَشَأْتُ مولَعًا بنصوص الكلام العربي: الشعرية، والنثرية، والقرآنية، أتذوقها، وأحفظها، وأؤديها. ثم لما تخصَّصْتُ لِتَعَلُّم نَحْو الكلام العربي، وعِلْمِه، وتَعْليمِه، لم يكن في وسعي إلا أن أجري مجرى أساتذتي المؤلفين مثلي بذلك؛ فأشتغل من أي نص بمكونات الجملة الواحدة التي أفاضت في بيانها كتب علم النحو، أو بروابط الجملتين الاثنين التي أفاضت في بيانها كتب علم المعاني، وأظن أن في ذلك كفاية التعبير عن طبيعة وجود النص النحوي!

واهتديت في خلال ذلك إلى كتب شرح الكلام العربي، ثم اشتغلت منها بصفات العلاقات النحوية المختلفة، ثم احتفزت بها إلى تأمل ما وراء الجملة والجملتين من النص، حتى إذا ما تَرَبَّبَ الباحثين مَقالاتُ علم نحو النص، أَلِفَتْ بيني وبينها أنها «بِضاعَتُنا رُدَّتْ إلَيْنا»!

هي رحلة مستمرة إلى النص المستمر، أُجِنُّ بعد كل مرحلة من مراحلها، بمثل ما كان فَرِحًا على حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم! ـ يحس به بعد كل مرحلة من مراحل رحلته إليه؛ فيقول ـ رضي الله عنه! ـ عبارته الخالدة الضابطة: «إذا صَحَّ الحَديثُ فَهُوَ مَذْهَبي»!

كأني به يطلب الحديث مرة بعد مرة، كلما تغيرت الحياة مرة بعد مرة فسرقتْ منه «إذا صَحَّ الحَديثُ»، ووضعت «النَّصّ» موضع «الحَديث»!

هي رحلة ذات مراحل؛ كل مرحلة مقام، ومقاماتها ذوات أبحاث؛ كل بحث مزاجان: عِلْميٌّ يَتَقَدَّمُ به، وفَنِّيٌّ يُحامي عنه؛ فلا يُغْني بَحْثٌ عن بَحْث!

وكتب بروضة مصر العتيقة، أحمد جمال صقر

في ٨/ ١٢/ ١٤٢٦هـ= ٨/ ١/ ٢٠٠٦م

moqassar@yahoo.com

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

رِعايَةُ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ
لِعُروبَةِ أَطْوارِ اللُّغَةِ وَالتَّفْكيرِ

مقدمة

خطأ أحوال اللغة على صاحبها

[1] تبدو اللغة للمتأمل، على مثل ما يبدو له صاحبها: تطور وتجمد، وتستقيم وتعوج، وتقوى وتضعف، وتفيح وتغمض، وتحس وتقبح، وهكذا طورا على طورا فلا ينشط لِتَخَطِّيهِ مقالة الناقد العربي التي صدرت مثلًا عالميًّا «الأسلوب هو الرجل نفسه»!

وأعجب من أحوالها تلك كلها، أن صاحبها يكاد لا يراها حتى يسبقه غيره إليها، كما يكاد لا يرى نفسه وإن نظر في مرآته، حتى ينظر في مرآة غيره!

فضل عمل ستكيفيتش

[2] ولقد تأمل اللغة العربية من كتب وصرف دون غيره كثيرًا، جاروسلاف ستكويتش الأستاذ الجامعي اليوغوسلافي الأمريكي المعاصر، الذي طوّف في بلادنا من شرقها إلى غربها أستاذًا زائرًا؛ فدرس تطور اللغة العربية ألفاظًا وتعابير، وتطور التفكير اللغوي عند العرب في العصر الحديث، وجهاد رجال النهضة أدباء وعلماء، لتحديث العربية وجعلها وافية بمقتضى الحياة؛ فبحث لذلك مسائل القياس والنحت وتعريب الألفاظ والتعابير وتطور الدلالة وتيسير النحو، ثم انتهى إلى أن «العربية الحديثة تبعد الآن عن العربيتين كليهما الفصحى والعامية؛ فبينما تحتفظ بالبناء العربي للعربية الفصحى، تقترب من حيث التركيب النحوي والأسلوب في الشكل والروح من عائلة اللغات التي تعبر عن الثقافة الغربية، وهذا مشروط بأن تنهي العربية المعاصرة في هذا الطريق إلى مداه، وربما لا يمضي جيلان أو ثلاثة حتى تصبح عضوًا متكاملًا في عائلة الثقافة الغربية، وحينئذ تسهم بدور كامل في هذه الحياة الذهنية الحديثة المشتركة وسوف يفصح النحو عندئذ التعبيرات بعيدة الأثر فرضتها عليه ديناميكية الفكر الغربي، إن أنماط الجملة الفعلية والاسمية لن تكون الخواص النحوية الأساسية، وبدلًا من ذلك سوف يكون مفهوم سير الدلالي حاكمًا لترتيب عناصر الجملة، وسوف يتطلب هذا تغييرًا طفيفًا في الانتباه من الجانب الشكلي القواعدي إلى الجانب الأسلوبي الديناميكي، إن الجملة العربية سوف تصبح أغنى بالجمل التابعة وسوف يصبح نظامها وترتيب عناصرها مرنا كالمعادلات الفكرية الحديثة، ومن الملاحظ أن هناك اتجاهًا واضحًا بالابتعاد عن البساطة التركيبية، إن البديع الأسلوبية التي قدمها طه حسين وجيله هي من الوضوح والبساطة بحيث كثر استخدامها حتى بين كتاب وشعراء هذه الأيام، ومع

ذلك فإن الاتجاه إلى تعايش جديد بين بعض بنى القديم والجديد؛ مستمدة من مصادر خارجية وداخلية هي الاتصال الثقافي واللغوي سوف يأخذ مكانها. والواقع أن تطور اللغة الثانوية - التي ستكون نتائج الاعراض للمصطلحات سوف تظهر - وبطريقة طبيعية وبسهولة ويسر المخزون الأساسي للتعبيرات الحديثة أو قوالب التعبير الحديثة. إن محاكاة الأساليب الغربية سوف يتبعه سلسلة من المستقات الأسلوبية الضالة، والتي سوف يبدو أصيلة في إطار الروح الجديدة للغة. إن مستقبل اللغة العربية لن يكون في حصول مصالحة بين العنصرين الأساسيين للغة: العنصر العامي والعامية والتي تعمل كل واحدة منهما ضد الأخرى، ولكن سيكون هذا المستقبل في خط مستقيم للتطور غير بعيد عن الصرف السامي القديم متوجها إلى نحو غير سامي تفرضه عادات التفكير أكثر مما تفرضه عادات الحديث اليومي الحي. وعندئذ فحسبه سيكون العرب - بأعمالهم بدءا يفكرون بها - قادرين على التغلب على مشكلة الصراع بين الفصحى والعامية. إن الفصحى التقليدية كالتي - وسوف تكون - عاجزة عن مواجهة المتطلبات لأنها لا تمتلك العادات الفكرية للذين يستخدمونها. إن العربية الحديثة التي يحاول تحديدها وتعريفها هنا سوف تصبح لغة للفكر المتطور المادة، وسوف تكون مثلا للمرونة والقوة، وسوف تحل محل الهجينات المختلفة دون أن تطمسها طمسا مصطنعا»[1].

أفكار ستتكيفش الثنائية الخطيرة

[٣] لقد أفضى به تأمله إلى إثبات اغتراب اللغة العربية عن عالمه بقدر الثقافة العربية؛ فتطوع ببيان ما ينبغي للغة العربية - ولدارسي العرب - أن تصطنعه بنحوها، لتصبح عصرًا عاملًا مؤثرا في تلك العائلة، فرادنا إياها بمكانة النحو من نفسه، وتمسكه بخصائص العربية فيه.

وربما تحدثت عن طرق النص الآنف إيرادها أفكاره الكثيرة الخطيرة، التي خشيت أن أجور عليها أيَّ جور، وأرجو أن أستخلصها فيما يأتي بضمير الشأن الخطير

الفكرة الأولى: أنه ليست بالعرب الآن لغة يفكرون بها. أما العامية فلغة عادات الحديث اليومي الحي، وأما الفصحى التقليدية فلا هي بهذه المنزلة ولا هي لغة عادات تفكير من يستخدمونها

الفكرة الثانية: أنه توشك أن تولد بعيدا عن الفصحى التقليدية والعامية للمتعلمين، عربية فصحى حديثة تنتمي بتطورها النحوي إلى عائلة اللغات العربية الشقيقة.

الفكرة الثالثة: أنه تعتمد صيرورة العربية الفصحى الحديثة الوليدة عنصرا عاملاً مؤثرًا في الثقافة اللغوية الغربية، على بلوغ تطورها النحوي هذه.

الفكرة الرابعة: أنه تقتضي (ديناميكية) الفكر العربي، سعر العربية الفصحى الحديثة الوليدة، أن يتخذ التبر الدلالي معيار ترتيب عناصر جمله، فيتجه من الجانب الشكلي (القواعدي) في العربية الفصحى التقليدية، إلى الجانب الأسلوبي (الديناميكي) في حالة اللغات العربية الثقافة.

الفكرة الخامسة: أنه يعني ذلك متى تمّ، إن هي الجملة العربية بالجمل التابعة، وصيرورة نظامها وترتيب عناصرها، في مثل مرونة العادات الفكرية الحديثة العربية.

الفكرة السادسة: أنه تقتضي محاكاة الأساليب (التعابير) الغربية، إلى سلسلة من المستويات الأسلوبية (التعبيرية) المتماثلة، تبدو أصيلة في إطار الروح اللغوي الحديث الوليد.

الفكرة السابعة: أنه ينجح الأسلوب العربي سهل المعربة الحديث الوليد متمثلاً في أسلوب طه حسين وجبران، بين من تلاه من الكتاب والشعراء.

الفكرة الثامنة الأخيرة: أنه على رغم اتجاه بعض الأساليب إلى التعقيد، لن تعود العربية الفصحى الحديثة الوليدة، إلى العربية الفصحى القديمة التقليدية.

بعض هذه الأفكار كما لا يخفى، من المأثورات الغربية[3]، ولكن جدّة أكثرها ودقة علمية فيها، حافزان كافيان إلى تقليبها على وجوهها، وإدامة النظر فيها، ومراجعاتها فيما يأتي، بمسائل البحث، دربا تقليل منها أو من صحيحها، وإلا لم نكن جديرين بالحياة التي تعيشها بها، ولا بالحضارة التي تعلقت بـ

المَسْأَلَةُ الأُولى اللُّغَةُ والتَّفْكِيرُ

«اللغة أداة»

[٤] تروج لتحرز هذه أفكار عميقة، ربما نحن أسرع إلى قبول الحكم، منا إلى مكابدة تحصيل الحقيقة. من ذلك أن اللغة أداة، على اختلاف ما هي أداته، من التفاهم إلى التواصل، ومن التفكير إلى التعبير؛ فإن الأداة في لسان العرب آلة الحرفة التي تقيم له حرفته[4]. إنه إذا كانت الكتابة أداة الكاتب التي تقيده به في بياض الصفحات سواد الكلمات الكائنة لديه آنفًا، فإن عجز استبدل بها أخرى قادرة كتسجيل الصوت مثلاً ـ كان التفاهم والتواصل والتفكير والتعبير، أولاً، فإن عجزت اللغة التي تؤديها استبدل بها مستعملها أخرى قادرة!

قال الدكتور طه حسين: «نزعم أننا في هذه اللغة التي نتكلمها ونتخذها أداة لتفهم والإفهام حقًا يجعلها ملكًا لنا»[1] وإني على رغم قول أستاذنا محمود محمد شاكر - رحمه الله -: «اللغة أداة التفكير، وأداة البيان» لا يكاد أحد يرتاب في أن هذا حق، وأنه واضح شديد الوضوح»[2] - أرتاب في أن هذا واضح شديد الوضوح، وأتمنى أن يجد الورود جديدًا ليوضحه لي؛ فلا يزيد أن يلأداة عنده معنى غير ذلك[3] ربما رفضه عندئذ الدكتور مصطفى ناصف، يرى أن اللغة أداة للتعبير الإنساني بكل، وتخصيصه لرؤية بعض الدارسين أو المدارس، فيه مظنة إشارات تنبيهية إلى تكوين التصور المخبأة[4] وربما زاد ذلك، الدكتور محمد عابد الجابري، يرى أن «اللغة ليست مجرد أداة للفكر، بل هي أيضًا القالب الذي يتشكل فيه الفكر»[5] وإن لم يغير من (الأداة) وهي خاصة، إلا إلى (القالب) وهو أداة خاصة. ثم هو قد ترك كلمة (تفكير) بين كلمة (فكر)، وبينها فرق لطيف لم يدركه بعض الباحثين»[6]

الفَكْرُ والتَّفْكِيرُ والفِكْرُ

[٥] إن (الفِكْر) في لسان العرب، نتيجة (الفَكْر) الذي هو إعمال الخاطر في الشيء، وهو الحدث الذي مع الزمن في (فَكَرَ يَفْكِرُ)، وإن (التفكير) كثرة (الفكر)[7] وربما حسب استعمال صيغة التفعيل لكثرة هذا الحدث وتعلق حياة الإنسان به، قال ذي يوسو «التفكير هو التقصي المقدوس للخبرة من أجل غرض ما. وقد يكون ذلك الغرض هو الفهم، أو اتخاذ القرار، أو التخطيط، أو حل المشكلات، أو الحكم على الأشياء، أو القيام بعمل ما، وهلم جرا»[8]

وإذ فهمت معنى النتيجة من كون (الفِكْر) اسم المصدر (فَكَر). وقد حرّرتُ من لسان العرب، أن هذا النوع من اسم المصدر عبارة عن نتيجة [حدث المصدر مثل (جَعْل) المتوج عن (جَعَلَ) الذي (تفعيلٌ) مبالغته، ومثل (فِعْل) المتوج عن (فَعَلَ) الذي (تَفْعِيلٌ) مبالغته، صياغة وردة وإن لم تطرد.

(الفِكْر) إذن ثمرة (التفكير)، ولذا ينظر فيه الفلاسفة. فأمّا (التفكير) فينظر فيه النفسيون والتربويون والتُّنْمِيون. إنّ العالم، مهما يكن علمه، إذا تأمل أصول علمه وانتهى إلى محكماته، كان فيلسوفًا انتهى إلى فلسفة، ولو بلغ كل عالم في علمه هذا المبلغ، لاستغنى عن الفيلسوف، ولو اشتمل كل علم في نفسه على ذلك، لاستغنى عن الفلسفة

الفلاسفةُ وعلاقةُ اللُّغة بالفكر:

[٦] لقد تأمّل مفكرو اللغة العرب الحديثة، فيلسوفان عربيان معروفان.

أما الدكتور زكي نجيب محمود فكتب مقالاته التي جمعت بعدئذٍ في كتابه «تجديد الفكر العربي» منبهًا إلى حاجة الحياة الجديدة إلى فكر جديد، جاعلًا اللغة العربية أكبر حائل، حائرًا فيه عن أصول الفكر العربي[٣٣]. وهو الذي رد في كتاب آخر، وهم بعض الناس أن في نفسه معنى لا يستطيع التعبير عنه، بأن ليس فيها من شيء إلا الوهم! وربط اضطراب العبارة باضطراب الفكرة، وضرورة ضبط العبارة بضروره ضبط الفكر[٣٤].

ورأى الدكتور محمد عابد الجابري فكتب مقالاته التي جمعها في كتبه الثلاثة ذات الإطار الواحد «نقد العقل العربي»، أي «الفكر»، وتأمّل أولًا تكوين العقل (الفكر) العربي، داعيًا إلى التحرر من ليت أو المتشعب في كياننا العقلي (الفكري)، فسنّ للحياة أن تستأنف فيه دورتها وتعيد زرعه، جاعلًا اللغة العربية أول حلقة قائلًا: «سنجد أنفسنا دومًا إزاء محدد أساسي، وربما حاسم، للعقل العربي من خلال اللغة التي ينتسب إليها وتنتسب إليه»[٣٥].

علاقة اللغة بالفكر الذي هو ثمرة التفكير إذن همّ الفلاسفة العلماء، وهي لديهم علاقة وثيقة، وليس أدل على ذلك من تسميتهم قانون الفكر الذي يحكمه لديهم هو لُبّ الفلسفة، علمَ المنطق الذي هو في لسان العرب الكلام[٣٦].

النَّفسيّون اللُّغويّون وعلاقةُ اللُّغة بالتَّفكير:

[٧] ولقد غير من علم نفس الكلام (سيكولوجية اللغة)، علم جعل همه تفكيك الكلام وتركيبه وحال المتكلم والمخاطب من ذلك وذاك هو علم النفس اللغوي (علم اللغة النفسي)[٣٧] الذي انتشر في ستينيات القرن العشرين بمبدئ نظرية النحو التوليدي، ليدرس ظاهرة الكلام (السلوك اللغوي): كيف تنشأ وكيف تدرك؟[٣٨] فكان من مسائل هذا العلم الجديد علاقة اللغة بالتفكير[٣٩].

ينظر النفسيون اللغويون (اللغويون النفسيون) في هذه المسألة، وخصت ثلاثة اتجاهات: واحد رأى اللغة والتفكير شيئًا واحدًا، وثانٍ رأى شيئين منفصلين، وثالث رأهما شيئين متصلين اتصالًا وثيقًا من حيث ألفاظ اللغة أفكارٌ صورية أو مجردة، وتراكيبُ اللغة اتجاهاتٌ عامة وأساليبُ تفكيرية. ومن أصحاب هذا الاتجاه الثالث الأخير من رأى التفكير أقوى تأثيرًا في اللغة منها فيه، ومنهم من رأى اللغة أقوى تأثيرًا في التفكير منه

فيها، ومنهم من رأى كلًّا منهما مثل الآخر تأثيرًا وتأثرًا، والفارابي وهذا الفرع الأخير من الاتجاه الأخير، أعطى بقبول المعاصرين وأشيع فيهم من سواه»[٣٠]

ولقد استطرد نظرهم في بحث اضطراب التفكير، وفي رغم دلالة الاختبارات الأدبية (التي تعتمد على الأداء اليدوي أو معالجة الصور أو غير ذلك) على مبلغ اضطراب التفكير، وأرها أقل أهمية من دلالة اضطراب اللغة، واعتبروا أن أنهما مضطربين منهما متزنين، متصلان اتصالًا وثيقًا، حتى لقد صيروا من تميز البادي منهما من المبدوء علامتين إلى رواية بحث المسألة»[٣١].

علاقة اللغة بالتفكير الذي ينتج الفكر إذن من فهوم بعض اللغويين (اللغويين النفسيين)، التي انتشح منها ارتباط علم اللغة بعلم النفس، وهي لديهم علاقة وثيقة[٣٢].

التَّخْتِين وعَلاقَةُ اللُّغَةِ بالتَّفكير

[٨] أما التَّخْتِين علماء هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي، فأحلامهم التي حققوا بعضها، قائمة على الإيمان بالفكار بعض فلاسفة اللغة أمثال فيتجنشتين الذي رد القول بأدوية اللغة، ورآها هي العلم، وحصرهم بمثل مقولته «كل ما يمكن أن يقال يمكن أن يقال بوضوح»، إلى تخيب كل كيان معرفي بن عدد محدود من العناصر الذرية، يمكن أن تبنى منه كل الأشكال المعقدة لبنى المعرفة وآلياتها»[٣٣]

تَلازُمُ وَعَلاقَةُ اللُّغَةِ بالتَّفكير

[٩] وعلى رغم تهاويل ما تقدم، تبرز قضية علاقة اللفظ بالمعنى التي شغلت من قديم إلى حديث، علماء لغتنا حتى طالو بالتعليل، وتفاد أدبنا حتى قالوا بالنَّظم - علاقةً على أصالة وهي علاقة اللغة بالتفكير في لغاتنا العربية[٣٤] التي من استوعبها نظرًا وعملًا، رأى اللغة بلاغةً التفكير والتفكير بلاغة اللغة، وقول القائل قلتُ، وقوله فكّرتُ، سواءً، ولم يصرفه عن دهشة حال الصم البكم، الذين يفكرون ولا يتكلمون؛ إذ هم يتعلمون اللغة من أهلهم كي يتعلمها غيرهم، ولا شيء إلا أنهم يركّبونها من كلمات لأصابع؛ فإن أهلهم يعلمونهم بالإشارة المعنى (الكلمة) والفكرة (الجملة) والوفرة (الفقرة) والقضية (النَّص)، عن السحر الذي يحيشون ويعيشونهم به. ولم تعرف بعدُ اليد الذي أهله كلهم صم بكم!

دلالات فكرة ستنكيفتش الأولى:

[١٠] لا تخرج دلالة الفكرة الأولى السابق استنباطها من نص ستنكيفتش في الفقرة الثالثة عن أن تكون إحدى ثلاث:

أن ليست اللغة غير أداة، ويمكن التفكير الاستغناء بشيرها عنها، وهو ما عليه العرب الآن.

أنْ لا تفكير دون لغة، وبعدم اللغة ينعدم التفكير، وهو ما عليه العرب الآن.

أن لا تفكير متردنا بلغة مضطربة، وباضطراب اللغة يضطرب التفكير، وهو ما عليه العرب الآن.

نقد الدلالة الأولى:

[١١] فضلًا عن شيوع وهي علاقة اللغة بالتفكير، السابق بيانه، يزيّف قصدَ الدلالة الأولى عدمُ اشتغال ستنكيفتش ببيان الأداة المستعين بها التفكيرُ عن اللغة، بل قد اشتغل بعكس ذلك تمامًا يأتي طرف منه في أثناء هذا البحث.

نقد الدلالة الثانية

[١٢] ولما كان وجود الإنسان مشروطًا في الثقافة العربية الحديثة، بكونه مفكرًا، أي «قادرًا من خلال ملكة اللغة على ممارسة التحليل المنطقي والرياضي واكتساب المعرفة وتوظيفها لتوليد معارف جديدة»[٣] تفضي الدلالة الثانية كما سبق، إلى دلالة أخرى مفادها أن لا عرب الآن، أو هُمْ كما قيل وهمٌ، والوهم كما سبق في الفقرة السادسة، لا لغة له!

إنه على رغم جنوح هذه الدعوى، من التغافل عن مقتضى شواهد كثيرة مختلفة أن في العالم الآن ـ مهما تكن الأحوال والأهواء ـ عربًا، وأن في العالم الآن ـ من ثم ـ لغة وتفكيرٌ عربيين، واستحسان أعذارنا ما أن نتقاعس عنها قائلين: «إذا كان المتكلم مجربًا فالمستمع عاقل» ـ نحمدنا على تصديق قصد دلالة الدلالة الثانية، ما صح لدينا على الزمان، من الحضارة الغربية ـ وهو أنها ـ من أنها لا ترى إلا نفسها، فلا حياة إلا باعتناق مبادئها، ولا سيادة إلا باعتياد طرائقها، وكأن ما كان قبلها من حضارات، وما يكون بعدها، حديث خرافة[٤]

[١٣] يبقى لي بذلك الطلب، أن يحرى المقدمة فالجاحظ في الدلالة الثالثة الأخيرة المحتملة، بل أورد قول الجاحظ وكأنه يعضده. المثقف الذي يتكلم بالضرورة لغة عامية هي «أعمى» يكثير من العربية الفصحى في مقال الأديب المغاربي لكرب تلمس أسبابها من أسباب أخرى مع بعض «التكسير» ـ لا يستطيع التعامل بها فكريًا. إن العامية رغم غناها «التكنولوجي» المغاربي لا تتوفر على الأدوات والآليات الضرورية للتفكير، فهي ليست لغة للإنتاج وفكر. ومن هنا فقرها الإبداعي رغم غناها الظاهري. والنتيجة هي أن المثقف العربي سواء كان طالبًا أو أستاذًا يعيش حاليًا كلاهما ضائعًا بين لغته العامية وعالم اللغة الفصحى. أما الأمي العربي ـ وهو الذي يشكل الأغلبية ـ فهو محبوس في عاميته يتعامل مع أشياه لا يسميها، وإذا فعل سماها بأسماء أجنبية مع بعض «التكسير» الضروري الذي لاشك في أنه يترك أثره العميق في عقله، في بنيته الفكرية. أما ذلك العربي الذي يعرف لغة أجنبية واحدة أو أكثر فهو يعيش ثلاثة عوالم مختلفة. إنه «يمتلك» ثلاثة تصورات «للعالم». يفكر بلغة أجنبية ويكتب بلغة عربية فصحى، ويتحدث في البيت والشارع، بل وفي الجامعة، باللغة العامية[٣٠].

كيف يستطيع المغرب الآن تفكير، وهم يعيشون بلهجاتهم الخاصة، حديثة ويفكرون بلغتهم التفكير القديم؟ إنها مشكلة اضطراب لغوي تفكيري تؤسس فكرة ستكينيش الثانية السابقة في الفقرة الثالثة عشرة. لا مشكلة لغة وتفكير مضطربين. هذا أحسن ما تحمل عليه دلالة فكرته الأولية لولا العجب من تفكير بلغة غير العربية الذي ذكره الجابري. كيف يكون هذا؟

أما انقسام اللغة إلى فصحى تهتدي مستهتدة في شؤون حياة البرجوازية العالمية، وعامي مقصور لشؤون الحياة العادية الغير العالمية. فتلك مسألة يبهت فيها ما يختلف الظلام وما يختلف الليل والنهار، فأمر صحيح، فيه التكامل الطبيعي، وليس فيه الاضطراب الذي تشير إليه فكرة ستكينيش الأولية ولا التضاد الذي تنبه عليه فكرته الثانية.

نقد فضل الدكتور وقفي مشكلة اختلاف لغة الكتابة ولغة الحديث (اللهجة)، بعد أن بين أنه «يقصد بلغة الكتابة أو بلغة الآداب، اللغة التي تدون بها المؤلفات والصحف والمجلات وتلقى الخطب والشروح والدروس وتدون بها الإنتاج الفكري حول العصور ويؤلف بها الشعر والنثر الفني، وتستخدم في الخطابة والتدريس والمحاضرات، وفي تقديم الخاصة بعضهم مع بعض وفي تفاهمهم مع العامة إذا كانوا بصدد موضوع يتصل بالآداب والعلوم. ويقصد بلغة الحديث اللغة العامية التي تستخدمها في شؤوننا العادية ويجري بها حديثنا اليومي»[٣١] ـ وصحيح مرجوع نظر في حلها، قال أحمد مرجع

لغة الحديث إلى لغة الكتابة، وقال الآخر بخصائص لغة الكتابة بين لغة الحديث، ثم رأى هو حل الأمثل «أن ندع الأمور تجري في مجاريها الطبيعية؛ فاللغة قوانينها وأنظمتها الاجتماعية نواميس التي تسير عليها، ومن ضياع الوقت في غير جدوى أن نحاول تغيير مجرى هذه القوانين أو صدها عن مسيلها؛ إذ لا نستطيع بين تغييرها سبيلًا، ولن نجد لسنتها تبديلًا. على أن اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث لا يعدو أن يكون شيء من التعقيد حتى نتلمس علاجًا له. بل إنها السنة الطبيعية في اللغات»[٣٠]

ونقد ثبت أن إهمال تعليم اللغة القديمة الفصحى العربية المنبورة بالحامدي سياسة تعليمية سيئة[٣١]، فثبت جدوى استمرار نظام التفكير القديم الخصب، المبني بالجامد على ما في دعوى جمود اللغة والتفكير العربيين من نظر يأتي

المَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: الجُمودُ والتَّطَوُّرُ

بيان التطور العام

[١٤] بنى الدكتور وافي كتابه «علم اللغة» على بابين. نشأة اللغة وحياة اللغة. في هذا الباب الثاني عالج ست مسائل الأولى تفرع اللغة إلى لهجات، والثانية فصائل اللغات، والثالثة صراع اللغات، والرابعة التطور اللغوي العام، والخامسة أصوات اللغة حياتها وتطورها، والسادسة الدلالة وتطورها

في علاجه القضية الرابعة رَجَع تطور اللغة إلى عوامل كثيرة أهمها أربع طوائف الأولى انتقال اللغة من السلف إلى الخلف، والثانية تأثر اللغة بغيرها أو لغات أخرى، والثالثة عوامل اجتماعية وسببية وجغرافية، كحضارة الأمة ونظمها وحضارتها وتقاليدها وعقائدها وثقافتها وتجاهاتها الفكرية ومناحي وجدانها وبروجها وبيئتها الجغرافية، وصار إلى ذلك ما رآه يشترك في أنه من مقومات الجماعة الاجتماعية، والطائفة الرابعة الأخيرة: عوامل أدبية مقصودة تتمثل فيما تتجه فيه الناطقين باللغة وما يبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية وما إليها في حمايتها والارتقاء بها[٣٢]

بيان تطور اللغة العربية القديم

[١٥] بنى الدكتور وافي كتابه «فقه اللغة» الذي هذا يمثل الجزء الثاني لكتابه السابق، على ستة أبواب. اللغة الأكادية، واللغات الكنعانية، واللغات الآرامية، واللغات اليمنية القديمة، واللغات الحبشية السامية، واللغة العربية

في هذا الباب الأخير عالج أربع قضايا: الأولى: حياة اللغة العربية، والثانية: عناصر اللغة العربية، والثالثة: كفاية اللغة العربية، والرابعة: صيانة اللغة العربية.

في علاجه القضية الأولى عرض خمس عشرة مسألة: الأولى: شخصيتها ومنزلتها من اللغات سامية، والثانية: نشأتها وأقسامها، والثالثة: العربية البائدة أو عربية النقوش، والرابعة: العربية الباقية كلمة عامة عنها، والخامسة: صراع لهجاتها بعضها مع بعض وتغلب لهجة قريش، والسادسة: القرآن والأدب الجاهلي وتجليهما بلغة قريش، والسابعة: خصائص لغة قريش وعوامل هذه النهضة، والثامنة: أثر القرآن والحديث والإسلام في اللغة العربية، والتاسعة: اللهجات العربية بعد تغلب لغة قريش، والعاشرة: احتكاك العربية بأخواتها السامية وغيرها وصراعها معها وآثار ذلك، والحادية عشرة: اللهجات العامية الحديثة عوامل تطورها وخصائصها المشتركة، والثانية عشرة: طوائف اللهجات العامية وموقع كل منها من الفصحى، والثالثة عشرة: لغة الكتابة العربية وتطورها وما استقرت عليه في العصر الحاضر، والرابعة عشرة: بين العامية والفصحى مشكلة اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث، والخامسة عشرة الأخيرة: المنهجة المثالية.[٣]

بيان تطور اللغة العربية الحديث

[١٦] ولقد بيّن الدكتور واقي هي أن لغة الكتابة التي تمثل في جملتها اللغة القرشية التي نزل بها القرآن، قد تطورت على الشّنة اللغوية العامة، تطورًا كبيرًا، وأنه انتاب في العصر الحاضر تطورات جديدة ترجع إلى عوامل كثيرة، أهمها خمسة:

١ اقتباس مفردات إفرنجية بعد تعريبها للتعبير عن مخترعات أو آلات حديثة، أو مصطلحات علمية، أو نظريات، أو مبادئ اجتماعية، أو أحزاب سياسية... وغير ذلك.

٢ ترجمة كثير من المفردات الإفرنجية الدالة على معانٍ خاصة تتصل بمصطلحات العلوم والفلسفة والآداب... وما إلى ذلك، إلى مفردات عربية كانت تستعمل من قبل في معانٍ عامة، فتجردت هذه المفردات من معانيها القديمة وأصبحت مقصورة على المدلولات الاصطلاحية.

٣ التأثر بأساليب اللغات الإفرنجية ومناهج تعبيرها وطرق استدلالها في المؤلفات العلمية والقصصية والأدبية وفي الصحف والمجلات.

٤ اقتباس كثير من ألفاظ هذه اللغات وتشبيهاتها وحكمها وأمثالها... وما إلى ذلك.

٥ إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة. فكثيرًا ما يلجأ الكتّاب في البلاد العربية إلى هذه الوسيلة للتعبير عن معانٍ لا يجدون في المفردات المستعملة ما

يعبّر عنها تعبيرًا دقيقًا، أو لمجرد الرغبة في الإغراب أو في التنوع من المفردات التي لا تكاد الألسنة كثيرًا وبكثرة الاستعمال بعثت هذه المفردات خلقًا جديدًا، وزال ما كان فيها من غرابة، واندمجت في المتداول المألوف[٣٠].

منزلة اللغة العربية حديثًا من منزلتها قديمًا:

[١٧] كان ذلك فقه دقيق وثيق لمنزلة لغة العربية حديثًا من اللغة العربية قديمًا، واللغة العربية قديمًا من اللغة العربية حديثًا، وأنهما وتلك لغة واحدة، وما ألمّ إلا أحوال الحياة في اللغة التي هي كصاحبها، لو جمدت عاشت قليلًا ثم تجمدت، وهو ما أباه مستكبيشن في استبطانه عنه في الفترة الثالثة.

وبه إذا كان انحلال اللغة إلى لهجات، أهم موضوعات تاريخ سائر اللغات، وأجدرها بالدراسة - فإن بقاء لغة عربية هي رغم لهجاتها، وهي رغم أطوارها، أحدر موضوعات تاريخها بالدراسة، وهو ما وعد الدكتور وافي أنه وهي، على رغم ما دعا إليه غيره[٣١].

أثر الإسلام والقرآن اللغوي التفكيري:

[١٨] لقد زلزل الإسلام العرب لغة وتفكيرًا، واستحثهم إليه بمثل ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[٣٢]، الأصل البالي المشروح بمثل «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها»[٣٣].

إنه لما سب أبو ذر الغفاري - رضي الله عنه - غلامه بأمه قائلًا «يا ابن السوداء»، قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية إخوانكم خولكم (خدمكم)، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[٣٤]، فانتبه إلى بقيه فيه من اللغة والتفكير، جاهلية تحمل إيمانه الجديد فالتقطها وأطّرحها[٣٥].

كان الإسلام فيما يرى مالك بن نبي، انفجارًا لغويًا تفكيريًا مباغتًا، على نحو فريد في تاريخ اللغات، انبعثت به اللغة العربية كي تبعث به الرسول العربي - صلى الله عليه وسلم - حاملًا للثقافة الجديدة والحضارة الوليدة، وأداة أدبية «جميلة المنظمة، بعد أن كانت البيت المرزون»[٣٦].

ومولا القرآن الذي وقف عليه الأعمار والأعمال، ونشأت له واستنبطت منه وصدرت عنه العلوم والمعارف وجميع فنونه والأقوال والأعمال والإشارات ـ مهما كانت عربية، ولذهبت كما ذهبت اللاتينية أو السنسكريتية[٣٠].

أثر علوم الأوائل اللغوي التفكيري:

[٢٩] ثم زرلتهم في عصر بني العباس علوم الأوائل، فوسعتها لغتهم وتفكيرهم ناصعتي دقيقتين بلا عوج ولا تعقيد، وتطورت من الأسلوب القديم التركيبي، إلى الأسلوب الفرد التحليلي الذي أنجزته مخالطة مترجمي الكتاب وتلاميذ ابن المقفع[٣١]، لتميل به العربية إلى بسط المعنى وانسياب الدلالة واطراد السياق وسهولة النمط.

إذا قال القديم «جدُّك (حظُّك)، لا كدُّك (عَناؤُك)»، ترك لسامعه أن يحس ما ركب ـ قال امرؤ القيس (ولم يُساعدك جِدٌّ فاجرك (المَناةُ) جِدُّ الانّ (خَيبَةٌ)»[٣٢] فأخذ بيد سامعه إلى المراد.

أثر الفكر الغربي الحديث اللغوي التفكيري:

[٣٠] ثم زلزلهم الفكر الغربي الحديث لغة وتفكيرًا، فانقسموا إزاءه على خمسة أقسام منهم من قبله كله وتمسك بالفكر الغربي كله، ومنهم من قبله كله وتمسك ببعض الفكر العربي، ومنهم من قبل بعضه وتمسك بالفكر الغربي كله، ومنهم من قبل بعضه وتمسك ببعض الفكر العربي، ومنهم من كاد يرفض الفكرين جميعًا[٣٣].

مراحل الاستدراك لتصحيح الفكر الحديث:

[٣١] إنني أوقر من أدب الاقتحام المنطقة التاريخية الثائرة كل ثائر القديم حديث أو القديم واقف حتى إذا ما تأوهت حفائق الحقائق، وانهار صحيحه من سقيمه، ووجب قبول صحيحه ورفض القديم به ووجد سقيمه وجبة القديم منه، اتخذت تلك الأقسام على قدر قسم واحد لا يقوم به غيره.

هو عمل زمان طويل تكون فيه ضروب من التجريب متعاقبة ربما تراءت، هي الاتباع الأعمى، ثم الانطلاق الغرير، ثم الاختلاف ثم الابتداع[٣٤].

وإذ تأملنا لسيرة الحافظ وتعابير خاصته، هي مثل ما سبق في الفقرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، لكفيل بأن يطلعنا على طرف من سيرتنا لغة وتفكيرًا. وإذ افتقدنا لمثل

ذلك على ما ينبغي له من الاستقصاء والوفاء، بدليل طبيعة علمية بأنها، وطبيعته وهي حياة الكائنة والمستقرة[٢٢]

اطراح الفكر القديم كاطراح الفكر الحديث

[٢٢] إن استيعاب الفكر الحديث بما فيه من آثار الدقة والتفكير الحديثين، يزيد من إنسانية الإنسان، ويخصب من حياته، ويثير من بصيرته، ولكن اطّراح الفكر القديم بما فيه من آثار الدقة والتفكير القديمين، ينقص من إنسانية الإنسان، ويجدب من حياته، ويطفئ من بصيرته[٢٣] ولأمر ما قال رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - في صحابته الذين منهم أبو ذر نفسه - رضي الله عنه - «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[٢٤] من ثم ينبغي ألا نعجب لهتري لوسل أن دعا في مقال نشرته لوموند الفرنسية، عنوانه «اللغة العربية والحضارة العربية الإسلامية تزودان العالم بها بنظرة جديدة إلى العالم» - إلى تدريس اللغة العربية وكتابها الأكبر «القرآن» في المدارس الفرنسية[٢٥] فلم يرد لأمته إلا الإصلاح أما العجب العاجب فلستكبيش يدعوه نحن إلى اطراح بنتاء بأنها قديمة!

المَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: نِظَامُ الأَطْوَارِ

علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة أهم منها

[٢٣] عمر، علي، خالد، الشمس، القمر، الأرض، كلم مفردات متوالياتنا، وهي كذلك معاني مفردات متواليات، كل كلمة متجردة منها معنى متجرد، متى خطرت خطر، ومتى خطر خطرت، ومع خطور كل كلمة منها أو كل معنى إلا بمنزلة ضرب واحد في واحد أو لمسمته عليه، لا زيادة ثم معتبرة

أما إذا كانت تلك الكلم (المعاني) أنفسها، هكذا: قَالَ وَعَالِمٌ حَوْلَ عُمَرَ وَالْقَمَرُ وَالْأَرْضُ حَوْلَ الشَّمْسِ - فهي كلام مركب متراتب، وفكرتان متشابهتان مجتمعتان تدل الأولى على علاقة جماعة من الناس، وتدل الأخرى على علاقة جماعة من الجماد. إنه إذ كانت العلاقة في الأولى علامة سعي الناس إلى الائتلاف وحرصهم عليه، كانت العلاقة في الأخرى علامة ائتلاف الجماد على سنة عليا، ثم كان التقاء العلامتين كالتقاء آية الخضوع المطلق لتقدير خالق و حد بديع عظيم، لم يعلمك قلب ليفني شترنوس، إلا أن يقول: «حين ننظر إلى جميع المنجزات الفكرية للإنسان يقدر ما دونت عبر العالم كله، نجد أن القاسم المشترك بينها هو دائما إدخال نظام من نمط ما» ولئن كان هذا يمثل حاجة أساسية للنظام في العقل الإنساني، وما دام العقل الإنساني، بعد كل حساب، ليس سوى

جزء من الكون، فإن الحاجة ربما كانت موجودة لأن ثمة نظاماً ما في الكون ولأن الكون ليس في حالة من الفوضى»[٢٣]

ونحن إذ تأملنا في التاريخ أعمال كبار المفكرين علماء وفنانين، لم نجد قيمتها في ابتكارهم المحتشد فيها من الكلم (المعاني) المنفردة، بل فيما يختارونه لها ويختارونها له من علاقات تُظهرها وكأن لم تسمع من قبل[٢٤]

ولأمر ما قال أبو نواس مسلم بن الوليد الضرير في قوله

«رَأَى المَهْلَبَ أَوْ بَأْسَ الأَبَاةِ بِهِ»

بأنه لم يسبقه إلى جمع (وَرِدَ) أحد ـ «إِنَّ هذا لَهُوَ الشِّعْرُ»[٢٥]

وللأمر نفسه قال بابي أنكلان الكاتب الأسباني: «إن لشقاء الشاعر الذي لم يجرؤ بعد على أن يجمع بين كلمتين لم تلتقيا من قبل على الإطلاق»[٢٦]

علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة، أهمُّ من الكلم (المعاني) المنفردات أنفسها، فضلاً عن أنها التي تقدم الفكرة «دلالة علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة»، لا المعنى المنفرد، فتظهر الكلمة أحياناً وكأنْ لم تسمع من قبل ـ بشكلٍ وحُسْنها بتوريدٍ ما لا يخفى من الأذكار[٢٧]

وبالقياس تكون علاقةُ جُمَلِ الفقرة المجتمعة، أهمَّ من الجمل المنفردات، وعلاقةُ فِقَرِ النَّصِّ المجتمعة، أهمَّ من الفِقَرِ المنفردات، وعلاقةُ نُصوصِ الكتاب المجتمعة، أهمُّ من النصوص المنفردات، فإن التأمل بطيل النظر حتى تكتشف له رسالة الكتاب المستورية على نصوصه، فتكتشف بانكشافها قضايا النصوص، ثم أفكار الفقر، ثم الجمل، فتكون معاني الكلم عندئذ قيمة

علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة عمل النحو

[٢٤] ما علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة بعضها ببعض إلا عمل النَّحْوِ، وما تعليق مستعملها لها بعضها ببعض إلا إعمال هذا النحو[٢٨]، وما الانطلاق منها إلى علاقة الجمل في الفقرة والفقر في النص والنصوص في الكتاب، إلا انطلاق من نحو الجملة القديم الدارج لدى الآن ـ وعليه ما أشد تنبي عنه صفة الوفاء ـ إلى نحو النص الحديث الملتمَّس[٢٩]

((وجْهُ النَّحْوِ الفَلْسَفيّ المُجَدَّدِ)):

[٢٥] إذا كان نظام اللغة منحصرًا عند دو سوسير عالم اللغة الغربي على الأصوات والكلمات فقط أو مع عدد ضئيل من الصيغ الثابتة والسياق العام، لم يكن بالمستطاع أن يجعل له علاقة بنظام اللغة، بل بالكلام المنطوق؛ ومن ثم كان خارج إطار علم اللغة الحقيقي لأنه مجرد نمط من الإبداع الفردي الحر الذي لا تحوله قواعد اللغة إلا ما اختص بصياغة الكلمات وسياق الأصوات؛ ثُمَّ من ثَمَّ لم تكن للنحو أهمية كبيرة[٣٣]

ولقد لم يكتف في فهم طبيعة التفكير البشري أن تفسر ظواهره على منهج الديكارتيين بربطها بين مبدأ جوهري وهو العقل لم تكتشف خصائصه بعد على نحو متجانس وشامل - انطلق تشومسكي عالم اللغة الأمريكي من حصر ديكارت هذه إنسانية الإنسان بمقدرته من خلال اللغة على التحليل والتوليد[٣٤]، إلى التفتيش في تلك المقدرة عن نماذج تتيح له وضع نظام من القواعد يسمح بتوليد العمل الممكنة في اللغة كلها، يشتمل على عناصر ثلاثة هي: المكون التركيبي والمكون الصوتي والمكون الدلالي (نظريته النحو التوليدي) لا ينحصر في حدود لغة ما وإن اعتمد عليها، بل يشمل اللغات الطبيعية كلها فيضطلع بدراسة الشروط الواجبة فيها، فصار همه «تأصيل النحو في أعمق أعماق الفريضة العقلية المشتركة لدى البشرية، على أساس أن العقل عنده فطري، وأن اللغة بنحوها المنطقي متأصلة في أعماق الفطرة التي يوجهها العقل»[٣٥]

لقد استحسن منهج وصف ظواهر اللغة والنشاط العقلي بأعلى درجات الدقة الممكنة وصولاً لتوليد بناء نظري يفسر تلك الظواهر ويكشف مبادئ انتظامها وعملها، ولا يربط التراكيب والأعمال العقلية المفترضة بآلية آليات فسيولوجية، ولا يفسر الوظيفة العقلية من خلال أسباب فيزيائية، فراجع نظرية النحو الفلسفي أو الكلي التي نشأت في القرن السابع عشر، منطلقًا من الاعتقاد بجواز الذهاب إلى أبعد ما يمكن فحصه في سبيل تفسير الملاحظ، ومن العشرة بنوعي في عبارته لفهم طبيعة حركة الكراكيب، إلى استخلاصه من النظرية المهجورة بأنها ليست نمط من النحو المعياري الذي تجاوزته الدراسة اللغوية، بل من التفسير العقلي أي تفسير حقائق الاستعمال من أساس فروض متعلقة بطبيعة العقل وطبيعة الفكر البشري[٣٦]

إنه لمفهوم جديد يُعد آراء الإنسان في عقله، فيما قد يطمح إليه تشومسكي من «النحو الكلي» الذي يبحث لنظام أصول لغة ما وحدة وتفكير وصفه كان حافز الدكتور عبد الرحمن إلى إلحاح أسئلته ومفهوم تشومسكي نفسه، بجعل رسالته لدكتوراه في دراسة التراكيب الأساسية في اللغة العربية، مستخدمًا المنهج الذي وضعه تشومسكي لتعريب القدماء مقترنًا بالمنهج الدلالي التصنيفي الذي وضعه عالم الدلاليات الأمريكي ولدر كوتز

وبالمنهج التوليدي التحويلي الذي وضعه تشومسكي وقد تعمدت هنا، من أجل وصف التراكيب العربية وشرحها نحويًا ودلاليًا، حتى "يمكن للنظرية اللسانية الحديثة أن تستفيد من المواد اللسانية المقدمة في هذه الدراسة"[٢٥] - فحظي باهتمام تشومسكي وتصريحه للكتروب في غرة العمل، بما له من إضافة إلى النظرية الغربية

لقد اشتد انشغاف الناس إلى أمم مختلفة اللغات والتفاكير، تسهر أبحاثها (أنظمتها) على رعاية اختلافها، بحيث لا يستبعد لنا أن لا يكون ذلك العلم الأخاذ، إلا كابوس «العولمة» قد استشف به نباهة «النحو العالمي»، فدعو الناس إلى أن يعتمدوا الحضارة الغربية ويتنموا إليها دون حضارتهم؛ إذ لا حياة إلا باعتناق مبادئها، ولا سيادة إلا باعتياد طرائقها، كما سبق في الفقرة الثانية عشرة، وهم لا يريدون (إلا أن يستوعبوا) الحضارة الغربية كي استوعبهم الغرب، لا أن يكرروه كي لم يكنهم. ولن يكونوه لو أرادوا، بل سيكررون له، كما كان كثير من العالم الذي اغتصبه وأجبره على حضارته، فصار حضارته لمخلفاته "

ولن يفوت المتأمل أن يستظهر من تصريح تشومسكي نفسه المكتوب في غرة عمل الدكتور مازن الوعر لأنف ذكره، أن الأصول المحدوم باكتشافها، هي لغة وتفكير غربيين، كي أراد ستنكيفيتش فيما استنبطه هنه من أفكاري الفقرة الثالثة!

ولكن ينبغي ألا يفوته أنه تجلى في خلال ذلك علائقه التكميم (المعاني) المجتمعة بعضها ببعض، التي هي أهم منها هي نفسها، والتي هي عمل النحو - عملًا لغويًا تفكيريًا، فيتجعل النحو نظامًا لأطوار اللغة والتفكير حيث معًا أي السلك الذي ينتظمها لتكون، في التاريخ عقدا متآخذ حبّات لولاه لانفرطت نفاتٍ وتفاكير شتى، لتكون هو ذلك الموضوع الأجدر بالدراسة من موضوعات تاريخ اللغة العربية، الذي بهت عليه الفقرة السابعة عشرة، بَلَهَ أن يكون وجه النحو العلمي المجدي.

نقد الدكتور تمام حسان لعمل الدكتور عثمان أمين:

[٢٦] في خلال حديثه عن كون الإسناد في اللغة العربية قرينة معنوية مقابلة من قرائن التعليق، نوازر غيرها من القرائن اللفظية (اللغوية والنطقية)، ومن القرائن الحالية (المقامية) - وعدد كلها قرائن تعليق - ومن القرائن العقلية (العهدية الذهنية والمنطقية)، ومن القرائن الذاتية (المتعلقات المجرمة في مكان الجريمة وما أشبه)، وأنه بهذا الدور والتضافر تفهم معاني النص الدلالي - ذكر الدكتور تمام حسان أن الإسناد في الدراسات الغربية مقتصر إلى وساطة نوع من القرائن العقلية يسمى الأحمال المساعدة، ليس هو فيها قرينة كما في العربية. ثم أشار إلى عنوان الكتاب الذي ألفه الدكتور عثمان أمين في كتب به،

تفضيل اللغة العربية بدءا على لغات أخرى غيرها، ثم أعرض عن هذا الضرب من البحث، لأنه عما وراء منهج الدقة الذي يعتني به الفلاسفة - إن جاز أن يعتني به أحد - لا المعربون. وصرح بأنه يعتني من هذه المسألة مثلا، بكون الإسناد قرينة معنوية لتعيين المسند إليه من المسند في «الجملة»، في مثل ظاهرة كبرى عكم استخدام القرائن جميعا، هي ظاهرة «تضافر القرائن»[٢٦]، وهي بطريقته المهمة التي قدمها بهذا الكتاب، وانطلقت منها واعتمدت عليها دراسات كثيرة

دلالة عمل الدكتور عثمان أمين

[٢٧] إننا إذ نظرنا في كتاب الدكتور عثمان أمين، المقصود بعينه على صفحة «فلسفة اللغة العربية»، وجدناه منشورا في سبعينيات القرن العشرين، منزعة القومية العربية وتنبيه المنخرطين بدعوى قصور اللغة العربية - مبنيًا على عشرة فصول. الأول، التمهيد في اللغة والأمة، والثاني، خصائص اللغة العربية، والثالث، حضور جواني، والرابع، الصدارة للمعنى، والخامس، الإعراب مطلب العقل، والسادس، ظلال وألوان، والسابع، الحركة والقوة، والثامن، اعتراض ورد، والتاسع، مصير اللغة العربية، والعاشر، اللغة العربية والثقافة الفلسفية - ختمت بقوله: إن عزة الإسلام في المحافظة على حرمة العروبة، وحرمة العروبة في المحافظة على الميراث العربية التي تميزت بها اللغة العربية. إنها لغة مثالية، ذات فلسفة واضحة، فلسفة «جوّانية» موحدة، تربط القول بالفكر، وتوحد بين النظر والعمل[٢٧]

إنه يبين اعتماد الفكر العربي على امتزاج اللغة والتفكير العربيين، وصدوره عنه، بحيث إن فساد هذا الامتزاج وانسجامه، فسد ذلك الفكر وانسجم، ولما كانت حياة هذا الفكر، كانت بحياة ذلك الامتزاج كذلك. وهي قضية أُهملت كما اتضح من عمل الدكتور تمام حسان، في سبعينيات القرن العشرين، لحضور النزعة القومية، وسيطرة المنهج الوصفي، فلما تثبت بد الآن أصابع العولمة، وسيطرت نظرية النحو التوليدي الساعي إلى النحو الفلسفي، عادت جذّاعة جديرة بالتأمل

النحو العربي نظام أطوار اللغة والتفكير العربيين

[٢٨] لقد كان ستكيفيتش كما يتضح مما استنبطت منه من أفكار في الفقرة الثالثة، واعيًا كيف يعبّر النحو اللغة والتفكير، حتى ليُعدّ نحوهما جميعًا[٢٨]، ونحن إذ استعملنا دلالة عكس الكلام ثبت أنه يشير إلى بقاء اللغة والتفكير عربيين، ما بقي لأطوارهما النحو العربي نظامًا، وأن ليس لعجمة الكلمات (المعاني) المفردة، أو عروبتها في هذا الشأن، من

أثر. وهو قد قال في موضع آخر من كتابه نفسه: «إن اللغة العربية ليست مختلفة عن الإنجليزية مثلاً لأن كلمة (يكتب) تتضمن السابقة (ياء المضارعة) وأن الكلمة الإنجليزية Writes لا تتضمنها. إن المنطق الدلالي والصرفي واحد في الكلمتين، لقد عبّر المتكلم عن أبسط فكرة عملية للتحدث في الحالين. إن الاعتبارات المعجمية والصرفية ليست بعائق يحول دون التماثل المنطقي للعبارتين. أما النحو فإنه - كما يبدو في المقابلة بين الجملتين البسيطتين السابقتين What does he do? وماذا يعمل؟ يصبح هذا التماثل في خطر. إن النحو - الذي هو بناء المنطق اللغوي متكامل ومركب يختلف اختلافاً شديداً من لغة إلى لغة أخرى. لكن النحو - في التحليل النهائي - يعد المكان لأنماط فكرية تطورت من اكتشافات فكرية إلى عادات فكرية، ومن ثم إلى قوانين فكرية، ونحن عادةً نتعامل مع قواعد الفكر [أي اكتشافاتنا الفردية لأفكار جديدة نادرًا ما يسمح بتطورها إلى عادات فكرية شائعة وهذا تلقائي، لأنها عوارض زائلة دون أن تشكل قواعد جديدة]»[٣٨]

لكأنه نظر في مثل هذه الجملة (الراديو والتلفزيون والفيديو كرتفال إنترناشيونالية)، وكل كلمة منها أعجمية صيغة ومعنى، فرأى كيف تصارعت منه سائر قوانين التعبير (النحو) العربيّ فاستعربتْ، فلم يبق بأيدي نصيغ الكلمات ومعانيها المتعرفات، قائلاً: هذه طيور حالية مهاجرة، فحيثما أقامتْ وعشّشتْ تقشّبتْ!

ظاهرة تَعْرِيب التَّعْبِير

[٣٩] نحوُ اللغة والتفكير العربيُّ باقٍ من قديم إذ نقدنا الأمور بما يحفظ عليها حرويتها، على رغم ما استعجم أو استعجم من صيغ الكلم ومعانيها المطردات[٣٩]. ولكن بين هذه المنزلة ومنزلة الكلمات (المعاني) المجتمعة بعلاقة نمط، منزلة التعبير «الوحدة المعنوية الدنيا التي يحتضنها تركيب ما في الكلام ولا تحتضنها بنية خاصة، ويهتدي بها بتقطيع الكلام بمراعاة تمام المعنى»[٤٠]، فالمكوّن الحَشْو عند الدكتور النفيس، الذي نحلّ إليه الجملة خلال الفهم ثم تتعقد به[٤١].

نقد كثر في هذه المنزلة حديثًا ما أحدثه العربيه من غيرها، حتى لقد ذكره الدكتور وافي ضمن أهم عوامل تطورها في العصر الحاضر، قائلاً في المرتبة الخامسة: «اقتباس كثير من أمثلة هذه التعبيرات وتشبيهاتها وحكمها وأمثالها... ونسبة إلى ذلك»[٤٢]. فتناوله بعض الباحثين على أنه من «التداخل الأسلوبي»، ناقدًا صور من سمّاهم «المصفويين» - نسبة عجيبة إلى الصفاء الدعوي منه، ومثلاً بما دخل العربية منه على رغم أنفهم من الفرنسية، مثل قول الفرنسيين: «ذر الرماد في العيون»، ومثّل على خطيئته بين الكلمات متلائمة، وعلى جدواه على لغتنا المنتشرة إليه شغلاً لمراعاته، وندعو ضرورةً إلى دراسته

دراسة معجمية اجتماعية تفسر الحضارات بالمصطلحات (الكلمات) وبالتراكيب (التعابير) التي تنشئها أو تستعيرها"

إن تسمية هذه الظاهرة (تداخلًا)، غير مبررة؛ إذ تداخل الأساليب أن يستعرب من كل منها إلى الآخر ملامح، وهو التلاقح الأنف الذكر، ونقصد هنا دخول ملامح من طرف إلى آخر دون عكس، وهو لا يخرج عن التعريب، وقد عرض الباحث نفسه لظاهرة «مجمع إلى «تعريب الأساليب» أي التعابير"" ولا ريب في أنفة بعض أدبائنا عن الرضا من تعريب التعبير فمسكًا «بنقاء الديباجة»، واجتهادهم ـ إن افتطروا ـ أن يحلّوه ويعقدوا عقدًا عربيًا بحتًا. هذا شأنهم أيضًا حين يعتقدون أن وقوع الكلمة أو التعبير المعربين في ذهنهم، كوقوع قطرة الدبوس في رقّ الحسل المصفى، ثمّ مستطير، وأنه لا أثر بعدئذ ما يبقى كالخرق المرقوء، كسرة يهضمها معدة النحو العربي، غافلين أن تتابع التعابير المعربة أحدًا بعضها يحجر بعض كرافع الذرب المسهوم الحافظية التي لا بأنية معها لخاصة التزمه ـ فلا تلاقح ولا استعارة، بل ذبه وهدم. وفي استبطانه عن ستتكيفيتش في المكررة السادسة من العقرة الثالثة، ما يؤكد هذا الرأي.

أما مقدرة مثل هذه الكلمات والتعابير المستركة في نظام أطوار اللغة والتفكير الذي أنشأها أو الذي استعارها، متى انتزعناها منه قدرسناها دراسة معجمية اجتماعية ـ على أن تفسر الحضارات ـ ولا ريب في أن أفراد تفسير ضعف الحضارة العربية وقوة الحضارة الغربية؟ ـ قريبة التناول؛ إذ الغربة المتحققة مقدرة نظام أطوار اللغة والتفكير نفسه على ذلك. ولكن تلك الأولى مفيدة في الاطلاع على طرف من سيرة تلاقح الحضارات وأثر بعضها في بعض.

تمسك دعاة التطوير بنظام أطوار اللغة والتفكير العربيين.

[٣٠] تطور اللغة، حياة، وجودها موتها، والقانون ولا سيما الأحياء، أكثر الناس وعيًا لذلك، ومن ثم يدعون كل حين إلى اطراح نظام أطوار اللغة والتفكير، حتى إن ما تحركت لغاته وتطورت على ما يرغبون، دعوا إلى التمسك بالنظام نفسه، وعيًا منهم لوظيفته الآنفة البيان.

هذا أدونيس الصاحب الثورة على نظام أطوار اللغة والتفكير العربيين في «زمن الشعر»"" يعود في «النص القرآني» إلى ما صحب به، ليعدّله ذاكرًا أنه قاله في سياق آخر، داعيًا إلى التمسك بما ثار عليه؛ فيه لا في القدامة ولا في الحداثة، يكمن الإبداع، شارحًا كيف يأتي هذا النظام «زراعة أعضاء غريبة»"" فاصلًا في فهمت، شوبه بضرره، على جهة الكذب اللغوي الذي قال به الدكتور شكري عياد «إنما تفسد اللغة وتسخط

القدرة اللغوية عندما يتعود الناس الكذب في استعمال اللغة. فكما أن الحياة الاجتماعية لا تستقيم إذا كان الكذب هو قاعدة التعامل، فكذلك الحياة اللغوية - وهي آداب الأولى - تضطرب وتفسد حين يتعمد الناس تحريف الكلم عن مواضعه»[٣٦].

أما غير العصريين من دعاة التطوير، المطمئنون إلى بقاء عروبة اللغة، ببقاء نظم أطوار اللغة والتفكير العربيه فضلًا عما يختص به العرب من ظروف أخرى[٣٧].

المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: مِثْلُ الاتِّصالِ

دعوى حسالة طه حسين وقدامة الرافعي

[٣١] ذكر الدكتور زكي مجيب محمود أن نهضة اللغوية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، التي اختلف نهضة الحضارية، أخذت في طريقين. «فأما أحدهما فطريق سلكه فريق من الناهضين أرادوا باللغة أن تتناسب العامية في وسيلة أدائها، وأما الطريق الآخر فهو الذي سلكه فريق ظن أن النهوض باللغة إنما يكون بإحيائه القديم، وكان الله يحب المحسنين»[٣٨].

ولا ريب عندي في أنه وضع هذا التقسيم وفي ذهنه طه حسين من الفريق الأول الناهض، ومصطفى صادق الرافعي من الفريق الآخر القائد؛ فهما قد ثارت بينهما في الفترة المذكورة، مشكلة القديم والحديث، التي مثل فيها الرافعي القديم رافعيًا، ومثل فيها طه حسين الحديث رافعيًا، بأية ما جمعه طه حسين في كتابه الذي ذكر فيه أنه «يريد أن تكون اللغة حية نامية، ومن ذكر الحياة والنمو، فقد ذكر التطور، ومن ذكر التطور وآمن به فهو من أنصار المذهب الجديد»[٣٩]. وأنه لا يكره أن يستمع «لمن اللغات الحديثة الأوروبية معاني وأساليب وألفاظًا»[٤٠]. ولك أسلوب الرافعي على فقهه لمدقائق العربية «لا يلائم العصر الذي نعيش فيه»[٤١]؛ إذ يتمسك باللغة «بوروثة دون زيادة أو نقصان» وهو ضرب من التحقق أن نعيش الحياة الحديثة ونكتب اللغة القديمة[٤٢]. ونحس أن «لو كتب الكاتبون في هذا الموضوع، وأعلن كل منهم رأيه فيه؛ فقد تنتهي مناقشة بنا إلى الاتفاق على قاعدة يحسن أن نعمل عليها منذ الآن، فننقي هذا الاضطراب الذي نشهده في النثر والشعر وأساليبهما، وننقي شيئًا آخر قليلًا مكررًا هو سخط الأدباء والكتاب إنا نقدهم ناقد وأخذهم كاتب بما لا يجوز»[٤٣].

حكم ستكيفتش لمذهب طه حسين على مذهب الرافعي

[٣٢] لكاتب آراء ستكيفتش بعمله الذي أفضى إلى ما استبعته عنه في الفقرة الثالثة، ولا سيما الفكرتان الأخيرتان - أن يجيب دعوة طه حسين ويلقى أمنيته، محذورًا من عرف عنه من أنه من القسم الثاني من أقسام العرب المتزلين بالفكر الغربي الحديث، الذي قبله كله وتمسك ببعض الفكر العربي[٣١] - وربما لم يخفه الرافعي من رفض الفكر الغربي الحديث[٣٢] فحكم مستسلمًا دون موازنة، لمذهب طه حسين اللغوي التفكيري الغربي، بالنجاح والبقاء، وعلى مذهب الرافعي اللغوي التفكيري العربي، بالفشل والفناء

مادة الموازنة

[٣٣] لقد دعيت في أعمال طه حسين والرافعي، التمس من نصوصها ما يؤهله الثورة للموازنة، فحصلت على نصين متشابهين رسالة ومقالًا، أوردتهما فيما يلي مشفوعين بجداول العناصر القابلة لتهيئتها للنظر المراد

وقد كنت أرى حواشي كل بحث جديرًا منه تأخر حكمة، أخرت شرح العمل بالجداول وما أشبهها عن يأتي معها أو بعدها - وهو جزء من البحث مهم جدًا - إلى بيان الحواشي المرقمة، درءًا لشبهة التزيد والتسويق، وتيسيرًا لتأمل القارئ للنصين ونتائج تأمل هي

وربما كان من تمام المقصد أن أؤخر الجداول وما أشبهها كذلك، ولكني رأيت إيرادها هنا مهما لتصور مسيرة البحث، وربما لم يحتج قارئ إلى مراجعة بيان الحواشي لظهور المراد.

نَصُّ طه حُسَيْن[٣٣]

«أُنْظُرْ (- يا سَيِّدي -) إِلَى يَمِينِكَ / فَخُذْ بِحَظِّكَ مِنَ الْخَيْرِ / وَانْظُرْ إِلَى شِمَالِكَ / فَخُذْ بِحَظِّكَ مِنَ الشَّرِّ / فَلَا خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ إِذَا لَمْ تَكُنْ حُزْنًا وَسُرُورًا ، وَلَذَّةً وَأَلَمًا ، وَجِدًّا وَهَزْلًا /

أُنْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ / وَانْظُرْ عَنْ شِمَالِكَ / ثُمَّ انْظُرْ أَمَامَكَ إِلَى هَذَا الْبَلَدِ الْحُرِّ التَّعِيسِ، الَّذِي يَعْدُو عَلَى حُقُوقِهِ أَصْحَابُ الْجَدِّ لَا يَبْهَرُهُمْ بَهَارِيجُ أَصْحَابِ اللَّهْوِ -[٣٤] وَهُوَ يَحْتَمِلُ عُدْوَانَ أُولَئِكَ (- وَيَحْتَمِلُ لَهْوَ هَؤُلَاءِ -)[٣٥] لِحُرُوبِنَا حِينًا، مَشْرُوعَةٍ، حِينًا آخَرَ، سَاجِرَةٍ، مِنْ أُولَئِكَ وَهَؤُلَاءِ دَائِمًا، لِأَنَّهُ قَدْ بَلَا مِنَ الدَّهْرِ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ، وَذَاقَ مِنَ الْأَيَّامِ حُلْوَهَا وَمُرَّهَا، وَوَثِقَ بِأَنَّ عَدْلَ اللهِ قَرِيبٌ، وَبِأَنَّ الْحَقَّ مُنْتَصِرٌ (- مَهْمَا يَتَعَبَّسْ شَيْطَانُ الْبَاطِلِ -)[٣٦] وَبِأَنَّ صَرْحَ الْخَيْرِ مُشَيَّدٌ / مَهْمَا يُشَيِّدْ بِأَضْخَمِ الْأَحْجَارِ وَأَصْلَبِ الصُّخُورِ /[٣٧]

نصّ الرّابعيّ [1]

«وتجلّت / لِيَتَنَبَّأَ، / ، أيُّ الفقيرُ؟ / ،

الغنيُّ يُريدُ أنْ يجعلَ حظوظَ الناسِ جميعًا حظًّا واحدًا، يختصُّ نفسَهُ بهذا الحظِّ، / ، وأنتَ تُريدُ أنْ تختصَّ بحظِّ الغنيِّ، / ، فماذا تركتَ للهِ يؤتي الملكَ مَنْ يشاءُ، ويَنزِعُ الملكَ ممّن يشاءُ؟ / ،

إنّ اللهَ قد اختصَّكَ على الممرِّ الفضائلِ وأعرُها من الصّبرِ والقناعةِ وشرفِ الضّميرِ، وأشرفَ بكَ على مصارعِ الأخيارِ، فرأيتَ كيفَ يتقلّبُ قلبُ الحديدِ وهو يحسبُهُ قرةً لأرضٍ زلزلتْ بالزلازلِ، وكيفَ تطرفُ عينُهُ وهو يتوهّمُ اللجّةَ التي تبتلعُ كلَّ ما في رأسِهِ من الأحلامِ، وكيفَ يسرتُ وهو يرى كلَّ ما كانَ في يدِهِ كالظلِّ على الجدارِ لا يتدربُ صاحبُهُ ولا ينفضُ ظلالَهُ، ويرى أنّهُ كانَ يشتري المالَ الذي لا حدَّ لهُ بالعمرِ المحدودِ، فلا القلبُ من هذا خسرَ ولا المالُ جمعَ / ،»

الجدول الأول [2]

المسند إليه / المسند	ضمير خطاب	ضمير تكلم	ظرف	مضاف إلى معرفة بأل	ضمير غيبة
فعل أمر	٧				
فعل مضارع		١		١	١
جملة ظرفية زمانية			١		
جملة (فعل مضارع ومضاف إلى معرفة بأل)			١		
جملة (فعل مضارع وضمير غيبة)			١		

الجدول الثاني (٨٦)

المسند إليه / المسند	ضمير خطاب	ضمير المتكلم	سم ظاهر	علم
فعل ماض	٢			
فعل مضارع	١	١		
جملة (فعل مضارع وضمير فيها)			١	
جملة (فعل مضارع وضمير عطاب	١			
جملة (فعل ماض وضمير فيها)				١

الجدول الثالث (٨٧)

البيانات	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩		١	٢	٣	المجموع
عدد الكلم	٣	٣	٧	١	٧	١٤	٣	١	٢١	٣	١	٤	٨	١٤٤
عدد العلاقات	٢	٣	٣	١	٣	٥	٣	٢	١٦	٣	٢	٣	٠	٤٩
متوسط العلاقة	١,٥	١,٣٣	٢,٣٣	١	٢,٣٣	٢,٨	١	٢	١,٣١	١	١	١,٣٣	٠	٢,٩٣

الجدول الرابع (٨٨)

البيانات	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	المجموع
عدد الكلم	٢	٣	٣	١٦	٨	٢٢	١١٦	١٧٣
عدد العلاقات	٣	٢	٢	٦	٦	٧	٧	٤٦
متوسط العلاقة	١	١,٥	١	٢,٦٦	١,٣٣	٣,١٨	٦,٢١	٢,٦٤

الجدول الخامس (٨٩)

المجموع	١٢	٩	١٥	١١	١٣	١٢	١١	٩	٩	٨	٢	١	٨	١	٢	١	٢	٢	المجموعة
١٦			٣	٥	٩	٧	٨	٥	٣	٣	٣	١	٢	٣		٣	١	٢	غائب
٥	٢	١	٩	٧	٧	٦	٤	٤	١١	٥	١١	٦	٥	٣	٥	٥	١	٢	غير غائب

رسم البيان (٩٠)

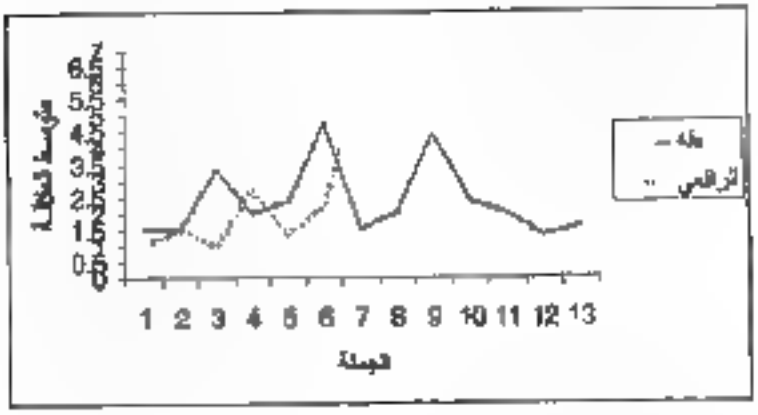

الجدول السادس (٩١)

ملاحظات	خبرة	ملاحظات	إعداد	مجموعة الأسرة مجموعة فرعية
٢ الاعتراض ١ الاستلام	٣	٣ الاعتراض ٢ العطف ١ الاستلام	٨	الإعانة
		الاستلام	١	غريبة

الجدول السابع (٩٢)

الجملة الثانية / الجملة الأولى	إيجابية	حيادية	سلبية
إيجابية	٩	٣	٠
حيادية	١	١	٠

الرسالة والأسلوب:

[٣٤] إنَّ من النَّوادر المُهمَل صدور طبعتي الكتابين المحتملتين هما معًا لا قصدًا، عن مكان واحد (بيروت)، في زمان واحد تقريبًا (١٩٨٢، ١٩٨٣م)، غير أنه لا يخلو من أن يدل على طلب القارئ العربي فيها حينذاك!

لقد كانت رسالة معن عله حسين تفسير البلاء ورسالة معن الرافعي تعسير الفقير. أما عسر البلد المرجو في الأول، فمن ظلم حكامه الحاقدين واللاهين جميعًا، فعسا قريب ينتصف منهم، وأما عسر الفقير المرجو في الآخر، فعلى أيد الفقر، إذ هو مقدم من مخاصر المعضلات فيه وقاؤه من نقائص الأشياء المهلكة.

لقد كان عله حسين ناصحًا واقعيًا ثائرًا، والرافعي ناصحًا مثاليًا هادئًا. أما ناصحيتهما فواضحة من رسالتي مصيبهما المذكورتين آنفًا؛ ثم أزمة يطلع عليها كل منهما، ويقترح للمأزوم فيها سبيل النجاة منها، ولكن لخير الأول من البلد مركزًا، لقد أراد الآخر بالفقر جنسًا. وأما واقعية عله حسين دون الرافعي، فمن ملاحظته البلد حوله مكانًا وزمانًا، والتباسه بها تؤديه الملاحظة دليل ما يريد[٣٥]. وأما مثالية الرافعي دون عله حسين، فمن تأمله سر الخلق في نفس الجنس، والتباسه بها يؤديه تخيله، دليل ما يريد[٣٦]. وقد يكون من جرائر مثاليته تعلقه بالصورة المركبة للبلد، خلف الأجواء، التي تتجلى في جملة نصه السابعة الأخيرة ـ على حين كان من جرائر واقعية عله حسين تعلقه بالصورة المركبة للمجاورة الأجواء، التي تتجلى في جملة نصه التاسعة. فإذا جاز أن نذكر من أسرار هذه الصورة، عند عله حسين الذي كان يعمد على المتابعة والمعاقبة، وكأن الأحداث تتخاطف سمعه؛ فهو في ملأ من أذنه[٣٧]. جاز أن نذكر من أسرار تلك الصورة، عند الرافعي الذي كان يعمد على التوحيد والتشتيت، وكأن المشاهد تتخاطف بصره؛ فهو في ملأ من عينه[٣٨].

الاعتذار عن اعتياد الإحصاء.

[٣٥] لعبط علينا القدماء على ما ورثوا من الناس (أن أيقنوا بجدوى النظر في الكلام العربي)، خالقًا شكي، والإخلاص (أن أخلصوا للحق نظرهم في الكلام العربي) خالقًا رياني، و لانقطاع (أن انقطعوا لخلال نظرهم في الكلام العربي، عن سواه) خالقًا شغلي، والذوب (أن داوبوا على النظر في الكلام العربي حتى تظهر الجدوى) خالقًا تنوري؛ وهي أحوال مختلفة مؤتلفة، لم يقيت لأمثالي من الباحثين، لأعتنا عن التمهيد بنظرة في الكلام العربي، دائمًا مدمنة لأنفسنا ولغيرها، بمثل تلك المقدمة المجدولة من إحصاء العناصر الدالة السابقة في الفقرة الثالثة والثلاثين؛ إذ ليس كمكافحة النص استبطانًا واستبعادًا.

نقد جهتي الخطاب المستولي على النصين:

[٣٦] إذ تأمل «يا سيدي» الثانية جعل عليه حسين و«أبو الفقير» ثالث حمل الراعي، معًا وكلاهما سواء، اصبعنا على فرق ما بين جهتي الخطاب المستولي على نص كل منهما الذي بينه الجدولان الأول والثاني.

«يا سيدي» من لوازم الحديث اليومي العادي، يبادلها المتلاقون في البيوت والشوارع والأندية، كل بحسبها من شعور، رضًا أو سخطًا وإقرارًا أو إنكارًا.

و«أبو الفقير» ليست من ذلك البابة، بل تكاد لا يقرها إلا شخص بعينه لشخص بعينه، وبكاد لا يحسنها إلا الأسف.

كأنما انتاش عليه حسين إلى خلاط من يسمعهم ولا يراهم، ولا يحسن «النظر» إليهم عند الحمنة وبعدها، من دلالة سعى حين أقبل الراعي على نصه دون غيره ممن لا يسمعهم ولا يتبه لهم، حتى ليبدو هو الفقير المذكور.

جهة الخطاب المستولي على نص عليه حسين إذن، حقيقة، لا يُحتج له أنه كان يخاطب عامله الكاتب عنه[٣٧]، بل ما في نصه من علامات شوقه إلى مجتمع الناس أن يحضروا إليه ما امتنع عليه أن يحضر إليهم. (انظر، يعين، خلد، انظر، شيالله أمامك، هذا ...). وجهة الخطاب المستولي على نص الراعي إذن، بجارية، من باب التجريد المحض[٣٨]، لا لأنه ليس ثَمَّ مدعوٌّ للإقبال[٣٩]، بل لما في نصه من علامات شغله بنفسه بعضها من داخل، كي يصدق الوصف من قبل أن يصدقه غيره، (تيتش، تريده تختص، تركي، اتتملك، أشرف بك، رأيت كيف وكيف وكيف...)

بين نص الأمر الطَّحْسَبيّ والفعل الماضي الرافعيّ

[٣٧] بنظرة أخرى بين الجدولين الأول والثاني، يتبين اختصاص نص طه حسين بفعل الأمر دون نص الرافعي، واختصاص نص الرافعي بالفعل الماضي دون نص طه حسين، وذلك أثر طبيعي؛ فالماضي خبرٌ حكيمٌ لا يكتم ملق، إذا اتصف مُلْقًا لم يَقْوَ للإمكان أبدعُ منه، يشتغل به المثاليون الهادئون المعتزلون الراضون، ومن هؤلاء جميعًا الرافعيُّ في نصه المختار ـ والحاضر وما تعلق به من المستقبل جَلَبةٌ وصَخَبٌ، لا يتصف فيه إلا الجسور، يشتغل به الواقعيون الثائرون المتحرِّقون الساخطون، ومن هؤلاء جميعًا طه حسين في نصه المختار.

اختلاف علاقات الكلم والجمل بين النصين.

[٣٨] كلم نص طه حسين و كلم نص الرافعي ـ وإن زادت هذه قليلًا ـ اللوان بينهما الجدولان الثالث والرابع، متقاربات جدًا. وحل رغم هذا اجتمعت كلم نص الرافعي في سبع علاقات تامات (جمل)، بمتوسط (٨٥ , ٢١) كلمة في الجملة الواحدة، على حين اجتمعت كلم نص طه حسين في ثلاث عشرة بمتوسط (٥٧ , ١١) كلمة في الجملة الواحدة. واجتمعت بمتوسط في العلاقة الناقصة الواحدة داخل الجملة (التأسيس أو التكميل)، (٩٣ , ٣) من كلم جملة طه حسين، و(٦٤ , ٣) من كلم جملة الرافعي. فإذا قسمت متوسط نصيب العلاقة التامة على متوسط نصيب العلاقة الناقصة، حصلنا في نص طه حسين على (٧٧ , ٣)، وفي نص الرافعي على (٦)، وهو بيِّنٌ في أن علاقة الكلم (تماثل) المجتمعة، التي هي عمل البحر الذي هو نظام أطوار اللغة والتفكير ـ أكثر بقاءً في نص الرافعي منه في نص طه حسين، وكأنه لم تترسَّس منه مستكمنيش في الفكرة الثامنة الأخيرة التي استبطنته هنه في الفقرة الثالثة!

إذا تأملنا رسم البيان السابق في الفقرة الثالثة والثلاثين، بيَّنا كيف تتنامى درجات تعقيد علاقات الكلم (تماثل) المجتمعة في نص الرافعي، صاعدة إلى نهاية الرسالة المرادة ـ على حين تضطرب قرينتها في نص طه حسين صعودًا وهبوطًا، حتى إنها لتعود إلى قريب جدًا مما كانت عليه.

وإذ تأملنا علاقات الجمل التي بينها الجدولان السادس والسابع، تبينا غلبة العطف على نص طه حسين، وغلبة الاستئناف على نص الرافعي، و اختصاص نص طه حسين بالاعتراض دون نص الرافعي.

ما من إشكال لدى في اختلاف عمل النحويين طه حسين والرافعي، في شيء مما في هذه الفقرة إلا اختصاص نص طه حسين بالاعتراض علاقة حبر، دون نص الرافعي؛ لظاهره بفيض سواه من النظواهر السابقة!

أن يختلف عمل النحويين مستعمله العادي ومستعمله الثائر، فيحرم أولهما في محرّمه العلاقة من الكلم أكثر مما يحرم الآخر، ويأتي دون الآخر بتوبيخ ذلك، ويخالف بين جريه خبرًا وإنشاءً فيستأنف على حين يؤالف الآخرُ فيعطف ـ هذا كله مفهوم معروف غير منكر، جار على سنة اختلاف الأساة ـ وهي طبيعة العادي ـ والعجلة، وهي طبيعة الثائر ـ أما أن يلتحص نص الثائر المتعجل بالاعتراض علاقة جمل، وهي ينبغي أن تكون من سمات نص العادي المتأني ـ فمشكل محتاج إلى تأمل

كل ما بين أيدينا في نص طه حسين، اعتراض فيكون ثَمَّ أربعة اعتراضات. أما أولها فجملة «يا سيدي» الأخيرة من الفقرة السادسة والثلاثين، التي يخرجها كوتب من لزوم الحديث الجوهري العادي، من الإسكان. وأما الاعتراضان الثاني والثالث، فمن آثار تكميل المتعجل كلامه؛ إذ تخطر له مكتملات فيضيفها فتتعلق بأجزاء متقدمة من كلامه فتعطي إلى اعتراض المتأخر، هكذا: كانت جملة «يهوي بساعده أصحاب الظهر»، معطوفة على «يعدو عن حقوقه أصحاب الجد»، وجملة «يحتمل غير هموله»، معطوفة على «يحتمل عدوان أونشك»، فيما خطر هذا المتعجل تكميل ما تقدم بتقييد مطلقه فعاد على «يهوي» هذه الحال «وهو يحتمل عدوان أولئك». وعلى «يحتمل» هذه الأحوال «عروقًا». ـ صارت الجملتان العاشرة والحادية عشرة معترضتين لأجزاء الجملة التاسعة. وأما الاعتراض الرابع لأخير فمن آثار اعتراض المتعجل من أن بناء فهمه؛ إذ هو لم يبنه من أوله بحديث يصح سوء الفهم. لقد كان ماضيًا بل عطف «بأن صرح بجور مدلك» على «بأن الحق منتصر» فخطر له ما في بناء الباطل من تثبيط وتهيئس، فقال: «مهما يتصل سلطان الباطل»، ثم رتاح إلى ما فعل فكرره أخيرًا، فصارت الجملة الثانية عشرة معترضة لأجزاء الجملة التاسعة، والجملة الثالثة عشرة مستأنفة بعد الجملة التاسعة

في هذا من إيضاح لإشكال بلاغة وجه بيان طرف من المتابعة و لمعاقبة اللتين سبق في الفقرة الرابعة والثلاثين ذكر اتصاف نص طه حسين بهما، على حين اتصف نص الرافعي بالتوحيد والتشقيق. ولكنه بيان غير كاف؛ إذ انحصر في علاقة ناقصة واقتصر على أحد الموازَنين

تحليل علاقات أبرز جمل النصين:

[٣٩] في الجملة التاسعة من نص طه حسين كي سبق في الفقرة الرابعة والثلاثين، تتجلى متابعة والمعاقبة المضيئتان إلى الصورة المتحركة الأجراء. وفي الجملة السابعة من نص الرافعي يتجلى التوليد والتشقيق للمضيان إلى الصورة المتحركة الأجراء. وفي الجدول الخامس حللت كلًا منهما إلى كلمتها وعلاقاتها، فاتضح أن إحدى عشرة علاقة من سبع عشرة (مجموع علاقات جملة الرافعي) أي ٧٠,٦٤٪، زادت حرم كلمة على أربعتها، وأن ثلاث علاقات من ست عشرة (مجموع علاقات جملة طه حسين) أي ١٨,٧٥٪ فقط، زادت حرم كلمة على أربعتها، وهو بيّنٌ في أن ارتفاع درجة تعقد علاقات الجملة، ينهض عند الرافعي من كل جهة من جهاتها قصدًا، وينهض عند طه حسين من بعض جهاتها عفوًا.

ولا ريب في أن موازنة نهضة الارتفاع في جملة طه حسين أي العلاقات (١١، ١٢، ١٣)، بمثال من نهضات الارتفاع في جملة الرافعي كما في العلاقات (٧، ٨، ٩) ـ مما يقتضيه البيان ٣٠

مثال من الرافعي

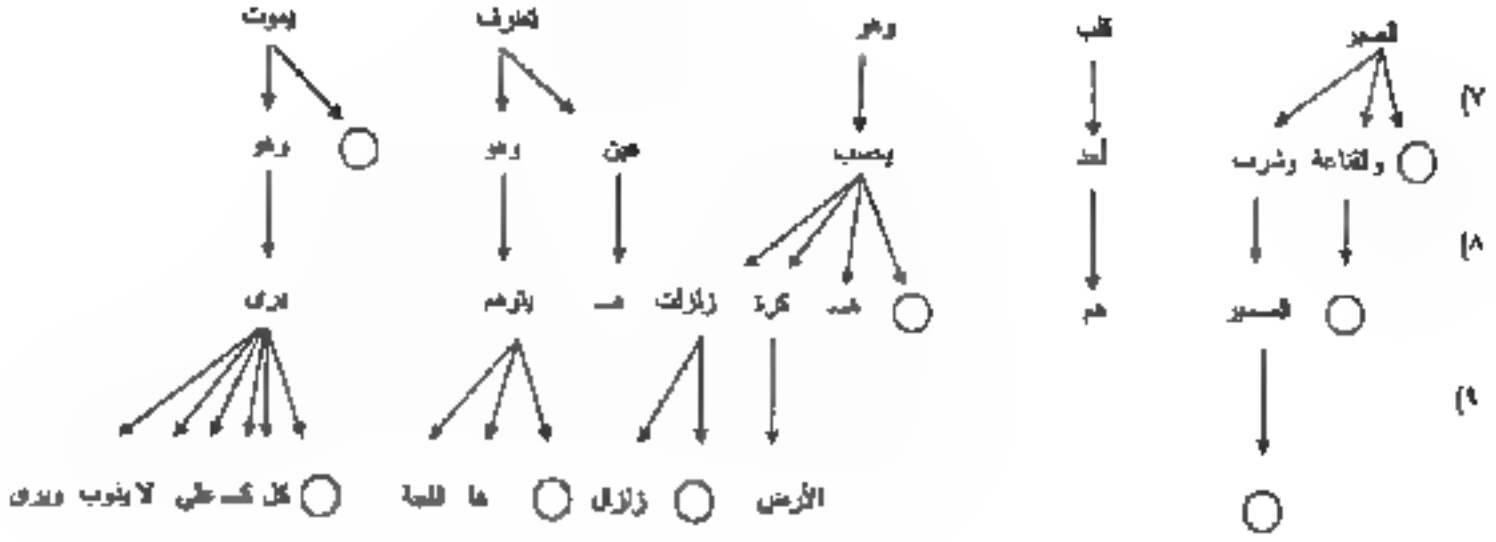

مصادر العلاقة الأولى من هذين المثالين، ثلاثة في الأول وخمسة في الآخر، ومصادر العلاقة الثانية أربعة في الأول وسبعة في الآخر، ومصادر العلاقة الثالثة أربعة في الأول وخمسة في الآخر. وليس بعد هذا التدنّس إلى مُتضمن عواليا علاقة الكليات (معاني) المجتمعة التي هي عمل النحو الذي هو نظام أعوار الدقة والتفكير من زيادة بيان لمستزيد.

إن الآلة التي مكنت الرافعي من أن يتنقل بين جهات حلبته المختلفة يشغل لها العلاقات الكثيرة المختلفة المتراكبة طبقًا عن طبق التي يحزم بها الكتم الكثيرة المجتمعة المتدبرة يمينًا وشمالًا المفتقرة في استيعابها إلى آلة مثلها مثل أطوار منها؛ إذ هذا عمل الرافعي على يقين كما يرى، على حين يعمل المتلقي عنه على شك مما رأى الرافعي أنه.

أما العجلة التي أفضت بطه حسين إلى أن يكتبني من بدء بأنه فمكتفية في استيعابها بعجلة مثلها بل أقل منها؛ إذ قد عمل عند حسين مأزوم بمنازعة الخواطر، على حين يعمل المتلقي عنه رائدًا غير مأزوم

طَوْرُ الثَّوْرَةِ وَالْعَجَلَةِ، وَطَوْرُ الْهُدُوءِ وَالْأَنَاةِ:

[٤٠] لقد جرى في معي طه حسين والرافعي على رغم اختلافهما ثورة وهدوءًا وعجلة وأناة، عمل النحو العربي معه، فإذا ثبت أن أحدهما عربي اللغة والتفكير لم يتخلع قط من عروبتهما بل مر فيهما على النهج القديم كما مر في المقرنين الحادي والثلاثين والثانية والثلاثين، ثبت أن الآخر مثله، وإذ ثبت أن أحدهما ناجح باق، ثبت أن الآخر مثله، وأن ليس ثم إن تمسكنا بالاختلاف - غير طور من الفهم والتفكير يعد طورٍ أو معه يحفظ عروبتهما بنظامهما الباقي (النحو العربي). قال طه حسين: «يعدو قوم منا في إثار القديم فيصيبون وفي الحياة سعة ويعدو قوم منا في إثار الجديد فيرتفعون عن ألف الناس ومع ذلك فالقصد أسلم والخير في كل شيء. ليست أبناء القرن الخامس عشر للهجرة، وليست أبناء القرن السادس عشر للهجرة، وإنما نحن أبناء القرن الرابع عشر للهجرة بيننا وبين الماضي أسباب متصلة، وبيننا وبين المستقبل أسباب ستتصل»[٢٦]. وما هذه الأسباب إلا النظام (النحو العربي) الذي ينتظم ماضي اللغة والتفكير العربيين وحاضرهما ومستقبلهما جميعًا معًا في عقد الفكر العربي.

خاتمة

يظل المرء في شأنه حائرا حتى يطّلع من غيره على ما ينبهه إلى ما هو عليه عما تخفيه عنه العادة وربما اعتقد هو غيره إلى نقده أو بدّله غيره. وسواء لديه أصدقه غيره أم كذّبه، فسيتبين من ما لم يكن ليتبين به وحده.

لقد ركن العربي إلى حضارته الذهنية، وأخلد إلى غطّة لم يستيقظ منها غير صخب عنوان حضارة غيره فقرع بين مكتسبات حضارته فوجدها عليلة كليلة، وبين معنوياتها فوجد جدوبة قد بثّ فيها أو تصحرها عنده بعد أن كان يظنها لا يجترئ عليها أحد. أما عقيدته التي ساح في أرجاء الأرض يدعو إليها، لا ينبغي إلا أن يتنبّه به غيره فيهتدي عند ربه فوزًا عظيمًا ـ فصارت شُهرَته وانبغى له أن يستبدل بها ما تدّعي غيره من عقائد الانتصار. وأما لغته التي يراها غيره حقيقته والعلوم والمعارف والخبرات والأقوال والأفعال والإقرارات التي تعلّمت بها منذ اعتقد وإلى وقته الذي هو فيه ـ صارت شهادة عالية، مُتحفًا مُتحفًا، وانبغى له أن يستبدل بها ما تدّعي غيره من نظريات اللغة!

إنه إذا كان قديمًا قُبِّل بلغته حتى لكأن غيره من لم يتكلمها أصبح بمنزلة الحيوانات، ويستغرب بلاغة صاحبها (العربي الله بلاغة ليس فيها غرابة!) وإنما عنه فيها (غريب الوجه واليد والفعال) ـ فلقد اقتبح حديثٌ من غيره عن أنه مثله، يرى لغته كما يرى هو لغته، حتى إنه ليعدّ غيرها نباح كلاب، ويستعمل النكليب بها[1]! وما أعرف دلالة أنه «عندما يكون الرجل الإنجليزي غير مفهوم فإنه يقول لمحدثه: وهل أنا أتكلم العربية. وعندما يكون العربي غير مفهوم فإنه يقول لمحدثه: وهل أنا أتكلم الصينية. وعندما يكون الصيني غير مفهوم يتساءل إن كان يتحدث الإنجليزية!»[2] ـ على ذلك كلّ بلغته.

من هذا الباب لغته أي باب اللغة (أصل الاتصال البشري الباقي المستمر في وسائله المختلفة)، وعلى منهج العولمة (ظاهرة الاتصال الحضاري المستمرة في تحاوراته المختلفة)، تنوع حديثًا بعض المستشرقين الذين طوفوا في بلاغة العربية من شرقيها إلى غربيها، وتأملوا من كثب، وعرفوا دون غيرهم كثيرًا، ودرسوا تطور اللغة العربية الفاصل وتعابيره وتطور التفكير اللغوي عند العرب في العصر الحديث، وجهاد رجال النهضة أدباء وعلماء لتحديث اللغة العربية وجعلها وافية بمقتضيات الحياة ـ بملاحظة التراث اللغة العربية من حالته لغات الثقافة الغربية، ثم بيان ما ينبغي للغة العربية ـ والمراد العرب ـ أن تصطنعه لتصبح عنصرًا عاملًا مؤثرًا في تلك العالمة.

لقد خلط في نتائج إليه أفكارًا خصيبة منكّرة وأخرى قوية معيبة فحفّزني إلى النظر فيها وفي لغتنا العربية التي نعمّ منها على مزاج معينة فانتهيت إلى ما يلي

- فكر «اللغة أداة» هي اختلاف ما هي أدناه، خطأ مهما رجت على ألسن الكبار والصغار
- بين الفكر الذي هو إعمال الخاطر في الشيء والتفكير الذي هو مبالغة في الفكر استُعمي بها عنه لكثرة ما تحدث وتعلق حوله الإنسان به، والفِكْر الذي هو ثمرة الفكر والتفكير ـ فروق واضحة.
- علاقة اللغة بالفكر هم الفلاسفة اللازم
- علاقة اللغة بالتفكير من هموم النفسيين اللغويين (اللغويين النفسيين)
- علاقة اللغة بالتفكير أساس عمل المشتغلين عليها هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي
- وهي علاقة اللغة بالتفكير، أصيل في ثقافتنا العربية
- دلالة بعض الأفكار الاستشراقية على أن العرب الآن يفكرون بغير اللغة، أو لا يفكرون إذ لا لغة لهم ـ واهية نظرًا وعملًا
- لا وجه لدلالة انقسام اللغة العربية إلى نمطين. مبتذل مستهلك، وفصيح مصون، على أن العرب الآن مضطربون لغة وتفكيرًا
- فيما قدم الدكتور علي عبد الواحد وافي من بحث للتطور اللغوي العام والتطور اللغة بعربيه قديمًا وحديثًا، بيان شاف كاف في رد وصمها بالجمود، وفيه دليل خرافتها حديثًا منها قديمًا، ومتزيتها قديمًا منها حديثًا
- كانت للإسلام و القرآن قديمًا ثم لعلوم الأوائل وسيطًا ثم للفكر الغربي حديثًا، آثار لغوية تفكيرية بينة الدلالة على انحياة لا الجمود.
- للاستفادة من صحيح الفكر الحديث، مراحل أربع: الاتباع الأعمى، ثم الاتباع البصير، ثم الامتلاك، ثم الإبداع
- اطراح الفكر القديم كاطراح الفكر الحديث، خسارة فادحة
- علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة، أهم من الكلم (المعاني) المفردات أنفسها
- علاقة كلم الجملة (المعاني) المجتمعة، أهم من الكلم (المعاني) المفردات أنفسها.

وبالقياس تكون علاقة جمل الفقرة المجتمعة أهم من الجمل المفردات، وعلاقة فقر النص المجتمعة أهم من الفقر المفردات، وعلاقة نصوص الكتاب مجتمعة أهم من النصوص المفردات؛ فمن التأمل يطيل النظر حتى تنكشف له رسالة الكتاب المستولية على نصوصه؛ فتنكشف بانكشافها نصوصه، ثم أفكار الفقر، ثم فِكَرات الجمل، فتكون لمعاني الكلم حينئذ قيمة.

- علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة. وكذلك علاقة الجمل والفقر والنصوص - عمل النحو.
- للنحو الفلسفي وجهٌ ظاهر الجدوى على تكوين التعليمين (إعمال النحو) عملاً لغويًا تفكيريًا، ووجهٌ غامض الدلالة عن مظهر عجيب من مظاهر العولمة
- في دعوى قدرة التعابير الدخيلة على تغيير الحضارات، شبهةُ تَعَمُّد إثبات الضعف.
- النحو وحده هو نظام أطوار اللغة والتفكير العربيين.
- في تمسك دعاة التطوير بنظام أطوار اللغة والتفكير العربيين، وهي واضح لوظيفته الخادمة السابقة.
- بنسبة طه حسين إلى الحديث الغربي والرافعي إلى القديم العربي، تمهيد استشراقي لتحكم المذهب الأول الدعوي «التكبيري» بالمجامع والبقاء، وعلى مذهب الآخر الدفوي التفكيري» بالفشل والفناء
- مذهب طه حسين ومذهب الرافعي طوران من اللغة والتفكير عربيان، أولهما طور الثورة والعجلة والآخر طور الهدأة والأناة، نظامهما جميعًا معًا النحو العربي
- إنه إذ انتصبت مقالاتُ «حضارة العالمية» العربيُّ إحدى خطتي خسف أحلامها مرَّ أن يعتقدها ويتمنى إليها أن أن يعود بحضارته ويتحيّا من الحياة والكون - فحسبها أن تهيئه لينظر في نفسه وأمته وحضارته، حتى إنه إذا ذكر ذاكرٌ مصطلح «القرية» وسكت، تراءت بحُمّى الانتباه، طوائفُ من المواد العلمية و الإعلامية

لقد بيّنتُ لي فيما تقدم به بعض المستشرقين من بيان واقع اللغة العربية وتحديد مستقبلها، ملامحُ من الأخطاء المتعمدة والدعاوى المريضة، لا نقبلها أدبيّاتُ الاتصال التي من بَدَهيّاتِ التفريقِ بين اتصال أهل الأمة الواحدة الذي يحفظ لهم خُصوصيّتهم واتصال أهل الأمم المتعددة الذي يتيح لهم تَنافُعَهم[1].

حواشي الفصل الأول وتتمته

١ ـ ستتكيفيتش (الدكتور جارو سلاف): ((العربية الفصحى الحديثة: بحوث في تطور الألفاظ والأساليب))، ترجمه وعلّق عليه الدكتور محمد حسن عبد العزيز، طبعة دار النصر بالقاهرة، سنة ١٩٨٥م، ص٢٨٤ ـ ٢٨٥. والكتاب كان أخيرًا الدكتور خليل الشيخ الأستاذ بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة السلطان قابوس، الذي يعرفه هو ومؤلفه، ويعرف من أخباره ويثني على علمه ونشاطه ـ رسالة للدكتور.

٢ ـ فك (برهان): ((الفصحى: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب))، ترجمه وقدّم له وعلّق عليه وصنع فهارسه الدكتور رمضان عبد التواب، طبعة المطبعة العربية الحديثة سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، نشرة مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص٢٣٨ ـ ٢٤٢، التي فصّل عنوانه ((نظرة خاطفة))، أشار إلى مثل ما رصد له ستتكيفيتش كتابه، لاتفاقه بينهما أفكارًا وآراءً واختلافه أخرى.

٣ ـ ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم المصري): ((لسان العرب))، طبعة دار المعارف بالقاهرة، مادة أدو.

٤ ـ حسين (الدكتور طه): ((الأدب الأربعاء))، الطبعة الحادية عشرة، نشرة دار المعارف بالقاهرة، ٣/ ٢٩.

٥ ـ شاكر (محمود محمد): ((أباطيل وأسمار))، طبعة الخانجي، الثانية سنة ١٩٨٧م، ص٥١٣.

٦ ـ في مجلس الأستاذ محمود محمد شاكر سنة ١٩٩٢م، حضره جماعة من العلماء، منهم الدكتور محمود محمد الطناحي ـ رحمه الله ـ والأستاذ عبد الحميد بسيوني، والأستاذ رضوان رسول صاحب مؤسسة الرسالة (دار النشر المشهورة)، وغيرهم، سأله الأستاذ رضوان عقب حديث نشر الكتب العربية في الشجرة: لم نرى بنا أن نبدأ الآن، يا أستاذ؟ فقال: بلسان العرب (المعجم)، قالت أهم ما تتناولون رسالة نشر، أو كما قال رحمه الله، تم عاقبي في بيان مكان اللغة من الإعراب حامد، ومكان لغتنا من لغات خاصة.

٧ ـ ناصف (الدكتور مصطفى): ((اللغة بين البلاغة والأسلوبية))، العدد ٥٣ من كتاب الرياض الأدبي الثقافي بجمادى الآخرة ١٤٠٩هـ ـ يناير ١٩٨٩م، ص٥١٩ ـ ٥٢١.

٨ ـ الجابري (الدكتور محمد عابد): ((نقد العقل العربي (١) تكوين العقل العربي))، الطبعة السابعة في أكتوبر ١٩٩٨م، نشرة مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت، ص٧٧.

٩ ـ يوسف (الدكتور حمدة سيد): ((سيكولوجية اللغة والمرض العقلي))، العدد (٢٤٥) من كتاب عالم المعرفة، يناير ١٩٩٩م، نشرة المجلس الوطني الكويتي، فقد وقع في العنوان، (الفكر) بين قوسين بعد التفكير دون تفريق، وبادر (الدكتورة سعدية محمد علي): ((إن

سيكولوجية المراهقة))، طبعة سنة ١٩٨٠م، نشرة دار البحوث العلمية بالكويت، ص٨١ ـ ٨٢، وعي، ص١٣٩، ٣٣٦ ـ ٣٣٧

١٠ ـ ابن منظور، مادة (فكر)

١١ ـ جي بوير (ووبرد): ((تعليم التفكير))، ترجمة الدكتور عادل عبد الكريم ياسين والأستاذين إياد أحمد سليم وتوفيق أحمد المصري، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م، نشرة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي بالكويت، ص١٤

١٢ ـ محمود (الدكتور زكي نجيب): ((تجديد الفكر العربي))، طبعة دار الشروق بالقاهرة، الثامنة سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م

١٣ ـ محمود (الدكتور زكي نجيب): ((المنطق الوضعي))، طبعة دار الشروق بالقاهرة سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ص١٧٣

١٤ ـ الجابري، ص٧٩

١٥ ـ ابن منظور، مادة عقل

١٦ ـ عبد (الدكتور داود): ((دراسات في علم اللغة النفسي))، طبعة سنة ١٩٨٤م الأولى، نشرة جامعة الكويت، ص٩ ـ ١٠، وقد سوّى بين المصطلحين: علم النفس اللغوي وعلم اللغة النفسي.

١٧ ـ الضبع (الدكتور عبد السلام): ((قراءات مع الشافعي والجاحظ وابن خلدون))، طبعة سنة ١٩٩٣م قرايبة، نشرة دار سعاد الصباح بالقاهرة، ص٦٩ ـ ٧٠

١٨ ـ عبد، ص١٠

١٩ ـ يوسف، ص١٥٢ ـ ١٥٥

٢٠ ـ السابق، ص١٩٨، ١٩٩، ٣٣١، ٣٣٦

٢١ ـ عطيه (الدكتورة نوال محمد): ((علم النفس اللغوي))، طبعة سنة ١٩٩٥ الناشر نشرة بالمكتبة الأكاديمية بالقاهرة، ص١٥ ـ ١٩

٢٢ ـ عن (الدكتور ميل): ((العرب وعصر المعلومات))، العدد ١٨٤ من كتاب عالم المعرفة لشهر شوال ١٤١٤هـ ـ إبريل ١٩٩٤م، نشرة المجلس الوطني الكويتي، ص١٤٠ ـ ٤١، ٣٣٦، ٣٣٧

٢٣ ـ سيبويه (أبو بشر عمرو بن قنبر): ((الكتاب))، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة الثالثة سنة ١٩٨٨م، نشرة مكتبة الخانجي بالقاهرة: ففي كل موضع عنه يتأمل الكلمات مفترقة ومجتمعة: لم كانت على ذلك النحو؟ ولم تكن على هذا؟ سائلاً نفسه أو أستاذه، رائدًا لأمر من تفكير التكلف، والجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن النحوي):

«دلائل الإعجاز»، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، طبعة المدني سنة ١٩٨٤م، مقدمة الخانجي بالقاهرة، فهو في بيان نظم الكلام والمعاني.

وقد أهدى أستاذي الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف في كتابه «النحو والدلالة: مدخل إلى دراسة المعنى النحوي الدلالي»، طبعة مطبعة المدينة، الأولى سنة ١٩٨٣ في بيان وحدة النظرية بين سيبويه والجرجاني، في كتاب خالف منهجا عهد السالف

ومن الطريف هنا أنه لما كان الأستاذ الشاب قد فهم من كلام الجرجاني أنه يقصر بالأسلوب لمعطى مصرح عن مثاله، وجدت الدكتور شكري عياد استنكر ذلك قائلاً: «وترشح الأستاذة الشاب للقضية اللفظ والمعنى وتجاوز كل ما كتبه عبد القاهر حول هذا الموضوع. فلم يذهب عبد القاهر قط إلى مثل هذا الأستاذ الشاب إن هناك أسلوبا معنويًا وأسلوبًا لفظيًا يتكونان على مثاله. ولاشك أن هذا تبسيط شديد للعلاقة بين اللغة والفكر، ولكن الإجماع منعقد بين الباحثين في اللغة و الأدب والأسلوبيات اليوم وعلم النفس على أن العلاقة بين اللغة والفكر لا تتم من جانب واحد يمكن أن يعد أحدهما أصلاً والآخر صورة له»، ص٣٩ من كتابه «اللغة والإبداع. مدخل علم الأسلوب العربي»، طبعة سنة ١٩٨٨م الأولى، نشرة إنترناشيونال برس بالقاهرة

وكذلك ناقشت (الدكتور مصطفى) «نظرية المعنى في النقد العربي»، طبعة دار الأندلس ببيروت، ولاسيما ص١٣٨ التي قرب فيها استعمالات العرب القدماء لكلمتي المعنى واللفظ

ومن بديع كتب العنبر «الأستاذ أحمد محمد»: «تشبيه الأديب بين اللفظ والمعنى أو بين الأشكال والدلالات قديمًا وحديثًا»، طبعة دار الكتاب العربي بمصر (عبد حلمي بيتاوي)، في آخر شهر ٩٥٤ م... مواضيع متناثرة. غير أن له طرافة بالغة يؤصرها من خلال استقراء جمع كبير من الأدباء. منهم من ملأ الدنيا بعد ذلك، إلى أن المعاني والعبارات تتكون في الذهن في وقت واحد معًا.

٢٤ ـ حلي، ص٣٩

٢٥ التوحيدي (أبو حيان)، «الكتاب الإمتاع والمؤانسة»، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، نشرة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بالقاهرة ومكتبة الحياة ببيروت، ١/ ١٠٩ ـ ١٢٨؛ فيه نص مناظرة أبي سعيد السيرافي وأبي بشر المتفاني سنة ٣٢٦هـ في أن يونان على ما يؤديه منطقهم المترجم عنهم، دون غيرهم من الأمم «أصحاب عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه، وعن كل ما يتصل به ويتصل عنه، ويعقل عنايتهم ظهر ما ظهر وانتشر ما انتشر وفشا ما فشا ونشأ ما نشأ من أنواع العلم وأصناف الصنائع؛ ولم نجد عند غيرهم»)، وهو ما كان أبو سعيد رآه منسوبة إلى اللغة اليونانية. كذلك شاكره فصل («... وهذه هي أخطارها»). إنها مسألة عربية قديمة مأثورة مستمرة

٢٦ ـ الجاحظ، ص٧٩ ـ ٨٠

٢٧ ـ وافي (الدكتور علي عبد الواحد): ((فقه اللغة))، طبعة دار نهضة مصر بفجالة القاهرة ص١٥٣

٢٨ ـ السابق، ص١٦٠.

٢٩ ـ آرنج (والتر ج): ((الشفاهية والكتابية))، العدد ١٨٢ من كتاب عالم المعرفة، شعبان ١٤١٤هـ ـ فبراير ١٩٩٤م، نشرة المجلس الوطني للثقافة، ص٢٠٣ والفقه القديمة في سبق من بحثنا، هي الفقه المكتوبة عنده

٣٠ ـ وافي، ((علم اللغة))، طبعة دار نهضة مصر بفجالة القاهرة الخامسة

٣١ وافي، ((فقه اللغة)) السابق.

٣٢ ـ السابق، ص١٥٢ ـ ١٥٣

٣٣ ـ برجشتراسر (ج): ((التطور النحوي للغة العربية))، أخرجه وصححه وعلّق عليه الدكتور رمضان عبد التواب، طبعة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، نشره الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، في عربية القرون الأولى بعيد الهجرة ألقى برجشتراسر الألماني، سنة ١٩٢٩م بالجامعة المصرية، محاضراته العربي في المسائل التاريخية الخاصة باللغة العربية في طور نشأته، ثم تبه على حاجة إلى بيان تاريخها منذئذ إلى الآن، وأن أهم موضوعاته تكوّن اللهجات الدارجة على اختلافها. وأشار إلى أن في النظر إلى اللغة العربية من الوجهة التاريخية قائدين: الأولى إكمال معرفتها، والأخرى معرفة مراتق علم اللغة الغربي الذي يحسن لسيحاب العرب به من خلال لغتهم!

٣٤ سورة الرعد من الآية ١١

٣٥ ـ ابن ماجه (أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني الحافظ): ((سنن ابن ماجه))، حققه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، نشرة دار الكتب العلمية ببيروت، ٢/ ١٣٩٥

٣٦ ـ البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزبه الجعفي): ((صحيح البخاري))، نشرة دار إحياء التراث العربي، ١/ ١٤ والعسقلاني (أحمد بن علي بن حجر): ((فتح الباري بشرح صحيح البخاري))، قام عليه عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، نشرة دار المعرفة ببيروت، ١/ ٨٦.

٣٧ ـ عبد (الدكتور محمد عبد): ((الإعلام واللغة))، طبعة ١٩٨٤م، نشره عالم الكتب بالقاهرة، ص١٥ فقد ذكر عن سارتر أنه قال طالب فرنسي لصديقه الزنجي: ((لشتغل الآن كما يشتغل الزنجي)) ـ وإن لم يطلق الكلمة الأخيرة فقد فهمت من هذا المثل النحوي ـ هجرة صديقه إلى خير لقاء أسفًا على البقية الحضرية (الجاهلية) التي لم يبرحها من أمته وتفكيرها

٣٨ـ ابن نبي (مالك): ((الظاهرة القرآنية))، ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بدمشق، ص١٨٤، ١٨٥.

٣٩ـ عبد التواب (الدكتور رمضان): ((تصوب في لغة العربية)) طبعة مكتبي الثانية سنة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م، نشرة مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، ص١٠٨ ـ ١١٥.

٤٠ خريف (الدكتور شوقي): ((البلاغة تطور وتاريخ))، طبعة دار المعارف بالقاهرة، السادسة، ص٦٠

٤١ـ عايدين (الدكتور عبد المجيد عابدين): ((الأمثال في الشعر العربي القديم مع مقدمتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى))، طبعة دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية، سنة ١٩٨٩م، ص١٨١

٤٢ـ محمود: ((تمهيد الفكر العربي))، ص٢٩٢

٤٣ـ العقاد (عباس محمود): ((شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي))، العدد ٢٥٢ من كتاب الهلال المصري، الشهر في القعدة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م، ص٨٩ ـ ٩٠. فقد ذكرتُ قبلا ذكرتُ من ضروب تعريب الجديد إلى ما ذكر من مراحل مرور الشعر من الركود والجمود إلى النهضة والجودة، وهي التقليد الضعيف أو التقليد للتقليد، والتقليد المحكم أو التقليد المستوعب بشيء من القدرة، والابتكار الناشئ من شعور بالعبرية القومية، والابتكار الناشئ من شعور بالعبرية العرجية. والعجيب للدكتور زكي نجيب محمود جعل العقاد في القسم الأول مما سميته الذي أبى الفكر العربي كله وتمسك بالفكر العربي كله، ولم يكن منه بد من القسم الرابع الذي قبل بعضًا من كلٍّ منهما دون بعض، تشهد لذلك أمثاله. ومن الطريف والدالة أنني سمعت قريبًا حديث العقاد بمناظر الوحيد، مرة أخرى، ورثيه يستأمن به يهمله في القسم الرابع حتمًا!

٤٤ـ ناصف: ((اللغة بين ...))، ص٣٩، ٩٤، ١٤٠ ـ ١٤٢، ١٨٥، ١٨٩ ـ ١٩٠

٤٥ محمد ص٣٠، والجزيرة (الشبكة العنكبوتية القطرية) ((بلا حدود))، ١/١/١٤٢٢هـ = ٢٤/٣/٢٠٠١م، موقع الجزيرة على الإنترنت، من قسم البرامج الخاصة، Page 12 of 21، فقد أشار الدكتور ميل على عالم هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي، ضيف البرنامج، إلى مؤتمر للبرمجيات عقده أخيرًا في تاسية التنوع اللغوي وخطورة الانقراض المخوف على لغات العالم ومأساة انقراض لغة منها كل أسبوعين، ((بكل ما يعنيه هذا من فقدان وحيد لمثل عظيم جدًا)).

٤٦ـ المنفلوطي، ٩/ ٣٨٧

٤٧ ـ أمين (الدكتور حسان): ((فلسفة اللغة العربية))، العدد ١٤٤ من المكتبة الثقافية، الشهر نوفمبر ١٩٦٥م، نشرة الدار المصرية للتأليف والترجمة، توزيع مكتبة مصر بفجالة القاهرة، ص٩ وما بعدها.

٤٨ ـ أبو ديب (الدكتور كمال): ((الرؤى المقنعة: نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي (١) البنية والرؤيا))، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٦م، ص٢٥

٤٩ ـ ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري): ((المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر))، تقديم ده وحققه وعلق عليه الدكتور ان أحمد بدوي وحفني طبانة، نشرة دار نهضة مصر بالقاهرة، ١/ ١٦٦، وتشارلز (ا. أ): ((العلم والشعر))، ترجمة الدكتور مصطفى بدوي، ومراجعة الدكتورة سهير القلماوي، نشرة مكتبة الأنجلو المصرية، ص٤٦، وفيشر (إرنست): ((ضرورة الفن))، نقله إلى العربية الدكتور ميشال سليمان، نشرة دار الحقيقة ببيروت، ص٢٠٤، وزات (سكوت): ((كيف تقاوم الكآبة))، طبعة سنة ٢٠٠٠م الأولى، نشرة مكتبة جرير بالرياض السعودية، ص٤٩ ـ ٥٣، وفيما أورده الباحث الأخير رهن عبد القصادي، دليل صوم التسليم ببداهة هذه الفكرة الآن

٥٠ ـ الزوزني (أبو عبيد الله بن عبدان بن موسى): ((الفرائد: مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر))، تحقيق علي محمد البجاوي، طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة، ص٣٥٦

٥١ ـ فضل (الدكتور صلاح): ((نظرية البنائية في النقد الأدبي))، طبعة سنة ١٩٩٢م، نشرة مؤسسة المختار بالقاهرة، ص٤٥٦

٥٢ ـ علي (الدكتور سيد)، ص١٤٩

٥٣ ـ ابن جني، ص٨١ ـ ٨٣، ٨٤ ـ ٩٨، وحسان (الدكتور تمام): ((اللغة العربية. معناها ومبناها)) طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الثانية سنة ١٩٧٩م، ص١٨٥ ـ ١٩٠، وعبد اللطيف، ص٩٩، ١٠٢ ـ ١٠٣، ١٠٤ ـ ١٠٥، ويوسف: ((اللغة بين))، ص٢٥٣ ـ ٢٥٤، ٢٥٦ ـ ٢٥٨، ٢٧١، ٢٧٣ ٢٧٧ وعبد المطلب (الدكتور محمد): ((البلاغة والأسلوبية))، طبعة دار نوبار بالقاهرة سنة ١٩٩٤م، نشرة مكتبة لبنان ببيروت والشركة المصرية العالمية (لونجمان) بمصر، ص٥٥

٥٤ ـ مصلوح (الدكتور سعد): ((الوجهة من نحو الجملة) إلى نحو (النص))، بحث بالكتاب التذكاري ((عبد السلام هارون، عطاؤه ومؤلفاته وتحقيقاته))، الذي أعده الدكتوران رجبة عبد الجليل وعبده بدوي، نشرة سنة ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م، ص٤٣١

٥٥ ـ تشومسكي (نعوم): ((اللغة والعقل))، ترجمة يوسف عبد الملكاوي، ومراجعة الدكتور مصطفى عبده الوافي، طبعة دار المنشورات الثقافية العامة (أكاديمية)، سنة ١٩٩٦م، ص ٣١ ـ ٣٢.

٥٦ ـ عمر، ص١٣٩. وإبراهيم (للدكتور زكريا) ((مشكلات فلسفية ٨: مشكلة البنية))، طبعة سنة ١٩٩٠م، نشره عالم مسحنون بتونس ومكتبة مصر بالقاهرة، ص٦٨.

٥٧ إبراهيم، ص٦٧، وزكريا (الدكتور ميشال): ((الألسنية (علم اللغة الحديث): المبادئ والأعلام))، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، نشرة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص٢١٢.

٥٨ ـ تشومسكي، ٢٤ ـ ٢٦.

٥٩ الوعر (الدكتور مازن): ((نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية))، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٢م، نشرة دار طلاس بدمشق، ص٢٥٠.

٦٠ ـ بورا (ك. موريس): ((الفناء والشعر عند الشعوب البدائية))، ترجمة يوسف شلب الشام، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م، نشرة دار طلاس بدمشق، ص٣٦ ـ ٣٧.

٦١ ـ حسان، ص١٩٣.

٦٢ ـ أنيس، ص٥ ـ ١.

٦٣ ـ صادق (الدكتورة آمال أحمد مختار): ((اللغة بوصفها دراسة في علم النص اللغوي وتطبيقاته في مجال الموسيقى))، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨م، نشرة مركز التنمية البشرية والمعلومات بالقاهرة، ص١٠٨، فقد استخدمت مصطلح ((النحو الإيقاعي)) لنحو الإيقاع، ولما كانت الموسيقا عند أمتنا تفكيرًا جريئًا، جاز مصطلح نحو التفكير جوازًا حسنًا.

٦٤ ـ ستكيفيتش، ص٢٧٨.

٦٥ ـ الوعر، ص١٨ ـ ١٩.

٦٦ ـ الطرابلسي (الدكتور محمد هادي): ((خصائص الأسلوب في الشوقيات))، طبعة سنة ١٩٨١م، نشرة الجامعة التونسية، ص٣١٨.

٦٧ ـ عيد، ص٢١.

٦٨ وافي: ((فقه اللغة))، ص١٥٢.

٦٩ ـ حمزاوي (للدكتور محمد رشاد): ((العربية والحداثة أو الفصاحة فصاحات))، طبعة سنة ١٩٨٢م، نشرة المعهد القومي لعلوم التربية بتونس، ص١٥٩ ـ ١٧٠.

٧٠ـ عياد، ص٣٢ ـ ٣٣، وعبد المطلب، ص١٢٩ ـ ١٣١، فيما عدا ما ذكر نسبة مثل عبد التواب، أساليب.

٧١ـ أدونيس (علي أحمد سعيد): ((زمن الشعر))، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣م، نشرة دار العودة ببيروت، ص١٣، ٤٠، ١١٣، وغيرها.

٧٢ـ أدونيس، ((النص القرآني وآفاق الكتابة))، طبعة سنة ١٩٩٣م، نشرة دار الآداب ببيروت، ص٩٦ ـ ٩٨. وراجع الخرائط (أدوار): ((أنا والعصر: مقاطع من (سيرة ذاتية) (الكتابة) من الداخل والخارج))، مقال بالعدد (٣) المجلد (١١) من مجلة فصول الصادر سنة ١٩٩٣م، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٤٦، ٤٧، فقد طمح إلى أن يتحرر من نظام اللغة والتفكير، ثم خالف من هذه الحرية.

٧٣ـ عياد، ص١١١ ـ ١١٦.

٧٤ـ العمود ((تجديد الفكر العربي))، ص٣٦٢ ـ ٣٦٥.

٧٥ـ السابق، ص٣٢٣.

٧٦ـ حسونة ٣/ ٣.

٧٧ـ السابق، ٣/ ٩٣.

٧٨ـ السابق، ٣/ ١٢.

٧٩ـ السابق، ٣/ ٧٩، ٣٥.

٨٠ـ السابق، ٣/ ١٣.

٨١ـ العمود ((تجديد الفكر العربي))، ص٣٩٢.

٨٢ـ الرافعي (مصطفى صادق): ((وحي القلم))، ضبطه وصححه وعلق حواشيه محمد سعيد العريان، نشرة دار الكتاب العربي ببيروت، الجد مسخر مرّ السحري في مقاله الحوري (اللسان الفرنجي) مثالاً، من (حضرة صاحب السعادة) الذي خبر منه فوري سافح بكرت لقبه (حضرة صاحب البلاسة)، مستهلاً بقوله: ((وقال صاحب سر (م) باشا: جاء (حضرة صاحب السعادة) ثلاث أزيدة الباشا. وهو رجل مصري ولد في بعض القرى، ما تعلم أن الله ـ تعالى ـ خلقه بجوهر غير الجوهر، ولا طبع غير الطبع، ولا تركيب غير التركيب، ولا زاد في دمه نقطة زهر، ولا وضعه موضع الوسط بين فتى من الخليقة ـ غير أنه وفر حرب، وطالب بالمجلترا وساح في إيطاليا، وعاج على آثارها، وتردّد نفسه الوثناء فهو مصري مولداً، ومن ثم كان لا يرى في بلاده وقومه إلا الفرق بين ما هو وبين ما حسبانه في يظهر له دين قومه إلا مقابلاً لشهواته نفسيه، وغامر فيها، ولا لغة قومه إلا مترجمة بلغة أخرى ولو كان من أهلها، ولا تاريخ قومه إلا مُلَفَّق عليه كالبيت بين تواريخ الأمم. هو

كثيرة من هؤلاء المفرنين المتعربين مصري المنشأ فلسطيني إذا كانت أسماؤهم ومستقلاتهم في مصر، عربيّ الاسم لا محالة إذا كانت سيارهم من جهة أعمالهم بالطبيعة، مستمرٌ ما مضى دون ما هو حاضر، إذ كان لا سبيلة في أنسابهم التي اتصفوا منها هو كثير من هؤلاء المفرنين المتعربين الفلسطينيين بالمادية، لكل منهم جنسه المصري، ولفكره جنس آخر. قال، وكان حضرة صاحب السعادة يكلّم الباب بالعربية التي تعلمها العربية، مرتفعاً بها عن لغة التفصيح فرتفاعاً متوسطاً، نازلاً بها عن لغة السوقة نزولاً حالياً»، ١/ ٢٩٦.

٨٣- حسين، «(بين بين)»، الطبعة الثانية عشرة سنة ١٩٨٣م، نشر دار العلم للملايين ببيروت، ص١٤. ولقد أعدت ترقيم النص كما ينبغي، وأثبت عنده علامات تقسيمه إلى جمله وفيه «(بل)» هكذا، والمشهور في رسم هذه الآلة الواوية الأصل «(بلا)» على ما أثبتت والرجل محلّ لا كاتب!

٨٤- الرافعي، «أحديث القمر»، الطبعة الثامنة سنة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، نشرة دار الكتاب العربي ببيروت، ص٤٠. ولقد أعدت ترقيم النص كما ينبغي، وأثبت عليه علامات تقسيمه إلى جمله كذلك.

٨٥- جعلت هنا نوعي المسند والمسند إليه في كل جملة من جمل نص هذه حسبي الثلاث عشرة على حسب ورودها فيه. أما المسند فالفعل أو مشبهه، وأما المسند إليه فالفاعل أو المبتدأ، ولقد تعارف البلاغيون الذين يتمسكون بهم المتطفلون، ولاسيما متأخروهم، على البدء بالمسند إليه بما يقتضي أن يوضع في يمين الجدول، السيوطي (جلال الدين): «(شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان)»، طبعة مصطفى البابي الحلبي، سنة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م، وصقر (الدكتور محمد حمال): «(الأمثال العربية القديمة دراسة نحوية)»، طبعة الفتيل بعباسية القاهرة سنة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، ص٣٠. ولكنني آثرت هنا أن أضع في يمين الجدول مسنداً قبل أضع عند أي من مؤسسي الجملة (مسند ومسند إليه)، بين أقتارهما بما، فما هي إلا مركب نحوي من عنصرين مؤسسين يبنهما علاقة إسناد، ربما ارتبطت بأحدهما أو كليهما عناصر أخرى مكتملة أو مؤثرة، ثم مسند موطن الفائدة الطبيعي منه.

٨٦- جعلت هنا نوعي مسند ومسند إليه في كل جملة من جمل نص الرافعي السبع، على حسب ورودها فيه كذلك.

٨٧- جعلت هنا عدة كلم كل جملة من جمل نص هذه حسبي، وعدد علاقاتها، ثم استخرجت بقسمة الأول على الثاني، متوسط تعقيب العلاقة من الكلم في الجملة الفعلية وفي الجمل كلها. والكلمة المقصودة هنا عنصر لغوي من الجملة، يؤسسها مع تسييمه أو يكتمل أحد مؤسسيها أو كليهما أو يؤثر بها أي يؤدي معنى طارئاً عليها أو على أي من عناصرها المؤسسة أو المكملة، هو تعريف براعي وظيفية الكلمة في الجملة كثيراً، فلا يعد (هـ)

التشبيه، ولا (أل) الموصولية، ولا (كَ) الخطابية وما أشبهها، كلها بل أجزاء كلمة على حين يعد من الكلم (يا) النداء، و(قد) التحقيق، و(ما) الكافة وما أشبهها. أما العلاقة المقصودة هنا فهي ارتباط الكلم التأسيسي (الإسناد) أو التكميلي (القيد) فقط؛ إذ لما كانت مدوّنات تشارلز في ما أرى، لم تعتمد برامجها التدوين.

٨٨ ـ جدولت هنا من كل جملة من جمل نص الرافعي، على مثال الجدول الثالث

٨٩ ـ جدولت هنا من الجملتين الخامسة بنص طه حسين والسابعة بنص الرافعي وهما أبرز جملهما جميعًا كما يتضح من الجدولين السابقين كلم كل علاقة وقد لقيت كلم كلٍّ من النصين، كلمتين كانتا معجم التحليل، وعدت علاقة عدة طه حسين، السابعة عشرة من تلك العلاقات.

٩٠ ـ بنيت هنا مضخن متوسط كلم العلاقة (المحور (س)) في كل جملة (المحور (ص)) من جمل نص طه حسين بخط المتصل، ومن جمل نص الرافعي بخط المتقطع والفائدة مستفادة من الجدولين الثالث والرابع

٩١ ـ جدولت هنا على حسب الورود، علاقات جمل نص طه حسين الاثنتي عشرة ـ إذ الأخيرة غير متصلة بشيء بعدها ـ براعيًا من أحوال الجمل خبريتها وإنشائيتها ـ إذ هي المجال المعتبرة هنا، و جميع ابن هشام (الأنصاري المصري): ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب))، طبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ٢/ ٦٠٠ ـ ٦٠٦، وحسن (عباس): ((النحو الوافي))، طبعة دار المعارف بمصر، السادسة ٣/ ٦٥٢ ـ ٦٥٤ ـ وخاصة بعلاقة العطف فهم اللاحقة بأدنى خاصة إلى السابقة، وبعلاقة الاستئناف جدار اللاحقة للسابقة، وبعلاقة الاعتراض اشتمال السابقة على اللاحقة بين أجزائها

٩٢ ـ جدولت هنا على حسب الورود، علاقات جمل نص الرافعي الست ـ إذ الأخيرة غير متصلة بشيء بعدها ـ على مثال الجدول السادس

٩٣ ـ وفيه (الدكتور جبور): ((معجم مصطلحات الأدب))، الشركة مكتبة لبنان بيروت، ص٢٦٧ ففيه بيان للمرادفة بزيد ما نسب إليه طه حسين في نصه المختار، ولا علم لا يكون كذلك في غيره.

٩٤ ـ السابق، ص٢٣٤ ففيه بيان للمقابلة بزيد ما سيت إليه الرافعي في نصه المختار، ولا علم ألا يكون كذلك في غيره.

٩٥ ـ هيكل (الدكتور أحمد): ((تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية))، طبعة دار المعارف بالقاهرة السادسة سنة ١٩٩٤م، ص ٣٨

٩٦ ـ السابق، ص٣٨٧

٩٧ السابق، ص٣٨٠

٩٨ ـ عبارة (الدكتور بدوي): ((معجم البلاغة العربية))، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٨م، نشرة دار المنار بجدة ودار الرفاعي بالرياض، ص١٢٥، فليه أن التجريد المحض لا يكون ظاهر خطاب المتكلم لمخيره وهو لنفسه

٩٩ ـ حسن ١/٤

١٠٠ ـ فندريس (جوزيف): ((اللغة))، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، طبعة سنة ١٩٥٠م، نشرة مكتبة الأنجلو المصرية، ص١٩٥، وصفره ص٢٠٢، ٢٠٣

١٠١ ـ يقوم التعديل الذي أجده الجدولان الثالث والرابع، وفصله الجدول الخامس، وبيده تشجير المثالين الثاليين ـ على تفريق الكلم (المعاني) المجتمعة، وتحديد علاقة السابقة منها باللاحقة بسهم يخرج من الأولى إلى الأخرى، وسواء أكانت أيٌّ منهما مذكورةً حسيةً، أم غير مذكورة، ولا حسية، حالةً عليها الدائرة المرفقة على تبيح كأنه إعراب بالأسهم ـ ثم على عد جميع ما في درجة واحدة من الكلمات منها اختلفت معاني علاقاتها ـ علاقة واحدة بمعنًى على النظر النحوي المشهور للقدماء من قديمهم إلى حديثهم

ولقد كان ضبط التشجير الدقيق للمثالين فيه أخي العزيز الدكتور محمد بدر عبد الحكيم مدرس علم اللغة الحديث بقسم اللغة العربية من كلية الآداب بالقاهرة وكلية الآداب بمسقط

١٠٢ ـ حسين، ٣/ ١٢

١٠٣ علي، ص٣٤٧

١٠٤ ـ محمد ص١٣

١٠٥ ـ دعا أستاذنا محمود محمد شاكر، العقاد ـ رحمهما الله ـ أستاذه فشاكر العقاد ذلك وكأنه استعظمه، فذكر أستاذنا أنه تعلم منه طرفًا مما يقال عن الإسلام، ولقد قرأت كتابه بهذا الاسم ((ما يقال عن الإسلام)) فعجبت غير أن المقصود لا ريب أكبر، ولقد اجتهدت أن أستوعب عن أستاذنا ما سمعًا وقراءة طرفًا مما علمه من ذلك وما به عليه، ثم تيسر لي سنة ١٩٩٩م، تدريس مقرر الاستشراق بجامعة السلطان قابوس وسقطت تأملت مثالا يناسبه إلا من درّس أو ألّف، ولا أنسى أني حضرتُ للفرزدق اللغة العربية.

الْفَصْلُ الثّاني

هَلْهَـلَةُ الشِّـعْرِ الْعَرَبـيِّ الْقَـديمِ

جَزالَةٌ أَوْ رَكاكَةٌ

مُقَدِّمَةٌ

عَنْهَلَةُ الشِّعْرِ

[١] عَدِيُّ مُهَلْهِل بنُ رَبيعة التَّغْلبيُّ أخو وائل كُلَيْب، شاعرٌ جاهلي قديم، عاش آخر القرن الخامس وأول السادس"، وذكره بأوّليّة الشُّعراء لبيدُ بن ربيعة، وحارثةُ بن بدر الغدانيّ — وهما مخضرمان — ومرّاقةُ اليَرْبوعيّ، والفرزدقُ — وهما إسلاميان — من الشعراء. وذكره بأولية المُفَضَّل بنُ سَلام الجمحيّ، وابنُ قتيبة، ومصعبٌ، وأبو حاتم الرازيّ، والأصفهانيّ، وأبو هلال العسكريّ، وابنُ رشيق القيروانيّ، والقفطيّ، وأبو عمرو القالي، من العلماء، وخالفهم أبو قيس بن حجر الكنديّ — وهو ابن أخت مهلهل — من الشعراء، ومحمدُ بن إسحاق، ومصعبٌ الزبيريّ، وأبو حاتم السجستانيّ، وأبو زيد القرشيّ، والآمديُّ، وأبو أحمد العسكريّ، وابن دريدٍ، وأبو عبيد البكريّ، والميدانيّ، وابنُ سعيد الأندلسيّ، وأبو عبد الله الشيبيّ، وأبو بكر الخطيبيّ، والسيوطيّ، من العلماء"

بتلك الأولية تفاخرت العربُ، وزعمته لشعرائها القدماء، فقالَّ منهم مخالفة، فلا عجب أن يختلف في مهلهل أحدٌ، منهم العلماءُ والشعراء!

[٢] ولكن «هناك ما يشبه الإجماع على أن الشعراء الأوائل جيلان. الجيل الأول يتقدم الثاني، ولكن ممثليه لا يعدون، في عرف بعض العلماء، شعراء، لأنهم لم يقولوا الشعر بعد الشعر، ومنهم خُزيمة بن نهد، وذؤيب بن ربيعة، وأعصُرُ بن سعد بن قيس عيلان إلخ. أما الجيل الثاني فهو الذي قَصَّدَ القصيد، وأبرز ممثليه مهلهل، وزهير بن جنابة، وعبيد بن الأبرص، وأبو قِلابة الهذلي، وسعد بن مالك، والبيد الرَّقاش، إلخ. وهؤلاء متقاربون في أزمانهم، بحيث أقدمهم لا يسبق أصغرهم البتة الشريفة بمئة وخمسين سنة، أو مئتي سنة في أبعد تقدير»"

ولم يكن تقصيدُ القصير المجمع عليه في سبق، لمهلهل وجيله، بل هذه الثلاثة جميعًا. النظمَ على ما يلائم حالة الرُّكبان من العروض، والإطالة، والإكثار. فيما إلى حال من قبلهم".

[٣] ولكن من العلماء من سبب حدثًا إلى عَنْهَلَة الشعر رادًّا إليه لقبه

ـ قادحًا

«وإنما سُمّي مُهَلْهِلًا لأنه كان يُهلهِلُ الشِّعرَ أي يُرَقِّقُهُ ولا يُحَبِّكُهُ»، كما قال الأصمعي الجليل، وذكره ابنُ دريد العالم الشاعر"، و«فَلْهَلَة بمعنى مُهَلْهَلَة الثوب، وهو اضطرابُهُ

وَاخْتِلَالُهُ»، كما قال ابن سلام الجمحي[٥٩]، ثم نقل المرزباني كلامه[٦٠] و«بردائه بشعره»، كما روى ابن منظور[٦١]

ـ أو مادحًا:

فإنما «سُمِّيَ مُهَلْهِلًا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَقَّقَ الشِّعْرَ، وَهَجَّنَ الكَلَامَ (بتعريب الوَحْشِيِّ)»، كما قال ابنُ الأعرابي (الجليل، وذكره المرزباني[٦٢]، و«لِأَنَّهُ هَلْهَلَ الشِّعْرَ، أي أَرَقَّهُ. وَكَانَ فِيهِ خُشُونَةٌ»، كما قال ابن قتيبة (الجليل[٦٣]، ثم نقل اللغوي ثم البغدادي كلامه[٦٤]، و«يطيب بِشِعْرِهِ وَيَرِقُّهُ، وكانَ أَحَدَ مَنْ هَجَّنَ مِنَ الْعَرَبِ فِي شِعْرِهِ ( ) وَكَانَ فِيهِ خُشُونَةٌ وَلِينٌ، وَكَانَ كَثِيرَ الْمُصَادَقَةِ لِلنِّسَاءِ، فَكَانَ كُلَيْبٌ يُسَمِّيهِ (زِيرَ النِّسَاءِ)»، كما قال الأصفهاني[٦٥]

[٤] ولقد انقسمت بينهم كلمات القدح والمدح على النحو الماثل في الجدول

مَهْلَهَةُ القَدْحِ	مُهَلْهِلَةُ المَدْحِ
التَّرْقِيقُ وَاطِّرَاحُ الإِحْكَامِ	التَّرْقِيقُ وَاطِّرَاحُ الغَرِيبِ الوَحْشِيِّ
إِيقَاعُ الاضْطِرَابِ وَالاخْتِلَافِ	الإِرْقَاقُ
الإِرْدَاءُ	الإِطْنَابَةُ وَالإِرْقَاقُ

ليس العطف الوارد في خلال ذلك للمغايرة، بل للتفصيل؛ فليس اطراح الإحكام عند القادح، ولا اطراح الغريب الوحشي عند المادح، إلا الترقيق، ولولا ذلك ما استقام بالكلمة نفسها القدحُ والمدحُ جميعًا معًا

وليس معنى زيادة إفعال («الإرقاق»)، غير التعدية التي في زيادة تفعيل («الترقيق»)، قال ابن منظور «أَرَقَّ الشَّيْءَ ورَقَّقَهُ: جعله رَقِيقًا»[٦٦]، من التعدية التي في باب («فَعُلَ»)، محمولة على التي في باب («فَعِلَ»)[٦٧] ـ ومن ثم يوشك («إيقاع الاضطراب و الاختلاف») في القدح، ألا يجد في المدح ما يقابله، إلا أن نستفيد من شعر الإرقاق بحديث الخشن الذي كان في عدي، عند ابن قتيبه والأصفهاني كليهما. قال ابن منظور «خَشُنَ الرَّجُلُ خَشَنًا فهو خَشِنٌ، وخَشُنَ وانْخَشَنَ: ثَنَّى وتَكَسَّرَ ( ) وخَشَّنْتُ الشيءَ فَتَخَشَّنَ أي عَطَفْتُه فَتَعَطَّفَ، والمُخَشَّنُ من ذلك اللين وتَكَسُّره، وهو الانْثِناءُ، والاسم الخَشَنُ ( ) ولَغَّثَ في كلامه»[٦٨]

ربما كان الإرقاق المقابل لإيقاع الاضطراب والاختلاف، نمطًا من ذلك التخشين، خرج به كلام عدي متأنقًا متكسرًا، ليتأهل من مثل كلام النساء من حول معاشرتهن، فتعلق به بعض من يتعلق بهن، كي تعلن ببعض شعر النابغة وابن قيس الرقيات!

وبعد تأمل تبدو كلماتُ العلماء المتقابلةُ، متنامية ممّا يؤدي بعضها إلى بعض؛ فاطراح الإحكام يوقع في الشعر الاضطراب والاختلال؛ فيرتدُّ ـ واطراح الغريب الوحشي يرق الشعر ويحته ـ إنما قيلنا ـ ترتيب.

[٥] أترى يتهيّأ في أولئك العلماء أثارةٌ من ذلك التفاخر القديم؛ فتدح فيه بالمهلهلة لخصومته؛ فتمدحه بما هي نفيها أصحابُه على طريقة من المناظرة عربية قديمة معروفة، يفخر فيها الفاخر بخَصْلة، فيُثبتها خَصمُه ثم يُوهِّمُ فيها ما، على مثل ما روى المرزباني من تقديم صاحب جرير له على الفرزدق، بإجازة ما سقطَ فيه الفرزدق من التقييد، وتَوْهيم صاحب الفرزدق له بقوله «أنت، يا أخي، لا تعقل؛ سقطُ الفرزدق شيءٌ يمتحن الرجالُ فيه عقولهم حتى يستخرجوه، وسَقَطُ جرير جيّدٌ»[٣٦] ـ فما آخَرَ مهلهلاً خصمُه، بمهلهلته للشعر، فأثبتها صاحبُه، ثم وهَّم فيها ما؟

ولقد يساعد كلا منهما أصلُ المهلهلة في اللغة، فهذا ابن منظور يقول: «المَلْهَلُ النَّسْجُ الثَّوبَ، إذا أرقَّ نَسْجَه وخَفَّفَه. والمَلْهَلَةُ سُخْفُ النَّسْجِ (...) وثوبٌ مَلْهَلٌ رديءُ النَّسْجِ، وفيه من ملذات جميعُ ما تقدَّم في الرَّقيق» قال النابغة

أتاكَ بقولٍ مَلْهَلٍ النَّسْجِ كاذبٍ ولم يأتِ بالحقِّ الذي هُوَ ناصِعُ

(...) والمهلهلة من الدروع أردؤها نسجًا (...) ـ قال بعضهم ـ هي مَلْهَلَةُ النَّسْجِ ليست بمضاعفة»[٣٧] فمهلهلة أيّ نسج إرقاقُ تخفيف ـ وقد مهلهناه في الأثواب الفاخرة ـ أو إرقاقُ تسخيف، وقد مهلهناه في الأثواب البالية

تكون مهلهلةُ مهلهل للشعر عند خصمه، إرقاق تسخيف، وعند صاحبه إرقاق تخفيف، دلالةً بدلالة، والبادئُ أظلم، محاجّةً لا طائل وراءها، ولا سيّما ألا بيان لأيٍّ من الدلالتين.

أم تُرى فَرْقَ بين القادح والمادح، شعرُه، وأكثرُه منحوت به محمول عليه، كما قال الأصمعي[٣٨] القدح فيه من لم يُميِّز شعره من شعر غيره وملحه من ميزه؟

ولكن أبي حاتم سأل الأصمعيَّ عن مهلهل مرةً، فأجابه «ليس بفَحْلٍ، ولو قال مثل قوله

أليَلتنا بذي حُسُمٍ أنيري

خمسَ قصائد، لكان أفحلهم»[٣٩] فدل على أنه عن مير شعره من شعر غيره، وقد عَرَّ أنه من المقدمين!

أم تُرى هذه آثار أوليّة التقصيد المُسلَّمة لمهلهل كما سبق، وُجوهٌ طبيعيةٌ من الضعف ومن القوّة جميعًا معًا، غَلَبَ عليها بدئي القادح الضعفُ، وبدئي المادح القوة؟

ولكن أين بيان ذلك؟

كل أولئك وجوه من القول لن تستولي على اليقين حتى يدركها البحث بشيء أشير المُهَلْهِلَة: ثم فرّق ما بين شعر مُهَلْهِل وشعر غيره، مما يحسن هذه المحاولة فيه، ثم فرّق ما بين شعره وشعر من قبله وشعر من بعده

المُهَلْهِلَة جَرالَةٌ أو رَكاكَةٌ

[٦] اختار أبو تمام المهلهل في «باب المراثي» من «ديوان الحماسة»، قوله في أخيه:

لَيْتَ شِعْرِي أَنَارَ بَعْدَكَ قَوْمٌ	وَاسْتَبَدَّتْ بِنَهْدِكَ الأَعْدَاءُ
وَتَجَلَّوْا لِي أَنَّ كُلَّ مُصِيبَةٍ	لَوْ تَجَنَّتْ خَاضَعَتْهُمْ بِهَا الأَيَّامُ
وَلَقَدْ قُلْتُ وَلَيْتَ وَجْهَكَ وَلَّى	وَرُوَاعٌ بِالْيَوْمِ عَلَّهُ يَتَرَدَّمُ
وَتَكَنَّفَكَ وَائِلٌ لِلإِسَارِ حُمْرٌ	تَلْمِسُ عَلَيْكَ بِمِبْرَدٍ وَتَقَدَّمُ[٣]

وهي مقطعة بائية من قصيدة غير التي أكثرها الأصمعي في سبيل، أكثرها أبو تمام، واقتصر عليها طلال حرب[٣]، وعثر لها أنطوان القوّال، بروايته، على البيتين بعد الثاني في «مجالس ثعلب»:

أَيْنَ رَبِيعَةُ مِنْ يَقُومُ مَقَامَهُ	أَمْ مَنْ يَسُدُّ مَسَدَّهُ فِي المَجْلِسِ
وَتَلَهَّفَ العُذَّالُ بَعْدَ أَمَامَةٍ	لَمَّا اسْتَقَالَ وَقَالَ أَيْنَ المَجْلِسُ[٣]

وما هو ثابتٌ الحماسة إلا اختاراتُ أبي تمام من الشعر العربي القديم، التي انتدبَ أبو علي المرزوقيُّ إلى شرحها، فاقتضته أن يُنبِّه من يشرحها له، على العمود الذي به تُحَكَّمُ تلك السِّمَرُ من سائر الكلام واختيرت تلك اختاراتُ من سائر القصائد، كالعمود الذي به تنهض الخيمة من سائر الأرض وتُؤثِرُ من سائر المنزل، فكانت «جَزالَةُ اللَّفْظِ» شطر الباب الثاني من سبعة أبواب هي ذلك العمود[٣]

ولم يختصَّ المرزوقيُّ بذكر «جَزالَةِ اللَّفْظِ»، فقد ذكرها قبله الحاتمي[٣]، وثعلب[٣]، و الأصمعي[٣]، والآمدي[٣]، والمعري[٣]، والعسكري[٣]، وغيرهم، ولكنه اختص بإيرادها على النحو السابق، في أبواب عمود الشعر العربي القديم.

[٧] والإجزالُ في لغة مَكْسُ الإركالِ[٣] الذي هو «إرقاقُ السخيف»، الذي هو أحد دلالتَي «المُهَلْهَلَة» كما سبق «رَكَّ الشيء أَيْ رَقَّ وضَعُف، وبه قولهم: لحمُهُ من حيثُ رَكَّ، والعامة تقول: من حيث رَقَّ، وثوبٌ رَكِيكُ النَّسْجِ»[٣]، ولولا قرابة «رَقَّ» من «رَكَّ» وَزْنًا ومعْنًى، والتصاقهما من الكلمة، لعُرِّجَ وصفه، مما الشيء الفصلان، وهو ما يوحي بأن المعنى فيهما من جنس واحد، فمن ثم يكون الإجزال هو «إرقاقُ السخيف»

الذي هو دَلالةُ المبهمة الأخرى، لا «الإفلاطُ» الذي هو عكسُ «الإرقاء»؛ إذ هذا من القدْح، وذاك من المَدْح، وربما قال الجاحظ تفضيلا «من الكلام الجَزْلُ والسَّخيفُ»[٣]

من ثم تقع عليلة ميلهل لشعره عند خصومه وأصحابه، التي جنى عليه وحده فيها لَقَبُه الذي اختص به من سائر الشعراء[٣]- بين الإجزال والإركاك الذين وقع بينهما عمل سائر الشعراء القدماء؛ فمن قدح فيه بـ فقد عنَّف من الإركاك ومن مدحه بها فقد عدَّها من الإجزال.

[٨] وعلى رغم ذلك الإيراد الطريف، ترك المرزوقي شرح «جزالة اللفظ» - ومثلها سائر أبواب العمود - بين يجار قول في رأه عيار الباب (معياره) «عيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال؛ فما سلم مما يعيبه عند العرض عليها فهو مختار المستقيم وهذا في مفرداته وجمله سواء، لأن اللفظة تستكره بانفرادها، وقد فسادها ما لا يوافقها صارت الجملة هجينة»[٣] فأضاف ما يحتاج إلى شرح آخر!

وتولا انصراف كلام جار جاني إلى نقد مقالة المُعْتزليّ وأستاذ أبي هاشم الجُبّائيّ، جاز أن يكون أراد المرزوقيّ بقوله «قد ير العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاما للأولين ويتداولوه ويتكلم به بعضهم بعضًا، من غير أن يعرفوا له معنى، ويقنعوا منه على غرض صحيح، ويكون عندهم، إذ يسألوا عنه، بيان وتفسير - إلا [علم الفصاحة]؛ فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظًا للقدماء وعبارات، من غير أن يعرفوا لها معنى أصلًا، أو يستطيعوا - إن يسألوا عنها - أن يذكروا لها تفسيرًا يصح. فمن أغرب ذلك، أنك تراهم يقولون إذا هم تكلموا في مزية كلام على كلام [إن ذلك يكون بجزالة اللفظ]. ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء»[٣]

[٩] لا مُشاحّة لدى جار جاني في استعمال المحدثين جزالة اللفظ مصطلح القدماء - وأرى منه ألا مشاحة لديه في استعمال الجزالة اصطلاحًا، حتى لمَزيّة اللفظ[٣] - ولكن المشاحة الشديدة لديه في ألا يتحمل المحدثون تكاليف استعمال مصطلح القدماء، الثلاثة

١ عِلْمَ معناهُ أي حقيقته التي يُسْأَلُ عنها «بِمَ؟»،
٢ وعِلْمَ غَرَضِهِ أي علّة حدوثه التي يسأل عنها «لِمَ؟»،
٣ وعِلْمَ تَفْسِيرِهِ أي تمثيل حقيقته الذي يسأل عنه «كَيْفَ؟»
أي في أن يجهلوا أمْرَ تلك المَزِيّة

أمْـرُ الجَـزالَـةِ		
علم معناها (ما هي؟)	علم غرضها (لم هي؟)	علم تفسيرها (كيف هي؟)

وإلا وجب ألا يستعملو مصطلحها، فقد صار أحدُ الرموز في حياة الثقافة السابقة التي يؤدي فقدها إلى فقد مسيرتنا الثقافية إلى المستقبل[٣٣]

[١٠] لا ريب في حداثةِ القديم في زمانه، وحداثةِ الحديث بعد زمانه. ولكن لا ريب أيضًا في انضباط كل منهم بالآخر؛ فعلماء القرنين الهجريين الرابع والخامس جميعًا ـ ومنهم المعتزلي والمرزوقي كلاهما ـ قدماء بدينا أما القرنين الهجريين الرابع عشر والخامس عشر، فحدثون لدى الجرجاني ابن القرن الهجري الخامس، وعلماء القرون الهجرية الأول والثاني والثالث قدماء لدى الجرجاني بعيدو التقدم لدينا، وعلماء القرنين الهجريين الرابع عشر والخامس عشر حدثون لدينا غائبون لدى الجرجاني

من ثم ينبغي لنا في أمر الجزالة والركاكة

أولًا: أن نبحثه عند القدماء لدى الجرجاني البعيدي التقدم لدينا، ولا سيما المستوعبه هو عنهم.

ثانيًا: أن نبحثه عند من استوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديه جميعًا معًا.

ثالثًا: أن نبحثه عند من لم يستوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديه جميعًا معًا.

حتى إذا ما انجلى أمرهما انجلى أمر الجهلة.

الجَزَالَةُ وَالرَّكَاكَةُ عِنْدَ القُدَمَاءِ

[١١] مر في نقد الجرجاني لاستعمال المحدثين لمصطلح القدماء، من دون أن يتحملوا تكاليفه، أن «جزالة النمط» عنده، من «علم الفصاحة»، وهو قد كان قال هذه الكلمة العامة التي أراد بها أن يعرف من أصلي عنده، «ليس لنا - إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة - مع معاني الكلم المفردة شغل، ولا هي مما يسبيل، وإنما نحدد بن الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب»[٣٤] فقد كان يرى علوم البلاغة علمًا واحدًا، وإن كان واضع نظريتي علمي المعاني والبيان[٣٥].

إن الجزالة والركاكة عند الجرجاني إنما من صفات النَّظْم الذي هو «أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النَّحْو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت، فلا تخل بشيء منها»[٣٦]، وما الجزالة والركاكة إلا نمطان من صواب النظم وما خطئه الذين أشار إليهم بقوله «ليس بواجد شيئًا يرجع صوابه - إذا كان صوابًا - وخطؤه - إن كان خطأ - إلى «النظم»، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع

في حقه أو حوّل بخلاف حقه المعتاد، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما يبغي له»[٣٠]، وليست «الجزالة والركاكة» بمعزل عن «مراعاة الإعراب» ومن أجله الناس أشار إليهم بقوله: «لسنا في ذكر تقويم اللسان والتحرز من اللحن ودرك الإعراب فحسب بمثل هذا التعريف. وإنما نعني في أمور تتعلق بالمكر الخفية، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم، فنعني بترك الصواب تركًا حتى يشرف موضعه ويجب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك الخطأ تركًا حتى يحتاج في الاحتراز منه إلى لطف نظر، وفضل روية، وقوة غوص، وشدة تيقظ»[٣١]

وزاد في استعمال مصطلح «الكلام» الخاص، بدلًا من مصطلح «اللفظ» العام الواقع في كلام الرماني وغيره، خروجًا على بيان تصرف صفات النظم ومنها الجزالة والركاكة، إلى الكلم المجتمعة لا المتفرقة، وتركًا لشبهة انفصال اللفظ عن المعنى[٣٢]، ولا سيما أنني حظرت بين وصف المعنى بالجزالة والركاكة، كما وصف اللفظ[٣٣]

(١٦) على أنني أجدني في أول كتابه أن يتخصص في الخصائص بأنها «خصوصية في النظم»[٣٤] دال على أنها - ومنها لديه الجزالة والركاكة - هي تلك

إن الجزالة في أصل اللغة: القوة، والجزل القوي، وإن الركاكة الضعف، والركيك الضعيف، وصفت العرب بذلك العقل والرأي، والجسم والكلام[٣٥]، بل وقع في نصوص من كلامها بحيث احتمل أن يكون وصفها كلها جميعًا معًا، فعلى حديث موعظة السقاء قالت امرأة منهم: جزلة أي ذات عقل، قال: ويجوز أن تكون قالت كلام جزل أي قوي شديد[٣٦]، وفي أخبار وفود عبد الله بن أبي سحلم على معاوية من الزبير، أن معاوية لم يؤثره على خروج زوج (قصبة سجستان)، حتى تأملته، فرآه جزلًا[٣٧]، وليس يمتنع بل يحسن أن يكون أراد قوة عقله ورأيه وجسمه وكلامه جميعًا معًا، فيكون خروجها كلها لديهم من أصل واحد.

من ثم تكون جزالة الكلام عند الجرجاني قوة نظمه، وركاكته ضعفه، ثم هي حين تصيبان الكلام تصيبان عقل المتكلم ورأيه وجسمه جميعًا معًا، ولكنّ لهذا حديثًا آخر.

ولقد عدّل الجرجاني أمر النظم عقب تعريفه السابق له بذكره أحوال التأليف قائلًا: «لا نعلم شيئًا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في (الخبر) إلى الوجوه التي تراها في قولك: (زيد منطلق)، و(زيد ينطلق)، و(ينطلق زيد)، و(منطلق زيد)، و(زيد منطلق)، و(إن منطلق زيد)، و(زيد هو المنطلق)، و(زيد هو منطلق)، وفي (الشرط والجزاء) ( )، وفي الحال ( )، وينظر في (الجمل) ( )، وينظر في (الفصل) ( )، وينظر في (التعريف)، و(التنكير)، و(التقديم)، و(التأخير)،

في الكلام كله، وفي (الحذف)، و(التكرار)، و(الإضمار)، و(الإظهار)؛ فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له. هذا هو السبيل»[٣٠].

[١٣] إننا إذا أجرأنا النظر فيما قصده وتقلناه من أمثلة الناظم بباب (الخبر)، وجدناها على أربعة أقسام متكاملة، لا نستطيع أن نضبط زمان بدئه أيها سبق، ولا زمان ختمه؛ إذ ربما تجمعت عليه هي كلها أو بعضها، وربما تفرقت.

أولها (الابتدائي): فليس إيثار الناظم في المسند أن يكون معرفاً بـ«منطلق»، أو جملة «ينطلق، هو ينطلق»، ونكرة «منطلق»، أو معرفة «المنطلق» - وفي المسند أن تكون اسمية «زيد منطلق، زيد ينطلق»، أو فعلية «ينطلق زيد» إلا إيثار المناسب من غير المناسب.

وثانيها (الترتيب): فليس إيثار الناظم في المسند أن يتأخر عن المسند إليه «زيد منطلق، زيد ينطلق»، أو أن يتقدم عليه «منطلق زيد، ينطلق زيد»، إلا ترتيب موقع كل منهما المناسب، من الآخر.

وثالثها (الحذف): وآخرها (الإضافة): فليس إيثار الناظم في المبتدأ والخبر المعرفتين، أن يتصلا «زيد المنطلق» - وهو مفهوم من «المنطلق زيد» - أو أن ينفصلا «زيد هو المنطلق»، إلا حذف الغير المناسب أو إضافة المناسب.

ولا يخفى التباس الابتدائي بغيره من أقسام الأحوال، في بعض ما فيها؛ إذ كل تغيير من وجه المعلوم، ابتدائي.

ثم إن في آخر نص الجرجاني السابق، بيانا آخر فيما يؤثر التعريف أو التنكير والإضمار أو الإظهار، إلا الابتدائي، ولا يؤثر التقديم أو التأخير، إلا الترتيب، ولا يؤثر التكرار من «الحذف» إلا الإضافة.

وبالجملة فقد يحسن أحوال الناظمين، ويختبرها بموازنة كلامهم بعضه ببعض، أو بتخيير نظم كلامهم، وموازنة حاله الأخرى بحاله الأولى، غير متحرج من كلام الله؛ فإنه كتاب أنزل «وما هو بذلك المنزلة في أنك تحد بعضي لا يستقيم، لا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم نحو - تعالى! -: {إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين}، ونحو - تعالى! -: {وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً}، ونحو - تعالى! -: {وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون}، لو جعل النمط قد به على المعنى، والمعنى قد زال عن

صوره والخال التي ينبغي أن يكون عليها [1]، ولم يكن الفصل الذي اختبره، لا الترتيب

[11] وعن ذلك نشأ ما يجري أمر الجزالة والركاكة، والجزل للجزيل ضد الجزل، والجزالة ضد الركاكة) إنما هي للألفاظ الكلم الفخمة، والجزل للجزيل، والجزالة للنص والغرض بالكلام، وقد نبأ بها، والإيذان منه، وكتبهان إليها - وهو مراد الجرجاني من قوله فيما سبق في الكلام الجيد - حتى يستقر ما رُسمها، ويتضح أمدها من الكلام كله، فلا خرج قولُ الشعر، كالفصل المنثور، لا يتيح لشاعره أن يقول ما لو كان قاله مكان كذا لكان أفضل كان جزلاً، وإذا خرج ضعيف النظم، كالفصل المرجى، يتيح لشاعره أن يقول ذلك، كان ركيكاً، وإذا هي للشعر عادل أي أفضل الكلام بعضه في بعض، وأسلطاً ركاكة، وإن قال لغيرك علّم أي ذمّ بعضه من بعض، والتفاوتُ ركاكة، فالأولا أسهل بكثير، إلا أنك ترى بأن في الكلام الفخامة والعذوبة، بدلاً أكثر

وليه ذلك اختباره بما اختبر به الجرجاني أهل الطبقتين، موازنة طبقة بطبقة كلام غير طبقته أو بغير طبقته وموازنة طبقة الأخرى بطبقته الأولى، والأولى أن يُتبع اختباره في طبقة الآخر من التكلف[12]

فذلك أمر الجزالة والركاكة عند القدماء معنى وعرف والشيء الذي أراد الجرجاني للمحدثين أن يصيروا صفة سجية لشعرهم من غير تصنع في غير تكلف[13]، غير أن الشعر العربي القديم كان به الزور في غير ما ذكره، ولم يشترطه من أبواب ضعوفه، وما أتبعه ذلك الشعر، ولم يشعر بها سائر الكلام العربي (نفسي الكلام الجزلُ والسهلُ، والفخمُ والرقيقُ، والشريفُ والسخيفُ، والحلوُ والطليُ، وكلٌّ عربيٌّ[14] إلا من الكلام ما يخرجه التزيدُ والتداولُ والتهجينُ لكلام الكافة، وهي في شعره العرب من قديمه وحديثه ما تخرجه الفحولة والتوغل والإحسان لكلام المتناهية، والجزالة أصلٌ بالأول، والركاكة أسلفُ بالآخر، وبين يساوي طبقة الكلامين، ولا أعرفُ الطبقتين[15]

[12] وقد عبارت سيرة الجزالة من الشعر العربي القديم وسيلة إلى كبيره من خبره وعن المعمول عليه المعمول إليه، روى الأصفهاني عن ابن الكلبي عن عمرو بن العلاء بن كعب، عمر المعروف بزيد بن عبد شمس وعامر بن الطفيل بأنهما بنو الأسكر وبقيا في مكانهما قبل الإسلام أو في أوله، وبه قمر، ثم قال: «هذا الخبر مصنوع من مصنوعات ابن الكلبي، والتوليد فيه بيّن، وشعره شعر ركيك فلا يشبه أشعار القوم، وإن وجدت له شيئاً يجيد الكتاب من شيء قد روي[16] فريب الطبع يتزيد شعره بركاكة، وشره بتوليد أحياناً

الجزالة والركاكة عند المحدثين المستوعبين

من المحدثين قلة استوعبت من أمر الجزالة عند القدماء ومنزلتها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه عبد القاهر الجرجاني فيما سبق، كالحسن بن رشيق القيرواني، وحازم القرطاجني، والدكتور عبد العزيز الأهواني، والدكتور محمد هادي الطرابلسي.

[١٦] أما ابن رشيق فقد دل على ذلك قوله: «العرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنّس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة لفظة، أو معنًى لمعنى، كما يعمل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وملاحم الكلام بعضه ببعض، حتى عدوا من فضل صنعة الحطيئة، حُسنَ تشبيه الكلام بعضه على بعض في قوله

فما رأيت ما ظلمت قريعٌ ... وقد يسر المكارمَ حيث شاؤوا
ولا رأيتك ما فلّلت قريعٌ ... ولا تيمّموا لئامك لا أساؤوا (...)

وكذلك قول أبي ذؤيب يصف حمر الوحش والصائد

فورد وإن يشوق مقعدٌ ربيئه ... فصادر والمنيّة معقد بسره
فكرّ فرّ في حجرات مصعب بسره ... حشيف البطان لفيت قب الأكرع (...)

فأنت ترى هذا النسق بالفاء كيف اطرد له، ولم ينحل عقده، ولا اختل بناؤه، ولولا تفاذه الشاعر ومراعاته إياه لما تمكن له هذا التمكن»[٣٠].

إنه عالم ناقد وفنان شاعر، لم يغب عنه تميز معاصريه بالبديع دون القدماء، حتى ليركون له قصدًا أصيلًا من الجزالة، وتمسك القدماء بالجزالة دون معاصريه، حتى ليركون له هدفًا أصيلًا من البديع. ثم هو يتحرص في القدماء لما كان في حديثهم؛ فيذكر حسن عطف الحطيئة بالواو جُمَلَ البيت الثاني («ما ظلمت قريع»، و«لا أساؤوا»)، على جملة البيت الأول («ما ظلمت قريع (...) شاؤوا»)، وحسن عطف أبي ذؤيب بالفاء جملة البيت الثاني على جملة البيت الأول، وكلتاهما مبسوطتان على أرجاء بيتيهما، بأجزاء مختلفة متلاقة معًا، دون أن يعيبا الأول بحذر آخر المعطوفات على المعطوفة عليها، أو بتحري الآخر قياس المعطوفة على المعطوفة عليها.

ولكنه يجد في معاصريه من يذهب إلى الجزالة مذهب القدماء، فيتأمل شعرهم، فيجعله على ثلاثة أصناف.

وصف يتخذ للمجزالة الألفاظ المصونة، في مواضعها ومنه شعر بشار، كقوله

يا قاصداً حطبا لكثرة نكثه	تحتطب بحبل الشمس لو تتكثرت قما
إما ترى أمرا سيئا من فيلة	فرى مني حسنا عليك وصلي[1]

وصف يتخذ للمجزالة الألفاظ المصونة، في غير مواضعها، ومنه شعر ابن هانئ، كقوله

أصاخت فقالت وهي أشعرة تسمع	وشمرت فقالت لمسمع لبيك يا لهم
وما ذعرت إلا بحمرس خيلها	ولا رقصت إلا بشرى في لهازم[2]

وصف يتخذ للمجزالة الألفاظ المبذولة، في مواضعها، ومنه شعر أبي العتاهية، كقوله

يا إخوتي إن الدنيا لساحل	فتزودوا الأعمال من ساحلي
ولا تركنوا في اليوم للدنيا	فإني لي شغلي شاغلي
حتى متى لجة نهلة	يدعوها الكثيب الهائل
يا من رأى قبلا لا بكى	من يتلو الموت على القابل
بنيت نفسي تحسبونهم سالمة	ما لكم لا ترقبون حمل القاتل
إذ أنتم غرض لكل منية	فلم لا جعلا بنبل المنايا
أم كيف نومكم على ضرر	يشبه نومكم إلى قليل[3]

لم يعب ابن رشيق إلا الثاني، قائلا «وإنما أصحاب قعقعة بلا طائل معنى إلا القبيل الفاجر (...) وليس تحت هذا كله إلا الفساد»[4] - وكأني بالمعري يقول في ابن هانئ نفسه: «رحمى تطحن قرونا»؟! - ولكنه لم يتهم من مذهب المجزالة.

لقد ألف ابن هانئ حتى شعره مجزالته، وأحسن ابن رشيق، بما تعمّد فيه من الإغراب، وتكبّه أن كان في الغرب الذي تتخيّر فيه أوابس الألفاظ لأوانس المعاني!

قال ابن رشيق فيما قبل ذلك من كتابه «ليس التوليد والرقة أن يكون الكلام رقيقا سفسافا، ولا بردا غثا، كما ليست المجزالة والفصاحة أن يكون حوشيا خشنا، ولا أعرابيا

جاهليًا، ولكن حال بين حالين. ولم يتقدم لعمرو القيس والنابغة والأعشى إلا بسلاوة الكلام وطلاوته، مع اليسر من السخف والركاكة [٢٠٦] فدل على التقاء الرقة والجزالة معًا في صورة وسطى، وهو ما سبق أن رأيناه في ترقيق التحضير، وعن التقاء الرقة والركاكة معًا في منزلة طرفية، وهو ما سبق أن رأيناه في ترميق التسخيف.

[٢٠٧] وأما حازم القرطاجني، فقد دل على مستصعبه أمر بالجزالة عند القدماء، قولُه في جانب دلالته معاصرَه الشاعرَ الذي لم يعش زمان جزْلة بعربية، على طرق العلم بتحسين مبادئ العبارات والتأنق في اختيار موادها وإجادة وضعها ورصفها: «بقوة التهدي إلى العبارات الحسنة يجتمع في العبارات أن تكون مستصعبة جزلة ذات طلاوة (...) والجزالة تكون بشدة التطالب بين كل كلمة وما يجاورها ويقارنها أثناء الكلام في الاستعمال (...) ويعنى [شارة إلى ما يجب أن يتفقده الناظم ويلتفت إليه على نحو قوله، من الجهات التي تحس منها بعبارات أو تصريح، قد أحدثت الكلام فيها، وجعلتها كالإحالة على ما عدّته»[٢٠٨]

وعلى «ما عدته» علق المحقق قوله: «يظهر أن تفصيل ذلك كان في القسم الأول المفقود من هذا الكتاب»

أما اتخاذ «شدة التطالب» سبيلًا إلى الجزالة، فسديد جدًا، فيما عسى إلا أن يحرص الشاعر في خلال إبداله وترتيبه وحفظه وإعادته على اختيار المناسب المتماسك، الذي تخرج وهذا معنى عربي قديم سبق في الفقرة الثانية عشرة وذكرُه – كتجسمه «في صفة النبي – صلى الله عليه وسلم! – بأدق متماسك» أراد أنه مع دماثته متماسك، ليس بمسترخٍ فيه ولا منفضخ، أي أنه معتدل الخلق كأن أعضاءه يمسك بعضها بعضًا»[٢٠٩]

وأما «تقارب أنماط الكلام في الاستعمال»، فقد سبق به أن راده بيانًا في خلال حديثه عن تلاؤم الكلام الذي يقع على أنحاء، قائلًا: «منها ألا تتفاوت الكلم المؤتلفة في مقدار الاستعمال؛ فتكون الواحدة في نهاية الابتذال، والأخرى في غاية الوحشية»[٢١٠] فلم يعدُ ما أخذ ابن رشيق عن ابن هانئ، إلا أنّ ما يقع في غير موقعه، هو بعضُ الكلام دون بعضٍ عنده، وهو الكلامُ كلّه عند ابن رشيق، وكلاهما يعتد على الشعر بجزالته، ولا ينصبها، وإن كان ما به عنده حازم أشد إفساداً. فإن الناس يتفاوتون في رؤية الكلام واقعًا كلّه في غير موقعه، على حسب أعرافهم: «فإن الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشيّ من الناس، كما يفهم السوقيّ رطانة السوقيّ»[٢١١]، فأما أن يخرج مُلْمَعًا بعضُه من وادٍ وبعضُه من آخر، فوعيًا يُتَكَأَّ به[٢١٢]

وفيما ذكره الجرجاني في كتابه "أسرار البلاغة" من الموضوع الاستحسان بين النمط من غير شراح من المعنى فيه وكونه من أسبابه ودواعيه[٢٦]، إشارة إلى تفاوت أنماط التكلم في الاستحسان، تزيد رأي السابق، إذ لم أجد فيه عند الجرجاني ولا بركات[٢٧]

(١٨) وأما الأحوال فقد دل على استيعابه أمر الجرجاني عند تقسيمه، وشرائها من الشعر العربي القديم استيعابه لأمر البركات وشرائها من شعر أبي تمام فقال:

لقد فلسف القاهرة بقوله: «إن البركات في الأساليب أثر من آثار الارتياح الفكري عبر ذلك». وينبغي أن نفرق بين البركات وبين الخصائص، وأن نفرق بينها أيضًا وبين الشهرة؛ إذ إن البركات شيء عن عدم تمكن الأديب من اللغة التي يكتب بها، لا انتقاء إلى معرفة أصوف، وإدراك أسرارها، وبلغة بصره بالفروق الدقيقة بين دلالات المفردات ومعاني التراكيب ومناسبات الجمل وروابطها. إن ما سميه بالبركات ليس شرطًا أن يكون خطأ في سير اللغة واستعمال مفرداتها فيها وفلسفته هذا، وإنما هو في التعبير عن التصرف باللغة بحيث تؤدي الأفكار وتصور عن الإحساس تصويرًا مرضيًا، وبحيث يكون تأليفها ممكنًا منيعًا، وخلصها متدرفًا ومنسجمًا. إن المثل الواضح للبركات هو ما يجده ليس للغة فيمن يكتب أو يتكلم بلغته من أبناء القوميات الأجنبية، حتى يكون هذا الأجنبي قد درس اللغة بعيدًا عن وطنها الأصلي. والبركات بهذا المعنى لا يجدها إلا من كان حظه من إتقان اللغة عظيمًا، بأن يكون قد ولد في بيئة تتكلمها أو يكون قد طالت فترة تلمسوها للمدة، وقد استطاع الجمع بين الأمرين، وكان لها موهبة لغوية وفنون، وحس في التعويل بين جرس الكلمات وتناسق الجمل وموسيقية العبارات كان الحكم الأول في القضية (...) فالعامية لغة مسطحة ذات أساليبها وألفاظها وما يلاحظ كما أدرك ذلك ابن خلدون قديمًا فإن سريان العامية إلى اللغة الفصحى تسرب غير طبيعي، منشؤه ضعف قناعة العربية، حدثت البركات (...) على أن البركات في الشعر لا تجيء عاريًا من الضعف الفني ومن جهل أساليب العربية وضعف التمييز بين الجيد والرديء منها. وإنما تجيء أحيانًا من ضعف الحس الموسيقي عند الشاعر، فالجرجاني دارس وعارف باللغة جدًا. والشعبي يلحظ أن حظ المتأخرين منها كان أقل من حظ المتقدمين من الشعراء، ونقل ابن سنان أن البحتري يعتبر خيرًا من كثير من معاصريه والتابعين له في يتصل بالجرجاني[٢٨]

ما وجوه التصرف باللغة بحيث يخرج التعبير مرضيًا ومنيعًا ومنسجمًا، لا أقسام أحوال النظم التي استنطقناه من حس الجرجاني، وأجريناه عليها أحوال المعنى والشرح، وما التمييز من تلك الوجوه إلا البركات، ولا القدرة عليها إلا الجرجاني

وليس الجرجاني الذي جعل التمييز هو البركات والقدرة عليه الجرجاني، وجهها من تلك الوجوه، بل اختار من مختلف آرائها فلاسفة أصوات مؤلف منظومًا ومنتسقًا للبيانات

وجُمَلًا وفقرًا ونصوصًا؛ فإذا مرَّ المتكلم في التعبير إبدالًا ومرتبًا وحدفًا وإضافة، ساعده إلفه على إصابة ما يأخذ وما يترك فيَحْرِزُ إذا كان أَلِفَ الحُرَّاق، أو ساعد ملقه على تخطيئه فيما أخذ وما ترك فأَزَلَّ إذا كان أَلِفَ الرَّكيك. ولا يُعترض على ذلك بأنه كاتب؛ فإن اللغة للطوقة، ثم إن الكاتب يقرأ على أذنه ما كتب على ورقه، ليستفيد مساعدة ذلك الحس الموسيقي، وهي وصية أبي تمام لتلميذه البحتري من قديم[٣٠]

ولقد ألقى الأهواني كلمته في اختلاف الركاكة والسهولة (الوضوح)، ومضى دون أن يريدها بيانًا. وإنها بكلمة سديدة جدًّا؛ إذ تتضمن السهونة بقوة النظم (جزالته) التي تُعلِّقُ مُسْتَرْجِبَهُ بدقائق كل جمل من أعماله، لا بضعفه (ركاكته) التي تسوق استيعابه. وسيأتي لهذه المسألة في الفائرة الحادية والعشرين، مزيد بيان.

أما سبب كلام النهجة في كلام النعت فهي يفسد على الشعر جزالته - وإن لم يخفها ويدعُهُ شُحْرَةً لُتَمْثِلِينَ؛ إذ هو من جنس «تقارب الكلم في الاستعمال» الذي عابه الفرطجني، ومن جنس وضوح الكلم في مواقعه، الذي أحسن ابن رشيق عمل ابن هانئ ولقد كان من آثار اشتغال ابن سناء الملك بشعر النهجة، أن «غلب على نظمه في القريض (شعر المدحة) استعمالُ النمط العامي، وفساد المعنى، واختلاف تركيبه، حتى أخرجه ذلك من ذلك وهما لا يجوز استعماله في العربية، فذرا كثيرًا»[٣١]

ولقد رأى الأهواني في غلبة المنطق النحوي على نظم الكلام لافتقاد سليقة اللغة وإلف قراءة الكتابات الشريفة في العلوم الإسلامية والدفوية والمدرسية وما أشبهها ثم الاشتغال بها - سر ركاكة شعر المتأخرين[٣٢]، الذين رأى فيما سبق، أن النقدي يثبت أن حظهم من الجزالة كان أقل من حظ المتقدمين. وعلى رغم أن ابن سناء الملك خبرٌ حظَّ عقله من كثير من معاصريه وتابعيه، لم يستطع أن يكتم من الركاكة، ما تجلى به في قوله

صَحَّ يومٌ دهرنا وفاةُ الحِجا	فيطُلْ منكِ بُكْرةُ الوُفَّاه
ولْتَبِنْ عن عقدتاه من العين	سرُ بيانٍ لحُلَّا وبكاء البكاه
وأعينُ المدمع شكْبًا وتطلًا	وغيثًا أجنَّ مثلَ الفتاه
وامتطا النوم كلَّ صَبٍّ ينادي	مَنْ يُصبِّر الحَيْرى وهو بالكراه
ليستِ العينُ منكِ في بعضِ	أو تعالي حلًّا لبعض عُقاني[٣٣]

فقد أفسد نظمها بما التزم في جمعها وفي روابط جملها من تكرار التركيب الإضافي نفسه ثلاث مرات متقاربات «وفاة الحجا، بكاء الوفاء، وكاء البكاء» - ومن تكرار تركيب الجار والمجرور نفسه مرتين متشابهتين «منكِ، منكِ» - ومن لبح قوله: «ولتبن

ما بأن تحذلّقه و«وجه أبي مثل الصباح» دون أن يبين وجه القبح، والحقيقة أن ما قدمه في شبه منطق النحوي، بيان جعلي لسر قبح الأبيات كلها، فما هي إلا تراكيب لغائية صاغها قاض م ير الفقهي عليه لكيلا تشرب نفسه شبهه عطف عليه، ولقد أحنقه تمسك ابن سناء بالبديع الذي م يعر بنا هنا من قبل، فزماله رماله.

[١٩] أما الطرابلسي فقد دل على استيعابه أمر الجزالة عند القدماء، ومرتبتها من الشعر العربي القديم، استيعابه منزلتها من شعر أحمد شوقي، وتدخل التركاكة إليه.

لقد اعتذر عن إخلاله بمقتضى طبيعة بحثه الوصفي التعبيري التي لا تناسبها الأحكام المعيارية، بعجزه عن كتمان ما وجد في تعابير شوقي، من جزالة ومن ركاكة.

لقد عدها الجَزْلَة «قَرِيضَةً»، ولم يُطل حديثها، فشوقي مشهور بـ «لا يعدم الناظر في قصيدة من قصائده أثر الثقافة المتينة والفن الخلاق»[٣٠]، وإن فسرها باعتماده التصوير، كما في قوله

تَسْتَحُّ الأَرْضُ فَيَخْرُجُ حَبِيبٌ مُدَّخَرٌ ... وَعَظِيمٌ مِنْ أَصْلٍ بِمَرِّ الدُّهُورِ

الذي صور فيه شوقي الدهاء الذي ليس وراءه خير بالدهاء العقيم، فإنه الطرابلسي على أن مثل هذا التصوير هو الذي عن جزالة تعابيره الغالبة[٣١]، وهو فهم طريف، إذ لولا الوصف بالعقم وتقديمه وتأخير الدهاء بين الفاقية وتعليقه به، لاضطرب تركيبٌ عَجُزَ هذا البيت. وما تلك إلا الإبدال والترتيب من أعمال الناظم المُجزِل.

وعدها التركيكة «سَقِيمَةً» وأطال الحديث فيها، لأنه «هو وغيره نادرة كالشذوذ الذي يؤكد القاعدة، يدرس لتتوثق المعرفة بالقاعدة لا به»[٣٢]، وفسرها بإفراطه حتى بعض قيود الكلام، كما في قوله

لَيْسَ لِلشَّمْسِ تَهْمَةٌ فِي انْتِشَارٍ ... فَلَهَا تَحْسِبُ أَنَّهُ لَا تَغْرُبُ

الذي أراد به وصف القدائف بكثرة الانفجار وارتفاع الدخان، حتى إن الشمس لتخشى أن تصيبها إذا أخطأت مرماها، فضاقت فسحة البيت عما أراد.

وكما في قوله

وَلِنَفْسِي الْهَوَى مَا شَاءَتْ بِي نَفْسِي ... فَلَهَا تَشْكُو إِلَّا الْأَرْضَ وَالْأَرْضُ تَغْرُبُ

الذي أراد فيه فكرة تقارب الحبيبين روحًا ومكانًا، بإسقاطها الأرض الفاصلة بينهما، فدم تركيبه القافية. وما تلك إلا الإبدال والحذف من أعمال الناظم المُرِكّ.

ثم قال: «إن تعابير شوقي لم تخل من سوء، ولكننا نقرر مع ذلك - أن ظاهرة سوء التعبير ليست شائعة في (الشوقيات) بالقدر الذي يضعف قيمة أشعاره؛ فقد بقيت تعابير الشاعر محتفظة بجزالتها في الجملة، ويقيت تمثل في نظرنا عاملا قويا من العوامل القائمة لوصول رسالة الشاعر إلى القارئ، ومن وسائل التعجيل بوصولها، وإن لم تسلم أحيانا في قنوات الإبلاغ، من العوارض التي تغير وجهة الرسالة»[٢٩]

لكأن الطرابلسي بدراسته لشوقيات بعضها تقدم من دراسة الأهواني للسنائيات، يُشيِّعُ الشيخَ المُتَّئِنَ، ويدل على من أحد الشعر بحقه؛ فرده سيرته الأولى، بعدما حيدَ به عن جادَّته.

ولقد به آخيرًا هنا، على تعلق السهولة (الوضوح) بالجزالة، على ما سبق أن استنبطنا من كلام الأهواني الذي سيأتي له في الفقرة الحادية والعشرين، مزيد بيان، لم يمنعه من ذلك أن جَعَلَ الكلام (منسوبا إلى الجزالة، وهو غير الإجزال الذي هو اتباع الجزالة)، والتركيبَ (منسوبا إلى الركاكة، وهو غير الإركاك الذي هو اتباع الركاكة)، حُكْمَيْن يتعاريان - حين أتى عند الجرجاني، من عواتب النظم ومن عنايته - وجهًا منه لقيمة هذا النمط من الأحكام ولزومه لكل ناظر في الكلام.

الجَزَالَةُ وَالرَّكَاكَةُ عِنْدَ المُحْدَثِينَ غَيْرُ المُتَوَجِّبَيْنِ

ومن المحدثين كذلك، كثيرٌ لم تستوقفه من أمر الجزالة عند القدماء ولا مترلتها من الشعر العربي القديم، ما استوقفه عبد القاهر فيها سبق، تستعصي على المجاورة أسبابُهم؛ فتجمعهم في يأتي دعاويهم

[٢٠] الدَّعْوَى الأولى: أنَّ الجَزَالَةَ والرَّكَاكَةَ مِنْ صِفَاتِ المُفْرَدَةِ المُنْفَرِدَةِ.

وهي دعوى ينبغي ألا نقف عندها طويلا، بعد أن جعلها الجرجاني من مسائله المهمة التي أفرد عليها دلائله، واستفرغ في نقدها وُسْعَهُ، وقال فيها أحسنَ ما سبق ذكره: «ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة، مع معاني الكلم المفردة شغل، ولا هي مما يسبيل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب»[٣٠]

إن المتأمل ليَطْلُعُ على أنَّ من المحدثين، من علق الكلمة بالكلام، من حيث لا وجود له إلا بها؛ فتقضي بوجوب فصاحة الكليات المفردات «لأنها أجزاء الكلام؛ فتحتاج أن تكون الأجزاء فصيحة ليكون مجموع الكلام فصيحًا»[٣١]، وربما كانت هذه العبارة الأخيرة، من جري ابن عاشور في مضمار قول الزوزني السابق ذكره: «اختيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال؛ فما سلم مما يبحث عنه العرض عليها فهو المختار المستقيم. وهذا في مفرداته وحملته مراعى، لأن اللفظة تستكره بانفرادها؛ فإذا فصلها ما لا يوافقها عادت

الجملة صحيحاً[٣٠]، الذي لم يستبعد أن يكون الجرجاني قد عناه بتضييقه فحص ما فسّرها إذ لا يتعلق بالكلمة المفردة إلا مقدار ما بين أصواتها من تآلف وتنافر، وصياغتها من ناحيتها صوتاً وخطاً، ومقدار شيوعها في الاستعمال أنّت ووحشة، وهي كلها مسائل من فقه سبيل نظم الكلام ولا جرالته ولا ركاكته

وربما حصر الدعوى لقصدُ الفصاحة والبلاغة عند الجرجاني، والفصاحةُ عند غيره[٣١]، وفرّع الفصاحة عند غيره في الكلمة المفردة[٣٢]، وهو ما اجتهد ابن عاشور في الجمع به بين مقالة الجرجاني في الفصاحة ومقالة غيره، منتهياً إلى أن لا خلاف بين البلاغيين في أن الكلمات المفردات تتفاضل في فصاحتها، وإنما اختص الناظرون فيها بحسبوب الفصاحة بالكلام من وجه العموم[٣٣]، على حين ذهب الجرجاني مذهبُ وكأنه يرى ابن عاشور من ورائه لسعة قرون، على أنه «ليس هذا الخلاف ضرر فيه، لأنه ليس بأكثر من أن يجعل بين (الفصاحة) مخرجها من حيز (البلاغة والبيان)، وقد تكون ظاهرة فيها، وفي عدّه ما هو شبيهها من البراعة والجزالة وأخواتها ذلك، مما ينبغي من شرف التنظير وحسن المزايا التي شرحت لك أمرها، وأعدتك جنسها - أو يجعلها اسماً مشتركاً يقع تارة لما تقع له نعوته وأخرى لما يرجع بين سلامة اللفظ مما يثقل على اللسان ليس واحد من الأمرين بقادح فيما نحن بصدده»[٣٤].

لا أثر لذلك عند الجرجاني في أمه واشتغاله به؛ إذ قد حصر مكمن الإعجاز الذي هو بصدده، في نظم الكلام الذي الجزالة من صفاته من النحو السابق تفصيله ، ولكن على رغم هذا الحصر قال ابن عاشور في بعد عنك من شرحه لكلام الزوزني: «قد وليتهم يقولون الجزالة مرة بالرقة، ومرة بالركاكة، ومرة بالفصاحة، ومرة بالكراهة؛ فتحصّل مما من معنى الجزالة، أنها كون الألفاظ التي يأتي بها البليغ الكاتب أو الشاعر، ألفاظاً متعارفة في استعمال الأدباء والبلغاء، سالمة من ضعف المعنى، ومن أثر ضعف التفكير، ومن التكلف، ومما هو مستكره في السمع عند النطق بالكلمة أو الكلام»[٣٥].

إنه لم يعد مقبولاً مع قدح الجرجاني في محققي الذين يقاربون ما لم يستوعبوا أن يجمع بين مقالاتهم تنظيرية، لاستخراج معنى تتسق به ونقد سبق في هذا البحث وبحسبه، نقد ما كان؛ إذ إن اختيار المقابلة وما إليها من وجوه الإبدال، منهج سديد في نفسه، بل هو عند الجرجاني كما سبق، أحد أعمال الناظم وأحد اختياري الناظم.

ولن نزال نجد مثل هذه العبارات الصريحة في عصر فكره وصف الكلمة بالمفردة بالجزالة أو الركاكة، ما بقي في المحدثين من يرى أن «ركاكة اللفظ، وركاكة الكل»[٣٦]

(٢١) الدّعوى الثانية: أنّ الجزالة جِدُّ الشهرة والتّرَنُّو

تأثر أراد بعض العلماء القدماء أن يؤلف الذوب المختوم من أصحاب جرير وأصحاب الفرزدق، وأن يجعل كل طبقة أطبق طبقة وأسند الأعشى، فجعل أول طبقة الذين هم الأعلى، وهو في أصحابه، وأورد لكل طبقة مختارة.

قال الأصفهاني: «الفرزدق أشعر من الشعراء الإسلاميين غير مدافع، والأخطل وهذا في الشعر أكثر من أن يحيط عليه بقوله، أو أن يدل على مكانه بوصفنا، لأن الناس بأيامهم بمعرفة بالأدب وبطبقات تقدمت بالغير الشعائر، فلم يحتاجوا به على الإطالة في الوصف، وقد تكلم الناس في هذا قديمًا وحديثًا، وتعصبوا واختصموا، ولا أريد عليهم باستقصاء بعد احتجاجهم من تقديم هذه الطبقة، في أيهم أجل بالتقديم على صاحبه، فأما تقدمه أهل العلم وأربابه علم مشهورًا بينهم لا يجهل فضلهم في الشعر، ولا له علل ما هو من نعوته، ولا تصرف تتصرفوا في معانيه، ورأيتهم أن يوضحوا أغراضه فيه حتى أخلقه بها - وهم في ذلك طبقات: أحد من قال يميل بن جرانة الشعر، وهذا، وهذه أشبه فيهم الفرزدق، وأما من كان يميل إلى أشعار الطبقة، وبين الكلام الصحيح السهل العذب فيقدم جريرًا»[1].

أولاً: الفئة المقدمة بأسمائها، وعددها تسع، اختلفت الرواية في الأعشى أو الأخطل، فأشرنا بالقوس على أنهما من زيادة المطروف عن صفات الفرزدق، لبيان المطروف عليه، والتفصيل المطروف من صفات جرير المتفاضلة عن بعضها بيانًا، لأحوال المطروف عليه:

الفرزدق	جرير
فحلاً	فحلاً
لفحاً	فحلاً
بقائم	فحلاً

ليس في ظاهر هذه الصفات ما يوافق عند كل منهما عن إعلاء الفرزدق على جرير، الذي يقرع أصحابه بأنه لو لا جدته لذهب لسد الشعر، والفرزدق يقرع الذي يقرع أصحابه بأنه لو لا جدته لابتلي الشعراء، ولا في اضطراب هذه الصفات لتفاوتها، شيء يصلاح ذا به الثوب الذي يتحمل فيه من أصوله الشهيد، فيه هذا قراءة الاصطلاح وبلغاته الوسطى[2].

قال الزبيدي: «كان جامعًا لأشعار جرير، والفرزدق يا عثمان فيه من شعره، يعني قوله:

[illegible]

ومثل قوله

وَمَا وَظِيفَةُ فِي النَّاسِ إِلَّا مَلَكٌ ... لَيْسَ الْكَرِيمُ مِنَ الْأَمْلَاكِ بِالْبَرِيءِ

والشاهد ظاهر. فقال كردين: أنت يا أخي لا تعلم، سقطُ الفرزدق شيءٌ يستحي الرجالُ فيه حُقْرًا حتى يستخرجوه، وسَقْطُ جرير جِرٌّ، نحو قوله

والتَّغْلَبِيُّ يمتازُ الشَّيطانا

لقد غنى الفرزدق في الإجرال حتى حاضل، تعاليتُ أوليتُ تعتيدها عليه ابنُ أبي إسحاق النحويُّ الإدام، حتى هجاه الفرزدق واستعرَه بين تأويبها، فبعث لأصحابه من مقاصره: اتسكروا بها على النحو السابق، وهي - لو علموا - من نزغاته التي رغب بعض الباحثين في دراستها دراسةً نفسية[1]، ولم يكن ينبغي للعلماء أن يجاريهم بالسكوت عن أدب من الإجرال؛ فقد تعثكلتْ في أعيادها، كي تتماثل خيوط النسج، فتلطفت بالمتلقي بعض الشيء إلى الفهم، فتمخضت عنه[2] دلت على اضطراب نفسي، لا على خصب عقلي. ولقد مر الجرجاني في «أسرار البلاغة»، هذا الذي سماه «المُلَخَّص»، من ذلك الذي سماه «المُتَعَقَّد» بقوله: «المتعقد من الشعر والكلام لم يذم لأنه عما يقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة، بل لأن صاحبه يُعثر فكرك في مصدره، ويُشبك طريقك إلى المعنى، ويوعر مذهبك نحوه، بل ربما أتلم فكرك، وشغّب ظنك، حتى لا تدري من أين تتوصل، وكيف تطلب. وأما المُلَخَّص فيفتح لفكرك الطريق المستوي، ويمهّده، وإن كان فيه تعاطفٌ أقام عليه المنار، وأوقد فيه الأنوار، حتى تسلكه سلوك المُتَبَيِّن لوجهته، وتقطعه قطعَ الواثق بالنُّجح في بيِّنه، فتَرِد الشَّريعةَ زُوَّادًا والرَّوضةَ خَنَّاء، فتنال الرِّيَّ، وتتعطف الزَّهر الجنيَّ. وهل شيء أحلى من الفكرة إذا استمرَّتْ وصادفت بهجًا مستقيًا، ومدخلًا قريبًا، وطريقة نقادًا، ونَبَّتْ هذا الغايةُ فيما تَرَت[3]»، وكأنما أراد أصحاب الفرزدق.

ولقد رغبت مرة في أن أتبين حقيقة هذه الدعوى، فكتبتُ لتلاميذي[4]، غير متكلف، هاتين الجملتين:

- جاء أخوك الذي رأيته عندك مسرعًا على رغم مرضه إلينا
- على رغم مرضه جاء إلينا مسرعًا أخوك الذي رأيته عندك.

ثم أخبرتهم أني لم أره بعض العجب على رغم أنه أُلِفَ الفكرة، بل استهال بعضهم، ثم سألتهم أيتهن أسهل (أوضح)، وأيتهما أصعب (أغمض)؟ فاختلفوا، غير أني رضي له بما علم منهم - وكنا لأكثر - رأينا الأخيرة أسهل

إنما سكتُّ في الجملة الأولى لتفهم المعنى بمراده، وإنما أطلتُ كما سكتُّه في الجملة الأخيرة، وإن اتفقت بينهما الكناية؛ إذ تطلب الفائدة في غير موطنها، حتى إذا ما خاب مسعاك، طلبتَها في موطنها، ولكن بعد فوات الأوان!

ولم تكن صعوبة الجملة الأولى إلا من ضعف الترتيب الذي هو أحد أعمال الفِكْر، ولا سهولة الجملة الأخيرة إلا من قوة الترتيب التي هي أحد أعمال المَخْزِل.

وقد كان فيما سبق من تفريق الأعوان بين الركاكة والسهولة (الوضوح)، وجمع الطرابلسي بين السهولة والجزالة، وكلاهما تنبيه على تعلق الصعوبة (الغموض) بالركاكة - بيانٌ طرف مما اشتمل عليه المستودَع. ولكن الخالفين الذين جعلوا الفرزدق «يَنُوءُ بِي صَخْرٌ»، وجريرا «يَخِرُّ مِنْ بَخْرٍ» - ملأوا الجزالة من صعوبة الصخر، والسهولة من سلاسة الماء، حتى استحال لدى كثير من الدارسين، لأمرٍ ما، تصاوت الجزالة والصعوبة شيئًا واحدا، والسهولة شيئًا آخر[٣٠]. بل قد وجدتُ بعض نُقّاد الشعر المعاصرين يبدو تُقْدَةٌ بالسخرية من نفسه قائلًا:

لكنني نَظَمْتُ لُؤْلُؤَةً في سِباتِهِ	وَهْيَ الرَّكَاكَةُ أَمْرٌ غيرُ مُحْتَمِلِ (!)
لا أنتَ تَعْبَأُ بِي فَتَرْكُبَه	أَوْ أَنتَ تَنْبُذُه جَزْلًا بِنَ الجَبَلِ[٣١]

ولم تكن مقابلة الجزالة بالرقة[٣٢] إلا أخذا فيما سبق، ولكنها أُخِذَتْ بمقابلة الأعراضي قال ابن الأثير في ألفاظ «الجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك. وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك»[٣٣]. فلم يصير الجزالة من الرقة بأوضاع النظم كما علمت الجرجاني بين مُطِّرِ الأغراض، وهذا من إهمال الواجب الذي استمرَّ في المقالين[٣٤]. وقد جعل منهم بعدم استيعاب مقالات البلاغيين من قبله، وباضطراب تصور مسائل علوم البلاغة من جراء ذلك[٣٥].

ولقد سبق لنا أن حرَّرنا عند القدماء أصحاب المصطلح، الفئة الجزالة والسهولة والرقة حين تكون هذه نعتًا، وعراق الجزالة والرقة حين تكون هذه شعبًا - بما يمتد هذه الدعوى الثانية.

[٢٢] الدعوى الثالثة: أن التجزيل حُكْمٌ انطباعيٌّ (ذوقيٌّ).

في الباب الخامس من كتاب «الأسلوب»[٣٦] درس الأستاذ الشايب «صفات الأسلوب» التي كانت عنده ثلاثًا أصولًا: الوضوح، والقوة، والجمال[٣٧]، ثم لم يعد منها الجزالة فجاء كلامه قديم الباطن حديث الظاهر؛ فأشار عليه نقادًا صنعتهم المفارقة العجيبة؛ «فالأسلوب عنده - من حيث هو سمة للإبداع الأدبي - خاضع لرسوم

البلاغة التقليدية إلى حد كبير، بل إنه خاضع لهذه الرسوم خضوعًا تامًا رغم العبارات المشتبهة بالعصرية التي عبرت عن ذلك، أما من حيث هو مطلب للنقد الأدبي فلا مدرك له إلا الانفصال ولا سبيل إلى وصفه إلا هذه الكلمات الانطباعية الخالصة[٢٠٠]. ومنها أخرى[٢٠١]: «وهي عبارات لا يمكن أن تخرج منها بتحديد واضح ملموس يؤكد مفهوم الرجل للأسلوب وخصائصه»[٢٠٢].

لقد أقبل أولئك النقاد على كتاب «الأسلوب» وقدّروا أن يُعَلِّمَهُمْ بِيَسِّ النِّظام استنباط كل النصوص وملامح المجموعة الصادعة للنظام، ناقدٌ ملحود بشروط منهج النقد الأدبي الحديث التي تؤصّل المقولات النقد في نظرية العلم؛ فحشروا بأديب قديمٍ مُتَأَدٍّ يلوك مقولات بلاغية بائدة من مثل «الجرجاني» قرارة لا قدرة له على رؤيته، كقرار سلفه بقوله: «إنَّ مِنَ الأشياء أشياءَ تُحيطُ بها المَعرفةُ، ولا تُؤدّيها الصِّفَةُ»[٢٠٣] أو بقوله: «ما يختارُهُ النّاقِدُ الحاذِقُ قد يتّفِقُ فيه ما لَوْ شِئتَ عَنْ سَبَبِ اختيارِهِ إبانَهُ وعَنِ الدَّلالَةِ عَلَيْهِ، لَمْ يُمْكِنْهُ الجَوابُ إلّا أنْ يَقولَ: هكذا قَضِيَّةُ طَبْعي»[٢٠٤]، واستطالةً بما لا يعنيه، كاستطالة سلفه بقوله:

عَزَّ عِلْمُ الأَدِيبِ أَنْ يَتَرَقَّى ... عالِمًا جانِبًا مِنَ الحَدَثانِ[٢٠٥]

وإلا على نمط من تفسير نصوص الأدباء من مثل «تجريل الألفاظ» تتجلى فيه هذه الخصال المضادات للحدوث:

١ أنه يخصّ صاحبه ولا يتعلّم منه.

٢ أنه يُحيل مخالفته على سحر واسع، إلى ما ربما ناقضه.

٣ أنه لا يمكن اختباره أصلًا.

٤ أنه لا يمكن تخطيئه هو أو غيره مما على نمطه.

ينبغي أن يُضاف — إتمامًا لاستقام لصاحبه — إلى نصوص الفن، لا إلى أعمال العلم[٢٠٦].

وعلى رغم ما ذهب إليه باحثون في مسائل علم النص، من دقة أحكام التجنيس وجودة عمل عقول الواحديين «الطرائف»[٢٠٧]، وفي نظرية الأدب من تكامل أحكام النوع وأحكام الاستنتاج المعين[٢٠٨]، وفي علم الأسلوب، من دقة أحكام ذوق الخبير[٢٠٩] — كذلك عبد القاهر الجرجاني في سبيل موازنة اقتصار بعض تجريل الكلام على أحكام أذواقهم؛ إذ كان وهو ابن القرن الهجري الخامس، ممن يؤمنون برجوع تلك الأحكام إلى أوضاع نظم الكلام — فانتفضت لتهيمن التجريل بذلك، سالٌ من علم استيعاب مقولات البلاغيين السابقين، كحال ابن الأثير الآتية

[٢٣] أَلَذَّ فوى الرَّبيعةُ أنَّ بِشْرًا عبدُ الحَدائِقِ

إن تنسَ فلا أنسى القدماء العباقرة بتقديسهم، وتحذيرهم بحذائهم، ولكن لما كان بين المعاصرين من هؤلاء أو أولئك حل وغير معاصر جنبًا من يجنح إلى الماضي ويعمل له، ومن يشتغل بالحاضر ويعمل له، ومن يطمح إلى المستقبل ويعمل له - لنسمّي أولئكم قديمين، وهؤلاء حداثيين، وآخرهم مستقبليين، حتى إذا ما خلف عصرٌ عصرًا، استمسك القديمُ الآخر بالقديمِ والحداثيّ الأولين سلفه واطّرح غيرهما، واستمسك الحداثيُّ الآخر بالمستقبلِ الأول واطّرح غيره، وبقي المستقبلي الآخر مُبْتًا لا سلف له.

ولم يحدم أمرُ الجرائة عند المحدثين المعاصرين، ذلك الطوائفَ الثلاث، فقد انتهوا لعربية وقد اتسعت فيها بين اللغة واللهجة، فُوَّةٌ في التطور، خيّلت لهم شُبْحًا قادمًا في وحم الغيب.

أما القديميون الذين قصروا الجرائة على القدماء، فأثاروا غبارهم بن الحديث عن «ذَيْكَ الدَّوْحِ الكَثِيرِ» التي أحدثها الصرح الشعرين والتدمر الذهبي كلاهما، فحرمت العربية الصدق، وعاقتها عن التطور، وشغلت اللغويين عن مباحث مفيدة في دقة العبارات، وفي اختلاف الصيغ لتشابه الظاهر، وإلى الحديث عن عجز مقولات النحو القديمة - وما الجرائة فيما رأيت، إلا إحداها - عن استيضاح الشاط اللغوي، وأن «كل ما صنعه باحث عظيم في القرن الخامس (الجرجانيّ)» هو أنه أحد يطبق هذه النظرية أو يطبق المقولات النحوية المتعارفة، تطبيقًا يسم عن ذكاء، وإلى الحديث عن الأعراب صانع العام، وفقيه «اللاتينية» الجديد، وعميد النحو القديم حل النحو الحديث، وإلى الحديث عن مشكلة الفصاحة التي كان ينبغي أن تكون عون حل المشكلات اللغوية، فجعلها «أهلُ الصَّعيدِ النحويّ» أعقدها، وإلى الحديث عن وخامة عاقبة الجرائة، فيما قصت نحوي طوقان من آثار الإجزال الذي حملت عليه أستاذها وأخوه إبراهيمُ الشاعرُ الكبيرُ، قائلةً «لقد سبا وتضخم اعتزامي بالتركيب القديم للعبارة الشعرية إلى حد كانت المكاري ومشاعري تنصرف معه عن التجربة الخلقية، إلى الاهتمام بتركيب العبارات وانتقاء الكلمات ذات الطنين والدوي.

وَلِي مِنْكُمْ قَلْبٌ قَرِيبٌ شَعَاعُهُ ... لَدَى سَلَبَتْهُ بَسْمَةٌ وَمُسَيْحٌ بِي فَاكْتَئِبِ

مَلِيحٌ إِذَا اسْتَهْلَلْتُ فِي أُغْنِيَةٍ ... تَحَامَلَ ثُمَّ انْكَبَّ مِنْ أَلَمِ الكَتْبِ

فَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ بُكَائِي لَيَالِيَا ... بُكَائِي مَا أَشْبَهْتُ قَلْبِي مَثَلَ قَلْبِي

سَلَامٌ عَلَيْهِ إِذْ يَمُوتُ صَبِيحَةً ... وَإِذْ أَنْتُمُ لَاهُونَ عَنْ قَلْبِيَ الصَّبِّ

( ) كل هذه كانت أحلام شاعر يتعب دون الحركة والتدفق والانطلاق بعفوية وصدق خلال عملية النظم. كنت أحس التصنع يدب في ثنايا أشعاري وينتصب بي صفة الجفاف والبيوسة. ولم أكن أعرف كيف أبحث في قصيدتي النُّسغ المفقود، ولا من أين أستمده. كنت أنحت من صخر فعلاً، وكان هناك شيء يكبل الجيشان العاطفي في داخلي، ويحول دون جريان التيار النفسي في قصيدتي بسهولة ويسر، ولم أهتد إلى أصالتي إلا يوم هداني الدكتور مندور إلى أدب المهجر)[١٣٥].

وأما الحداثيون الذين عدوا الأصالة واستمسكوا - أو كادوا - بالركاكة التي اتَّسموا بها وحُسبوا فيها[١٣٦] فأشاروا إلى الحديث عنها في مصطلح «الحداثة» من قبيل نفي ما من الضياع، وما في مصطلح «القدامة»[١٣٧] من مجاهدة لذلك الضياع[١٣٨]، وإلى الحديث عنها بمعنى به حل الكلام، أطراحُ الفصاحة، من ضعف وسهولة، وأنه «صحيح أن (الفصاحة) وحدها لا تصنع فناً، ولكن البعد عن الفصاحة - بدون صفة أخرى في الكلام - هو من النقص أيضاً»[١٣٩]، وإلى الحديث عنها في استبدال فصاحة حديثة، بفصاحة قديمة، من مرقى إذا انفتح بابها لم يُقرَّ لتعريبه قرار[١٤٠]، وإلى الحديث عنها في أخذ مادة شعره من عالم الحياة العادية المكررة المبتذلة، ثم وصلها «باللغة التي كانت تصف بعض الآراء دون أن تفقد بهاءها ورفعتها»[١٤١]، وإلى الحديث عن وخامة عالية الركاكة، فيما وجد الحساني حسن عبد الله في مثل قول نزار قباني:

«هذا الإثم
جميلة بوحيرد
تحرق الزنزانة بصوتها
مثل الشجر الخريفي يتعرى
وهو الغمر الثاني وحيدا
مثل تمثال من الشمع
وهو الشعر العربي الأسود
كالضيف تحت الأمطار
يسرق بالماء وسجان
ويمد تحت الفرات
وهو امرأة في ضوء الصبح
تتمرجح في مثل البرج
كأياب محرمة الإزار
تلبس سورة (مريم) و(الفتح)»

من آثار الإزكاك «سها الناشر غير المفيد وسها ركاكة اللغة، كاضطراره إلى قطع همزة الوصل في كلمة (الإسم)، واستعمال الواو في قوله (وامرأة في ضوء الصبح)، يريد أن يبدعنا بما يغرابه بسطر كأنما يراه فجأة، ناسيا أنه حدث من قبل عن أنثى تسمى حياة بها عيان وشعر وبدان (...) ومنها كذب الشعور (...) ومنها وقاحة شاعره في الشعر عن كله (...) أعني الفصل لغير ضرورة في كثير من الأحيان بين أجزاء لا تقبل الانفصال، كالمبتدأ والخبر، والفعل والفاعل، والجار والمجرور، والمضاف إليه، ومثاله هنا وضعه كلمة (الإسم) في سطر و(حرية) في سطر»[٣٠]

وأما المستقبليون الذين رفضوا الخرافة والركاكة حيثما هما، بدعوتهم إلى تحرير نظام اللغة والتفكير، فانظر إلى ما لا يتأتى فيه لأحد تجريمٌ ولا تركيكٌ[٣١]، فأثاروا غبرهم بن الحديث عن علاقة الاستمساك بالأصول بالاستمساك بالحضارة، وعن أن موقف الكاتب العربي المعاصر من اللغة (الفصيحة) جزء من الظاهرة الأسلوبية عنده، وعن لزوم الإطار الحضاري[٣٢] للحديث عن أن اطراح الفكر القديم بما فيه من آثار اللغة والتفكير القديمين، ينقص من إنسانية الإنسان ويجذب من حياته ويطرح من بصيرته[٣٣]، وإلى الحديث عن انسجام نظام بناء وتفكيرنا العربي الخصب، بتجاوب أوتاره المستقبلين التي ظلت مفرقة منه[٣٤]، وإلى الحديث فيما تنشره الصحف دون رقابة، عن اختراق لقواعد اللغة الأولية، أقربُ إلى لعب الصبية منه بين اللغة النظرية الحديثة[٣٥]

إنه لو صح انحصار الركاكة عن المحدثين دون القدماء، لصح انحصار الخرافة أحرى القدماء دون المحدثين، فلما لم يصح ذلك، كما سبق أن ذكرت عن الجاحظ في قوله «من الكلام المنزَّل والشعيمُ، و لكيحُ والحَسَنُ، والقبيحُ والسَّمِجُ، و لجيدُ والرَّديءُ، وكلُّهُ عربيٌّ»[٣٦] - لم يصح هنا

ثم لا حيلة ولا بدء للقدامة إلا لحظ من خلتين، ما ولتك الثلاثة (القدميين والحداثيين، والمستقبليين) حيثما هما، على ألا يعمل بشرها عن تكاملهم، وإن بدوا متناقضين؛ فالحاضر بين الماضي، والمستقبل بين الماضي والحاضر جميعا، ثم هو أمل الماضي، كما كان الحاضر أمل الماضي - ولا عن الشك الذي يتظلمهم في حقد القدامة واحدة وإن بدو مختلفين؛ فلا انتساب بقدامة يحيث يقال عربية أو عجمية، حتى تسلم في أصول نظام اللغة والتفكير، مُتَنَمِّرةً في الماضي والحاضر إلى المستقبل، وما هذه الأصول إلا منهج أعمال ناظم الكلام (إبدال الكلام المجملة والجمل المفسرة والعشر للنص والنصوص للكتاب، وترتيبها والخلف منها، والإضافة إليها) التي تجترئها لوثيرلو فيدل على مبلغ اجتهاد

[٣٤] يبدو البحث بقدره، في أمر الجزالة (سمة الشعر العربي القديم) والإجزال (إخراج الشعر العربي القديم على هذه السمة) والتجزيل (الحكم على الشعر العربي القديم بهذه الصفة) وأمر الركاكة (ضد الجزالة) والإركاك (ضد الإجزال) والتركيك (ضد التجزيل)، أكثر منه في أمر المقلة سمةً وإخراجًا وحكمًا، حتى إنا ما مضى فيه بين، اطلع على أن تلك الأمور الثلاثة أمر واحد

لقد بلغ أمر المقلة التي تُلقَّب بها عدي بن رقيعة التميمي الشاعر العربي القديم من الغموض، أن اتخذت سمة قَدْح مرة وصفة قَدْح أخرى، وأن النبست كميات القدح والمدح متناميةً وكأنها روحي قياسٌ بعضها إلى بعض، وأنْ سعدت اللغةُ على ذلك

ولقد يسرت قطعة عدي التي اختارها أبو تمام لباب المراثي من ديوان الحماسة، السبيلَ إلى تحقيق أمر المقلة بتحقيق أمر الجزالة (وضدها الركاكة) التي ذكرها المرزوقي شارح الديوان، في أبواب عمود الشعر العربي القديم التي ابتنى عليها الاختيار، فاتضح وقوعُ مقلة مهلهل بيتين من قدح فيه بما قد عدها من الركاكة، ومن مدحه بما قد عدها من الجزالة

ولما كان المرزوقي قد ترك شرح أمر الجزالة (وضدها الركاكة)، وكان عبد القاهر الجرجاني قد أتى على المحدثين الذين المرزوقيُّ واحدٌ منهم، استدعانا هم مصطلح القدماء (جزالة الألفاظ) دون تحمُّل تكاليف الثلاثة جمع معناهُ وجِلْم لَزَبِيد وجِلْم تفسيره، أي أن يجهدوا أمرَ تلك المزيَّة ساتبعي لنا في أمر الجزالة والركاكة:

أولًا: أن يبحث عند القدماء لدى الجرجاني البعيدي القدم بيتًا، ولاسيما ما استوعبه هو منهم.

ثانيًا: أن يبحث عند من استوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا القائلين لديه جميعًا منّ

ثالثًا: أن يبحث عند من لم يستوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا القائلين لديه جميعًا منّ

حتى إذا ما استجلى أمرهما انجلى أمر المقلة

ولقد اتضح أن الجزالة ومثلها المقلة المدح (الحظة)، والركاكة ومثلها ضئيلة القدح (السخف) عند القدماء، صفتان تحويان في نظم الكلام إبدالًا وتربيا وحذفًا وإضافة، تستبهان على من يستوضحهما في غير سحر الكلام، تكون الأولى متى انتظم قويًا كالجبل المشدود لا يتيح مستوعبه أن يقول لو كان كذا مكان كذا لكان أفضل، وتكون الأخرى متى انتظم ضعيفًا كالجبل المُرخى يتيح لمستوعبه أن يقول ذلك، وشاهد الحكم المؤسسة المسوَّغة بين نظمَيْ كلامين مختلفين، أو بين نظمي الكلام نفسه، السالم والمغير

ثم اتضح استيعاب قلة من المحدثين، كابن رشيق والقرطاجني والأهواني والعزيمي، من أمر الجزالة (وضدها الركاكة) عند القدماء ومدلولها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه الجرجاني في ذلك على نحو نصوص ثم واضحة

ثم اتضح عدم استيعاب كثرة من المحدثين، من أمر الجزالة (وضدها الركاكة) عند القدماء ومدلولها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه الجرجاني، استعصمت على المحاورة أسبابُهم؛ فجمعتهم دعاوى أربحُ أقوالها وأكذبُ

الأولى: أنَّ الجَزالَةَ وَالرَّكاكَةَ من صِفاتِ الكَلِمَةِ المُنْفَرِدَةِ.

الثانية: أنَّ الجَزالَةَ ضِدُّ السُّهولَةِ والرِّقَّةِ.

الثالثة: أن التَّجويدَ حُكْمٌ انطباعيٌّ (ذوقيٌّ)

الرابعة: أن الجزالة ضِدُّ الحَداثَةِ

(٣٥) ومهما ذكرتُ ما تيسرت لي دراسته، لم أطرح بأن يمسي الفتوى بنزع أمر المُنْهَكَة، فَرْقَ ما بين شعر مُهَلْهِل وشعر غيره المحمول عليه المنحول إليه، ثم فَرْقَ ما بين شعره وشعر من قبله وشعر من بعده (موعدي في مقدمة هذا البحث)!

وإني لأرجو أن أفي في إنجاز هذه الموعدة ببحثًا تاليًا أو أكثر، والله المستعان

حواشي الفصل الثاني

١ العرب: ١٩ والقوال: ١١٣ وقد أشار إلى الاختلاف في سنة مولده بين ٥١٠، و٥١٨ و ٥٢٣ و٥٣١ م.

٢ الفاخر: ٤٣ = ٨٣.

٣ السابق: ٨٣

٤ السابق: ٩٩ = ٤٤

٥ ابن دريد: ٣٣٨، وبديع الزمان ٩٦

٦ ابن سلام: ١ / ٣٩

٧ المرزباني: ٩٤

٨ ابن منظور: عمل.

٩ المرزباني: ٩٤

١٠ ابن قتيبة: ١ / ٢٩٧

١١ الغاني: ٢١ ١٢٩، وإن غض إبقاءه الشعر عند ابن قتيبة بالغاني في قراءته على ابن أحمد والبغدادي: ٢ / ١٦٤

١٢ الأصبهاني: ٥ / ١٧٠١، وفيه «أغنى» بالبناء للمجهول، ومثال المفاعيل = إن شاء الله = هو الصواب؛ فمن غُنِي في شعرهم من العرب لا يخفون قدرة، وبالأعاريض سمه شاعر، فأما من غنوا هم في شعرهم هم، فقليل. وقد يقوى رأيا نسبةً من نسب صنعة مولدين إلى حسن صوته فيما ذكر قارئ ٥٩

١٣ ابن منظور: وقن.

١٤ الزوزني: ١ / ٩٣

١٥ ابن منظور: خضب. وقد قال [illegible] فلانة عندي أنا لا نخاصب الشعر من نفسه ما لا نريده فأما قوله [illegible] فإنما يعاتب صاحب الشعر نفسه في خلال كلامه ما لا يريده

١٦ المرزباني: ١٦٩

١٧ ابن منظور: عمل

١٨ المرزباني: ٩٥

١٩ السابق نفسه

٢٠ أبو تمام: ٢١ ٢٨٤ = ٩٩٥

٢١ العرب: ٤٤

٢٢ القوال: ٤٢

٢٣ المرزباني: ١ / ٩

٣٤ الجاحظ ١/ ١٤٤

٣٥ ثعلب، ٦٣

٣٦ الأصفهاني ٢٥/ ٨٦٧٥، ٢٧/ ٩٠٤٣

٣٧ الآمدي ١/ ٤٢١

٣٨ المرتضى ١٦/ ١٩٨

٣٩ العسكري، ١٥٥، وكذلك الطائي، ٥ ـ ٦

٤٠ ابن منظور، مزله

٤١ السابق، وكذلك

٤٢ الجاحظ ١/ ١٤٤

٤٣ روى بالتشريطي ابنُ دريد، ٦١، أنه إنما سمي مهلهلاً لقوله:

لَمْ تَرَقَّقْ فِي الكُرَامِ عَجِيزَتُهُم عَلَهلَكَ أَثَارَ مالِكًا أَوْ عَبِيدَا

وكذلك صنع البغدادي، ٢/ ١٦٥، وابن منظور، هلل، والقوال، ٨، وغيرهم، وهو من أبيات حرب ٨، من شعراء (بني مرة الذي خرج بكرا وتغلب يأبطها اسمه (الذي كاد) أو (الذي كاد يثأر)) ٨، سوى أن يكون لقبه تسمية، ولا سيما أن من معانيه السِّر، فيكون سم أعدائه، على ما كان العرب يرغبون لأسماء أبنائهم أن تكون

وليس يمتنع... على رجاحة النقد أن يكون عدىٌّ ابتدع الفعل (عدول) في القافية، فضل عما من عدى الشعراء، أو ابتدع دوره في الشعر، فسموه به

ومن الطريف قول المرزباني، ٥٩ «قال إن (عدي بن ربيعة) وهو شاعر بني تغلب لأشهره ما لقب بالمهلهل إلا لحسن صوته، على أن كتابا آخرين يقدمون أسبابا أخرى لاشتهاره بهذه الصفة».

٣٤ المرزباني، ١/ ٩

٣٥ الجرجاني، ٤٩٦

٣٦ محمود ٤٩٧ ـ ٤٩٨

٣٧ ناصف، ١٣٩ ـ ١٤٠، ١٤١ ـ ١٤٢، ١٨٥ ـ ١٨٦

٣٨ الجرجاني، ٢٢

٣٩ شوقي، ١٦ ـ ١٦١

٤٠ الجرجاني، ٨١،

٤١ السابق، ٨٢

٤٢ السابق، ٩٨

٤٣ الجرجاني، ٦٣ ـ ٦٤، ومع رغم ذلك فإنه الأستاذ الشاب يقول بأسلوبي لفظي ومعنوي، فيرى الدكتور عياد ١٩، فإنه لفظي: «وضع الأستاذ الشاب لقضية اللفظ والمعنى يتجاوز كل ما كتبه

عبد القاهر حول هذا الموضوع؟ فلم يذهب عبد القاهر بعد إلى حشر ثمرة الأستاذ الشايب إن هناك أسلوبًا معنويًا، وأسلوبًا لفظيًا يتكون على مثاله. ولا شك أن هذا تبسيط شديد للعلاقة بين الفكرة والفكر، ولكن الإجماع منعقد بين الباحثين في اللغة والأدب و لأثر برولو جيا وعلم النفس، على أن العلاقة بين اللغة والفكر لا تتم من جانب واحد يمكن أن يعد أحدهما أصلًا والآخر صورة له»

44 المعتزلي، ١٦/ ١٩٧؛ والآمدي، ١/ ٢٣٩؛ والبرقوقي، ١/ ٧؛ وابن طباطبا، ٦

45 الجرجاني، ٣٦

46 ابن منظور، جزل، ورشق.

47 السابق، جزل.

48 الأصفهاني، ٢٧/ ٩٤٣

49 الجرجاني، ٨١، ٨٢. وعن أطراف الالتفات، كما أوضح عبد اللطيف، ٤٧ ج، نقلا عن جفري ليتش، «ألا نخرج أقسام القواعد التحويلية التي تتحول بها بنية الجملة الداخلية إلى بنيتها الخارجية عند التحويليين التحويليين عن أقسام أشكال الكلام التي وجدناها في تفصيل الجرجاني. وأيا كان ذلك من أمر فإن التي بها البنية الداخلية في أصلها

50 السابق، ١٣٧

51 ابن سنان، ١٥٩

52 ابن منظور، خلع

53 للجاحظ، ١٩٨١، قد ذكر من عيوب العروض «التخليع» أي الإفراط في الزحاف الذي يخرجه النص عن باب الشعر الذي يعرف السامع وزنه في أول وهلة، دون ما ينكره، حتى ينعم دوقه، أو يعرضه على العروض فيصح فيه، فإن ما جرى هذا المجرى ناقص الطلاوة، قليل الحلاوة، وقد أجاد ابن رشيق في شدة إدراكه الكلام من التخليع، فاستخرجه بتدبر من العروض، على طريقة علماء القدماء أنفسهم الذاهبة على تعداد أصول تفكيرهم وأصالة صنعهم فيما استنبطوا من العلوم الخالصة لهم.

54 الآمدي، ١/ ٦، ٥٧، ٤٢٩، والقرطاجني، ٣٧٦، ومصطفى، ٤٩، ١٠٥، وصقر، ٣٩٠ ٤٢

55 الصفحة ٢٥٢، فقد قال: «جاء عبد القاهر فكتب كتابًا خلاصته: إذا أريد لدراسة الأدب أن تبلغ درجة من النضج، فلا بد من إقامة رابطة بينها وبين المسائل النحوية المتعلقة بنظام الكلمات أو تركيب العبارات. في النحو يمكن أن ينشأ فصل مهم في علم الأدب. هذه القصة البسيطة التي عرضنا قواعدها بحث ذكي في القرن الخامس، من التأمل في الاحتمالات التحويلية يمكن أن يجتمع الباب أمام خبرة ألوى بالشعر. وإن مستطيع أن نفهم الشعر ما لم نستطع أن نحرر دراسة النحو بحيث نفيدنا في توضيح لغة الشعر التي غدت توصف وصفًا مبهمًا في الكتابين المتقدمين اللذين كتبهما الآمدي والقاضي الجرجاني. كان الآمدي و لجرجاني يتحدثان عن فرة الألفاظ. وما من ناقد معرض لشعر قبل أن يقف

إلى هذه الخاصية، لكن قوة الألفاظ ظلت عبارة مبهمة أو بالأحرى مغلقة؛ فكيف يمكن أن نعرف ما نسميه باسم قوة الألفاظ وفاعليتها؟ لابد لنا أن نستعين بالسحر الذي هو روح اللغة ونظامها!!

ولم تكن قوة الألفاظ عند عبد القاهر الجرجاني إلا إعجاز التعبير ولا كان الآمدي وعلي الجرجاني إلا بعض المحدثين.

٥٦ الجاحظ ١/ ١٤٤

٥٧ فندريس ١٩٥، وأولمان ١٩٩ ٢٠٠، ويوسف ١٩٨ ١٩٩، ٢٣١ ـ ٢٣٢، والوعر ٨٠ ـ ٨٢، والعيد ١٢٠

٥٨ الأصفهاني ٢٣/ ٨١٧٦

٥٩ ابن رشيق ١/ ١٢٩ ١٣٠

٦٠ السابق ١/ ١٢٤

٦١ السابق ١/ ١٢٥

٦٢ السابق ١/ ١٢٦

٦٣ السابق ١/ ١٢٥

٦٤ السابق ١/ ٩٣

٦٥ القرطاجني ٢٢٥

٦٦ ابن منظور سلك

٦٧ القرطاجني ٢٢٤

٦٨ الجاحظ ١/ ١٤٤، وكذلك الخفاجي ٣٢ ـ ٣٣، ٨٢.

٦٩ ابن طباطبا ٨ ـ ٩

٧٠ الجرجاني ٦

٧١ الأعواني ٤١، ٤٢، ٤٣

٧٢ ابن أبي الإصبع ٤١٠

٧٣ الحلي ١٣٤ ولقد وقفت مرة في خلال تدريسي لعلم عروض شعر اللغة العربية أن أسطر إلى أمثلة من شعر اللهجة العربية المصرية، دلالة على علاقتها، فذكرت ذلك الأستاذ محمود محمد شاكر ـ رحمه الله ـ فزجرني عنه شديدًا

٧٤ الأعواني ٤٤

٧٥ السابق ٤٣

٧٦ الطرابلسي ٢٢٥.

٧٧ السابق نفسه

٧٨ السابق ٢٢٦

٧٩ السابق ٣٣٠

٨٠ الجرجاني، ٧٢

٨١ ابن عاشور ٢٨

٨٢ الزوزني، ١/٩،

٨٣ البرقوقي، ٣٧

٨٤ السابق، ٢٤

٨٥ ابن عاشور ٢٨ـ ٣١، ٤٠ـ ٤٢

٨٦ الجرجاني ٥٩

٨٧ ابن عاشور ٦٤، ٦٥

٨٨ البابرتي ١٤٣ من هؤلاء المحدثين أساتذة وزملاء متخصصون، يقومون بأقسام اللغة العربية، لا بأس باستفيد من محاورتهم.

٨٩ الأصفهاني، ٢٥/ ٨٦٧٥ـ ٨٦٧٦.

٩٠ الآمدي: ١/ ٥٠ فقد أعرض الشيخ عن التصريح بمن يقدم من الطائيين، إذ ليس فيه إلا التعرض لتقدم أحد الفريقين: الأصحاب أو الخصوم

٩١ المرزباني ١٦٣

٩٢ محمد (القاسم) المقدمة

٩٣ خليل: ٢٢٥ـ ٢٢٨،

٩٤ الجرجاني، ١٥٧

٩٥ كانوا سنة ٢٠٠١ م، في تصانيفهم الأخير يقسم الفلفة العربية من كلية التربية، يدرسون طلب بنظيره من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، بجامعة السلطان قابوس، مقرر النصوص والمدونات نحوية.

٩٦ شيخ: ١٧ـ ٢٨، وإبراهيم، ٩٥ـ ٩٧، ١٠١، و حسيني، ٢٥٣

٩٧ العريمي، ٢٧، ٣٨

٩٨ ابن الأثير ١/ ١٨٦، وابن عاشور ٦٤ـ ٦٦، وفصاب: ٢٠٢

٩٩ ابن الأثير ١/ ١٨٦

١٠٠ ابن عاشور ٦٤ـ ٦٦، وفصاب، ٢٠٢، وعبد المطلب، ١٩٢ـ ١٩٣،

١٠١ شيخ: ٢٣٤ـ ٢٣٥

١٠٢ الشايب، ١٨٥ـ ٢٠٢

١٠٣ عياد، ٣١

١٠٤ السابق نفسه

١٠٥ عبد الطلب ١١٢

١٠٦ الآمدي، ١/ ٤١٤

١٠٧ الفروزاني، ١/ ١٥، وفي غرسه عرد الفروزاني «بالطبع»، انتهى ابن عاشور، ٢٠، إلى مرادفة الذوق له، مستشهداً بما سماه أئمة الأدب يقولون «هذا يشهد به الذوق السليم والطبع المستقيم»

١٠٨ ابن عربي، ٦٧ وراجع ابن عاشور، ١٢٠ فقد روى عن السكاكي أن أستاذه الشاشي كان يعيبهم كثيراً إذ وأيصره في تحسينات الكلام على الذوق، ثم قال: «ونحن حيث عدنا من بحر في حدة شعب من علم الأدب»

١٠٩ شبلر، ١٣١ ـ ١٣٦

١١٠ داي، ٥٧

١١١ وبالمثل، ١٦٥ وقد قال شبلر نفسه في حقب وقفه على ما سماه التحليل الأسلوبي البدائي: «لا يعني رفضنا هذا الاتجاه أن الخطوة الأولى في التقويم النقدي بمعناه الواسع لا تحتل مكاناً في التفسير الأسلوبي الناضج، إن مثل هذا الجانب في داخل التفسير يتبعي توضيحه وعدم الاستغناء عنه بعد ذلك، وخاصة عند عدم وجود إمكانيات أخرى في التفسير أو الشرح، ويتبغي تحسينه أساساً أي تفسير من خلال مناهج التحليلية التي يمكن القيام بها» ١٣٢

١١٢ مصلوح، ٨٨

١١٣ يميل بعض النقدين المعاصرين إلى أن يسيروا المفهوم المنشئ، بالمنسوب إلى مصدره «مثاله الإسلامي»، متشائل بالإسلام الفاعل له، والجاري فيه على مورود عاداته، بالمنشئ من مصدره «مثاله مثلثة ـ اسم الفاعل ـ للسكتفي من الإسلام بما سمره» ولا بأس بهذا التعبير، إن أشكل عليها في «الاستقبال»، الركون إلى سعته

١١٤ وإن انتفى التلازم «استقبالاً»

١١٥ مثال يوسف إدريس في قول هيد طوبا في جيده من القصاصين وقد واليس القصيرين، «نحن جيل لا أساتذة له»، فقال، «إذن لم يعلموا»!

١١٦ الأحراني، ٦٣، وإسماعيل، ١٧٦ فقد بها على مشكلة اللغة للمفسر عند الحديثين الأوائل والأواخر

١١٧ ابن عاشور، ١٥، وقصاب، ٢١٠ ـ ٢٠٦

١١٨ ناصف، ٤٢، ٧٧، ١٣٢

١١٩ السابق، ٨٨، وإن به فيما بعد على أن منهج «جرجاني كان ثورة على تلك التقولات القديمة» واعتبر هذه تقاليد ـ ١٤٨ ـ «ليس من المصواب أو الشرف في شيء أن نطالب باحثاً ذكيّ في القرن الخامس، بما عجز عنه الدارسون حتى القرن الرابع عشر الهجري»، طالبًا اعتذاره عنه مدعوة الباحثين إلى استحداث مقولات لما يستحدثون من مناهج

١٢٠ بخاري، ٨٦ـ٨٧، ٨٨ـ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣ وكذلك عبد المطلب، ٣١٢

١٢١ الحمراوي، ١١ـ١٣، ٣٦ـ٣٧، ١٦١ـ١٦٢

١٢٢ طوقان، ٨٩، ٩٠، ٩١

١٢٣ قباني، ٣٤، ٤٤، ٤٦، وطوقان، ٨٨، ٩٣

١٢٤ نامعلوم، ٢٠ وكذلك بشر، ٣٤ـ٣٥، ٥٦ـ٥٩

١٢٥ عياد، ٨٤

١٢٦ بشر، ٧٨

١٢٧ حجازي، ٩٦

١٢٨ عبد الله، ١٦ـ١٩ ولا تخفى دلالة كلامه على أنه من أصحاب الدعوى الأولى المشار إليها في الفقرة العشرين

١٢٩ أدونيس، ١٣٥ـ١٣٦، وفراط، ٤٦ ولقد وضعت في تأصيل هذه الدعوة بحثاً باسمها، العسيرة أرجو أن يتاح لي نشره قريباً

١٣٠ عياد، ٧٢ـ٧٣، ١٠١ـ١٠٣

١٣١ محمد، ٣٠، رحلي، ١٢

١٣٢ بروح، ١٠٣ وبهذه النتيجة خرج بحثي المشار إليه في (١٢٩)

١٣٣ درويش، ٣٠٩ وكذلك الملائكة، ٣٣٢، لقد سخرت بمثل هذا، في شعلة «طفل الحجارة الدلال».

١٣٤ بلاسطة، ١/ ١٤٤

كتب الفصل الثاني

- الآمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر): «الموازنة بين أبي تمام والبحتري»، تحقيق السيد أحمد صقر، وطبعة دار المعارف بمصر، الرابعة.

إبراهيم (الدكتور شكري بركات): «دراسات في الشعر العباسي. 1 – البديع واللغة في الشعر العباسي الوسيط» طبعة سنة ١٩٩٤م ونشرة دار الثقافة العربية بالقاهرة

- ابن أبي الإصبع (المصري): «تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن»، قدم له وحققه الدكتور حفني محمد شرف، وطبعه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالجمهورية العربية المتحدة.

- ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري): «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، قدم له وحققه وعلق عليه الدكتور أحمد الحوفي وبدوي طبانه، ونشرته دار نهضة مصر بالقاهرة

ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن): «الاشتقاق»، حققه وشرحه الأستاذ عبد السلام هارون، وطبعته دار الجيل ببيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ=١٩٩١م.

- ابن رشيق (أبو علي الحسن الأزدي): «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده»، تحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد، وطبعة دار الجيل ببيروت، الخامسة سنة ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

ابن سلام (محمد الجمحي): «طبقات فحول الشعراء»، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر، وطبعه بالمدني بالقاهرة.

- ابن سنان (أبو محمد الخفاجي الحلبي): «سر الفصاحة»، تحقيق على نوعه الطبعة الثانية سنة ١٣٧٢هـ = ١٩٥٢م، نشرة الخانجي بالقاهرة.

ابن طباطبا (أبو الحسن محمد بن أحمد العلوي): «عيار الشعر»، حققه الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، وطبعته دار العلوم بالرياض سنة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

- ابن عاشور (محمد الطاهر): «شرح مقدمة الآمدية»، طبعته دار الكتاب بيروت سنة ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م، ونشرته دار الكتب الشرقية بتونس

ابن عربي (أبو عبد الله محي الدين بن علي الحاتمي الطائي الأندلسي): «ديوانه»، طبعته ببولاق بالقاهرة سنة ١٢٧١هـ ونشرته دار صادر ببغداد

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم): «الشعر والشعراء»، حققه وشرحه الأستاذ أحمد محمد شاكر، وطبعته دار المعارف بمصر

- ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم المصري): «لسان العرب»، طبعته دار المعارف بالقاهرة.

- أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي): «ديوان الحماسة»، طبعة السعادة الطبعة الثانية سنة ١٣٣٦هـ-١٩١٧م، ونشرة المكتبة الأزهرية بالقاهرة.
- أدونيس (علي أحمد سعيد): «زمن الشعر»، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣م، نشرته دار العودة ببيروت.
- إسماعيل (الدكتور عز الدين): «الشعر العربي المعاصر»، طبعة دار الكاتب بالقاهرة سنة ١٩٦٦م.
- الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي): «الأغاني»، حققه وأشرف عليه الأستاذ إبراهيم الإبياري، وطبعته دار الشعب بالقاهرة سنة ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م.
- الأهواني (الدكتور عبد العزيز): «بين صناعة بديعة ومشكلة العالم والابتكار في الشعر»، طبعة دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد، الثانية ١٩٨٦م.

أوزبرن (والتر. ج): «الشفاهية والكتابية»، ترجمة الدكتور حسن البنا عز الدين، ومراجعة الدكتور محمد عصفور، وطبعة مؤسسة دار السياسة بالكويت، العدد ١٨٢ من سلسلة عالم المعرفة، نشعبان ١٤١٤هـ = فبراير ١٩٩٤م، نشرة المجلس الوطني الكويتي.

- البابرتي (كمال الدين محمد بن محمد بن محمود بن أحمد): «شرح التلخيص»، درسه وحققه الدكتور محمد مصطفى رمضان صوفية، وطبع سنة ١٣٩٢ق.هـ = ١٩٨٣م، ونشرته منشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان بطرابلس ليبيا.
- البرقوقي (عبد الرحمن): «شرح التلخيص»، طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة، مصورة عن الطبعة الثانية سنة ١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م.
- بزيع (شوقي): حوار بكتاب الأستاذ جهاد فاضل «أسئلة الشعر» الذي نشرته الدار العربية بليبيا.
- البغدادي (عبد القادر بن عمر): «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب»، حققه وشرح شواهده الأستاذ عبد السلام هارون، وطبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨١م، ونشره الخانجي بالقاهرة.
- بشر (الدكتور كمال محمد): «العربية بين الرسم والفهم»، طبعة سنة ١٩٩٩م، ونشرة دار غريب بالقاهرة.
- ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى): «قواعد الشعر»، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب، ونشره الخانجي بالقاهرة سنة ١٩٩٥م.
- جابري (الدكتور محمد عابد): «تكوين العقل العربي (١) تكوين العقل العربي»، الطبعة السابعة في أكتوبر ١٩٩٨م، نشرة مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت.
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): «البيان والتبيين»، حققه الأستاذ عبد السلام هارون، وطبعته الهيئة المصرية العامة سنة ١٤١٥هـ = ١٩٨٥م.

- الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد النحوي):
«دلائل الإعجاز» قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، وطبعه بمطبعة المدني، ونشره الخانجي بالقاهرة.
«أسرار البلاغة»، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر وطبعه للمدني بالطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ = ١٩٩١م، ونشرته دار المدني بجدة. (والدلائل هو المقصود دائماً، فإن عرفتَ الأسرار بهتَّ عليه في أمر).
- حجازي (أحمد عبد المعطي حجازي): «الوسطة إلى أمل دنقل»، مقال بمجلة أدب ونقد التي تحررها هيئة التحرير، وطبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٩م.
- حرب (طلال): «ديوان مهلهل بن ربيعة»، طبعة الدار العالمية ببيروت سنة ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.
الحسيني (راشد بن حمد بن هاشل): «الوضع الخروجي عند بني خليفة حياته وشعره: دراسة موضوعية وفنية»، طبعة النهضة بسلطنة عمان، الأولى سنة ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.
- الحلبي (صبحي الدين): «العاطفة الخيالي والرخص الخيالي»، حققه الدكتور حسين نصار، وطبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الحمراوي (الدكتور محمد رشاد): «العربية والخيانة أو النصائح فصائح»، نشره المعهد القومي لعلوم التربية بتونس ١٩٨٢م.
- الخراط (إدوار): «ألفا والطابو» مقاطع من (سيرة ذاتية للكتابة) عن السلطة والحرية»، مقال بالعدد ٣ من المجلد ١١ لشهر ١٩٩٣ من مجلة فصول، الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الخفاجي (الدكتور محمد علي رزق): «ظاهرة الانتقال في اللغة والنقد»، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م، نشرة الدار الفنية بالقاهرة.
خليل (الدكتور حلمي): «العربية والعروض»، طبعة دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية الأولى سنة ١٩٨٨م.
- درويش (محمود): حوار بكتاب (الأستاذ جهاد فاضل «أسئلة الشعر» الباب الذكر
الرضي (محمد بن الحسن الإسترابادي النحوي): «شرح شافية ابن الحاجب»، تحقيق الأستاذة محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، وطبعة ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م، ونشرة دار الفكر العربي بالقاهرة.
- الشايب (أحمد): «الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية»، الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٨م، نشرة مكتبة النهضة المصرية.

- شينر (ريتا): «علم اللغة والنصوص الأدبية: دراسة الأسلوب والبلاغة»، علم اللغة النصي»، ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمود جاد الرب، وطبع لأول سنة ١٩٩١م، ونشرة الدار الفنية للنشر والتوزيع بالقاهرة.
- صقر (الدكتور أحمد جمال): «علاقة عروض الشعر ببنائه النحوي»، طبعة الأمل بالقاهرة، الأولى سنة ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.
- صمود (حمادي): «التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس: مشروع قراءة»، طبعة المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٨١م، ونشرة بالجامعة التونسية.
- ضيف (الدكتور شوقي): «البلاغة: تطور وتاريخ»، طبعة دار المعارف بالقاهرة، السادسة
- الطرابلسي (الدكتور محمد هادي): «خصائص الأسلوب في الشوقيات»، طبعة سنة ١٩٨١م، ونشرة بالجامعة التونسية.
- الطناحي (الدكتور محمود محمد): «ديوان المعاني لأبي هلال العسكري وفيه من التحليل والعروض والفهرسة»، بحث بالجزء الأول من المجلد السادس والستين من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، طبعة الصباح سنة ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.
- طوقان (قدوري): «الرحلة جبلية رحلة صعبة، سيرة ذاتية»، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٨م، نشرة دار الشروق بعمان الأردن.
- العيد (الدكتور محمد): «اللغة الشعرية وقضايا التجربة: بحث في النظرية»، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠م، نشرة دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع بالقاهرة
- عبد الله (الباسلي حسن): «صفحات مكتوبة النار»، الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٩٧٢م
- عبد اللطيف (الدكتور محمد حماسة): «الشعر والدلالة: مدخل إلى دراسة المعنى النحوي الدلالي»، طبعة دلتا الأولى، سنة ١٩٨٣م.

عبد المطلب (الدكتور محمد): «البلاغة والأسلوبية»، طبعة دار نوبار بالقاهرة سنة ١٩٩٠م، ونشرة مكتبة لبنان ببيروت والشركة المصرية العالمية (لونجمان)

- العريمي (سالم بن سعيد بن خميس): «حمأة الفشل»، قصيدة فائزة بجائزة التشجيع الأولى، منشورة بكتاب مهرجان الشعر العراقي الثاني، طبعة العالمية بسلطنة عمان، الأولى سنة ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.

العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل): «كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر»، تحقيق الأستاذين علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة، الثانية

علي (الدكتور بهجت): «حوار ببرنامج «بلا حدود» بقناة الجزيرة القطرية الفضائية www.aljazeera.net حلقة ٤/ ١/ ١٤٢٢هـ = ٢٩/ ٣/ ٢٠٠١م، ص١٢

- عياد (الدكتور شكري محمد): «اللغة والإبداع. مبادئ علم الأسلوب العربي»، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨م، نشرة إفريقيا الشرق برس

- فارمر (هنري جورج): «تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادي»، عربه وعلق حواشيه ونظم ملاحقه جرجيس فتح الله بندلي، ونشرته دار مكتبة الحياة ببيروت

- الفرجات (الدكتور عبده): «الشعراء الجاهليون الأوائل»، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٤م، نشرة دار الشرق ببيروت، وتوزيع المكتبة الشرقية ببيروت.

فندريس (جوزيف): «اللغة»، تعريب الأستاذين عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، طبعة سنة ١٩٥٠م، ونشرة مكتبة الأنجلو المصرية

- القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي): «الأمالي»، طبعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، الثانية، نشرة دار الجيل ودار الآفاق الجديدة ببيروت.

القاضي بسترى (عبد الجبار): «المغني في أبواب التوحيد والعدل»، نشرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر

- قباني (نزار توفيق): «الشعر تشكيل آخر»، الطبعة السادسة عشرة، ليتير ٢٠٠٠م، من منشورات نزار قباني ببيروت.

قصاب (الدكتور وليد): «قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم، ظهورها وتطورها». الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥م، نشرة مكتبة حديثة بعين الإمارات العربية المتحدة.

- القرطاجني (أبو الحسن حازم): «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، قدم له وحققه الأستاذ محمد الحبيب بن الخوجة، وطبعته دار الكتب الشرقية بتونس سنة ١٩٦٦م.

القرنفل (أنطوان حسن): «ديوان دعبل»، طبعة دار الجيل ببيروت، الأولى سنة ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.

ماي (روللو): «شجاعة الإبداع»، ترجمة الدكتور فؤاد كامل، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م، نشرة دار سعاد الصباح بالقاهرة

- محمد (السيد إبراهيم): «الضرورة الشعرية دراسة أسلوبية»، طبعة دار الأندلس ببيروت

- محمد (الدكتور محمد سيد): «الإعلام واللغة»، طبعة ١٩٨٤م، نشرة عالم الكتب بالقاهرة

- المرزباني (أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى): «الموشح مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر»، حققه الأستاذ علي محمد البجاوي، وطبعته دار النهضة العربي بالقاهرة.

- المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن): «شرح ديوان الحماسة»، حققه الأستاذان عبد أمين وعبد السلام هارون، وطبعته دار الجيل ببيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ = ١٩٩١م

- مصلوح (الدكتور سعد): «العربية من نحو (الجملة) إلى نحو (النص)»، بحث بالكتاب التذكاري «عبد السلام هارون، معلمًا ومؤلفًا ومحققًا»، الذي أعده الدكتوران وديعة طه النجم وعبده بدوي، نشرة سنة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- الملائكة (نازك): «قضايا الشعر المعاصر»، الطبعة السابعة سنة ١٩٨٣م، نشرة دار العلم للملايين ببيروت.
- ناصف (الدكتور مصطفى): «قراءة ثانية للبلاغة والأسلوبية»، نشرة النادي الأدبي الثقافي بجدة بالمملكة العربية السعودية الأخيرة سنة ١٤٠٩هـ - يناير ١٩٨٩م (كتاب رقم ٥٣).
- الوعر (الدكتور مازن): «دراسات لسانية تطبيقية»، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م، نشرة دار طلاس بدمشق.

ويليك (رينيه)، ووارين (أوستن): «نظرية الأدب»، ترجمة محيي الدين صبحي، ومراجعة الدكتور حسام الدين الخطيب، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٥م، نشرة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت.

- يوسف (الدكتور جمعة سيد): «سيكولوجية اللغة والمرض العقلي»، نشرة المجلس الوطني الكويتي يناير ١٩٩٠م (كتاب عالم المعرفة رقم ١٤٥).

الْفَصْلُ الثّالِثُ

بَيْنَ الْأَعْشَـــى وَجَـــرِيرٍ

مُوازَنَةٌ نَصّيَّةٌ نَحْوِيَّةٌ

مُقَدِّمَةٌ

شَرْحُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ

[1] تبدو في كتب شرح الكلام العربي أشبه بالنثريّ من كتب مسائله؛ فربما لم يستهوِ كتاب مثلي يبتهج بكتاب لغوي في شرح نصٍّ من الكلام العربي، نثرِه كان قرآنه وشعره ونثره، ولم يقطع لكتاب مثلي يقطع له، ولم يستوهب من مسائل علم النحو أنفسها، مثلي يستوهب ما يرد في خلاله.

ثم تبدو في كتب مجالس وأشباهها من كتب الأمالي، من مثل «مجالس ثعلب»، و«أمالي ابن الشجري»، وغيرها التي أنتجتها مجالس أصحاب لغة العلم ينظرون فيها كلما اقترحت في نصوص قصيرة خاصة أو مشكلة، مُحْضَرة أو مُقْتَرحة، ولا يتركونها حتى يشرحوا غُصَصَها أو يريحوا إشكالها، مستطردين إلى ما لا يقع بكتب مسائل علم النحو من الأشباه والنظائر والأضداد والأمثلة والشواهد. أخلص بأول إقبال ذلك النحويّ، وأدعى إلى تأمله، وأروح لقلبه؛ فربما لا يكاد يمل تأمل سطر من المسائل حتى ينشط لتأمل غيره.

ثم تبدو في كتب شرح الأمثال العربية القديمة، من مثل «الأمثال» للقاسم ابن سلام، و«مجمع الأمثال» للميداني، وغيرهما التي كانت على طريقة مواردها مقصورًا من الكلام العربي إلى قصيرة خاصة أو مشكلة. أخلق لدى ذلك النحويّ بكتب الأمثال قريب بحث في تراكيبها المطردة والشاذة عن مسائله النحوية، ووقف في الكتاب الواحد من الأمثال على أنماط مختلفة، ونظر فيها بما من جوامع وفوارق؛ فاطلع على طرف من موازنة أنماط الكلام المتزامنة.

ثم تبدو في كتب شرح النصوص الطويلة «القصائد»، من مثل «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» للأنباري، و«المعيث المسجم» للصفدي، وغيرهما التي تزاحمت فيها عقول الشراح عقول أصحابها سياسة الكلام العربي. أخلق لدى ذلك النحويّ بكتب شرح النصوص القصيرة «الأمثال» قريبًا هكذا منها على مسائل التراكيب الفنية الطويلة والتحريرات العلمية الدقيقة، حتى انتبه إلى فروق ما بين النصوص المتزامنة والمتعاقبة بعضها وبعض من جهة، وفروق ما بين الشروح المتزامنة والمتعاقبة بعضها وبعض من جهة أخرى، ووقف على أنماطها المختلفة؛ فاطلع على طرف آخر من موازنة أنماط الكلام المتزامنة والمتعاقبة.

مقالة أبي عمرو بن العلاء

[٢] وربما انتبه ذلك النحْويُّ من مقالات العلماء في شعر الطبقة الأولى من فحول الجاهليين (امرئ القيس، والنابغة، وزهير، والأعشى)، إلى مقالة أبي عمرو بن العلاء هذه التعيسة

«نَظِيرُهُ (الأعشى) في الإسلام جَرِيرٌ، وَنَظِيرُ النَّابِغَةِ الأَخْطَلُ، وَنَظِيرُ زُهَيْرٍ الفَرَزْدَقُ»!

- كي انتبهتُ، وأحسَّ ما قيمة بيت لسائر مقالات العلماء كما أحسستُ

ولكني على رغم حجري أولاً على فهم مشبه الأخطل بالنابغة إلا في النصرانية وحجبي آخراً من تشبيه الفرزدق المتعفِّر برهير المتمنِّع، لم أترك الخواطر التي بيني وبين خواطر أبي عمرو مثل ما بين الخير والمعيشة، أن تصرفني عن في مقالته على تقدم زمانها من الأفكار الجميلة التالية

١ تُفْضي عند العالم بالشعر ألا يغفل عن الحاضر اشتغالاً بالماضي؛ فأبو عمرو المشهور انصرافه عن حاضر الشعر العربي إلى ماضيه واشتغاله به زماناً طويلاً حتى حفظ منه ما لم يحفظ أحد، قد دل على أنه لم يكن أقل اشتغالاً بحاضره منه بماضيه؛ فمقالته لا تكون إلا عن انقطاع هما جميعًا

٢ الشعر العربي بحر واحد متدفق غيطه لا يُستَغلَقُ حاضره من ماضيه؛ فأبو عمرو قد وازن بأولئك الشعراء الجاهليين هؤلاء الإسلاميين على ما بينهم من فيافي الزمان والمكان المترامية المدلهمة.

٣ تَوازُعُ الشعراء طبيعية خالدة، لا يستحيل أن يشابه فيها حاضر ماضيا؛ فأبو عمرو قد وجد لكل شاعر من شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين إلا امرأ القيس، من يشابهه ويجري معه، ووقع بالشاعر على الشاعر كي يقع الخاطر على الخاطر

٤ أَلْدادُ الشعراء لا يُشابَهون؛ فأبو عمرو قد أخرج امرأ القيس من المشابهة على رغم أنه أخو طبقة الثلاثة المذكورين الأولى، وكأنه لا يتسلك فيه يستمك فيه غيره من الشعراء مهما تكن أخواتهم وأزمتهم وأمكنتهم!

مُوازَنَةُ الكَلامِ بِالكَلامِ

[٣] لقد رأيت مقالته علامة بارزة على منهج موازنة النصوص المتزامنة أو المتعاقبة المتعاقبة معًا، ودعوة خالدة إلى بحث نحوي واسع شامخ، لا يتناهى في أية الجهتين إلى غايته، بل يترامى كلي سار فيه النحويون، عافيا عنهم جودهم من نَفاد مسائل البحث وتكرارها الذي يؤرقهم، وافقًا غيرهم على جَلال ما يعملون لهذه الثقافة العربية الإسلامية المُشْرِقة المضيئة

كيف أنشأ الثلاثة الشعراء الجاهليون (الأعشى والنابغة وزهير) والثلاثة الشعراء الإسلاميون (جرير والفرزدق والأخطل) نصوصهم؟

وما الذي اجتمعوا فيه، وما الذي افترقوا، بحيث أشبه بعضهم بعضًا وبقوا مع ذلك شعراء كبارًا لا يغني بعضهم عتاب الشعر عن بعض؟

ذلك سؤال كبير في موازنة النصوص المتزامنة، وهذا سؤال كبير في موازنة النصوص المتعاقبة، ولا ريب لدي في أن جوابها الكامل صعب يحتاج إلى انتهاج مناهج واستدعاء نظريات من علوم كثيرة لغوية كعلم النحو وغير لغوية كعلم النفس، ربما تيسر يومًا ما حين يستقل ثم يستحصد في العربية (علم النص) نظر وعملا نجيبًا معًا، ولا سيما أن تنظر في مثل ذلك الجواب الواحد تلك العدوم الكثيرة، وألا ينتظر بعضه بعضًا أن ينظر له فيشاركه في النظر؛ فالبحث في كل علم تقييد وأطراف تشبه الخصائص يكاد الباحثون لا يتجاوزونها

شُعَرَاءُ قَتَادَةَ أَبِي عَمْرٍو

[٤] ومن ثم فتشت عن دواوين الشعراء الستة، ثم قومت بعضهم ببعض على ما رأى أبو عمرو، ورتبتها - حتى أوازن بعضهم ببعض. فَرَتَّبْتُ قَرِينَيْ قَرِينَيْهِ على النحو التالي:

١ الأعشى = جرير
٢ النابغة = الأخطل.
٣ زهير = الفرزدق.

عسى أن يُنْقِبَ هذا النمط الواحد من الموازنة جوابَ السؤالين السابقين جميعًا معًا؛ فدرس في قرن الثلاثة الجاهليين وموازنة بعضهم ببعض ثم في قرن الثلاثة الإسلاميين وموازنة بعضهم ببعض، غيرُ التطويل على نفسي وعلى القارئ بما لا تظهر لي لأن فيه جدوى كبيرة.

شِعْرُ الأَعْشَى وَجَرِيرٍ

[٥] وجدت للأعشى اثنين وثمانين (٨٢) قصيدة وقطعة ونتفة وبيتًا، ولجرير أربعمئة وسبع عشرة (٤١٧) من مثل ذلك - عشر جرير أكثر من شعر الأعشى، بل كان جرير أكثر منه قولًا للشعر وانقطاعًا له، والأعشى أكثر ابتلاء بتضييع شعره، وديوانه قد تقاسمتْهُ البحورُ على النحو التالي بالنسب المقربة

الشعر	طويل	بسيط	وافر	كامل	رجز	رمل	سريع	منسرح	خفيف	مقارب
الأعشى	٣٠	١٦	١٠	١٥	٦	٢	٢	١	٦	١٢

جرير	٣٧	١٦	٢١	١٧	٧	٨	١		٣	٢

فأعراقي ذلك بتصديق مقالة الناخرين للأعشى بأنه أكثر الأربعة الجاهليين عروضًا[٢٩] فقد نظم وهو جاهلي ببحرين (الرمل، والخفيف)، ضمَّ عليها جرير وهو الإسلامي، على رغم ما اشتهر به بعض الحواضر في زمان جرير من الصاد الحاذر الطبيعي إلى تصريف أوزان الشعر[٣٠] ولكن يبدو أن ميل الأعشى إلى الغناء المتناسب به «فتاة العرب»[٣١]، والمتأهي به عن الخيبة المعرفية[٣٢]، لم يكن بجرير بمؤثر التداوي من الخيبة بذكراها[٣٣]

ولكن ذلك الجدول لا يبين منازل تلك البحور المشتركة بينها كما يبينها الجدول التالي

المنازل	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
الأعشى	طويل	كامل	متقارب	بسيط	وافر	رجز	سريع	منسرح
جرير	طويل	وافر	كامل	بسيط	رجز	متقارب	سريع	منسرح

فعلى حين التقت بينها منازل الطويل والبسيط والسريع والمنسرح، فظهر صرف كما يمكنه أن يكون الجامع بينها ـ اختلفت بينها منازل الكامل والمتقارب والوافر والرجز، فظهر صرف كما يمثل الفارق بينها، وتلك معطيات مهمة، ولا سيما إذا تأملتُها في ضوء «جدول تطور أوزان الشعر العربي»[٣٤] الذي صنعه بعض الباحثين كما وصل إليه هو وغيره[٣٥]، وحسبي أن أستفيد منه بالجدول التالي.

المنازل	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
الجاهلية	طويل	بسيط	وافر	كامل	رمل	متقارب	سريع	رجز	هزج	منسرح	مجتث
الأعشى	طويل	كامل	متقارب	بسيط	وافر	رجز	خفيف	رمل	سريع	منسرح	
الجرير١	طويل	كامل	وافر	بسيط	خفيف	رجز	متقارب	منسرح	رمل	مجتث	
جرير	طويل	وافر	كامل	بسيط	رجز	متقارب	سريع	منسرح			

فقد التقت بعض المنازل بين شعري شاعرين خاصة وشعري عصريهما عامة، فَسَيْتُ كلا سببٍ إلى عنصره، كما يلي

١ منزلة الطويل أولًا في الجاهلية وشعر الأعشى والقرن الهجري الأول وشعر جرير جميعًا

٢ منزلة المنسرح عاشرًا في الجاهلية وشعر الأعشى جميعًا

٣ منزلة البسيط رابعًا في القرن الهجري الأول وشعر جرير جيدًا.
٤ منزلة المنسرح تامةً في القرن الهجري الأول وشعر جرير جيدًا

واختلفت بعض المنازل؛ فكملت لكل منهما خصوصيته المتأنية أيضًا على التعميم، كما يلي:

١ منزلة المديد في الشعر الجاهلي مفتقدة في شعر الأعشى، ومنزلتا الرمل والمديد في شعر القرن الهجري الأول مفتقدة في شعر جرير.

٢ منازل الكامل والمتقارب والبسيط والوافر والرجز والخفيف والرمل والسريع في شعر الأعشى خاصة، وغيرها في شعر الجاهلية عامة.

٣ منازل الوافر والكامل والرجز والمتقارب والسريع في شعر جرير خاصة، وغيرها في شعر القرن الهجري الأول عامة.

مادة الموازنة

[٦] ولقد كان لكل من دنت أثره في إجراء الموازنة بين شعري الأعشى وجرير؛ فقد مضيت في شعر الأعشى الأول، أدرس لكل قصيدة أجد لها من شعر جرير الأكثر ما يلائمها عروضًا وطولًا ومعنًى؛ فلم أعثر من شعر الأعشى إلا على أربع قصائد فقط تلائم أربعًا من شعر جرير. ثم مضيت أتلو الكلام وأنظر فيما وراءه، حتى أشفقت من استطالة البحث، فاصطفيت من تلك القصائد الثماني هاتين القصيدتين وكلتاهما مستحسنة مصطفاة:

الأولى لامية الأعشى[٣]، وقد لخَّصتها بي استرعتها من النحو التالي[٤]:

[١ فَضْلُ البَيْنِ]

١ وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ

[٢ فَضْلُ الإِشْيَحْمَانِ]

٢ غَرَّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا ... تَمْشِي الْهُوَيْنَى كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الْوَجِلُ

٣ كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا ... مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ

٤ تَسْتَيْقِظُ الْحَيَّ وَسْنَانًا إِذَا انْصَرَفَتْ ... كَمَا اسْتَعَانَ بِرِيحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

٥ لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجِيرَانُ طَلْعَتَهَا ... وَلَا تَرَاهَا إِذَا جَارَاتُهَا بَخِلُ

٦ يَكَادُ يَصْرَعُهَا لَوْلَا تَلَفُّتُهَا ... إِذَا تُقُوِّمُ فِي أَرْدَافِهَا الْكَفَلُ

٧ ـــ إذا نحن سِرْنا سَاعَةً أو أقلَّتْ ... وأعجزَ بعضَ السَّيرِ والمَشْيُ أمثَلُ

٨ ـــ صَبَرْتُ فأورَى زَنْدُ صَبْرِي وَصَوْلَةُ الـ ... ـهَوَى بِكَتَائِبٍ تَحُفُّ بِمُقْتَلُ

[٣. فَصْلُ الإِخْرَاصِ]

٩ ـــ عَدَلْتُ عُرَيْبًا عَنْ مَطَايَ وَنَحْنُنَا ... بِهَا سَلَفًا بِأْمِ الخُلَيْصَاءِ جُمَّلُ

١٠ ـــ أَلَمْ تَرَ أَنَّ رَجْعَ أَمْسِ أَقْرَبُ ... نَسَبَ الهَوَى وَدَهْرٌ مُقِيمٌ نَحِيلُ

[٤. فَصْلُ الاسْتِلْذَاذِ]

١١ ـــ يُنَعِّمُ الضَّجِيعُ غَمَاةَ البَرْدِ بَعْضِي ... فَيَسْأَلُ أَيْنَ مِنِّي لا جَمَالِي وَلا الكَفَلُ

١٢ ـــ مِرَارًا قُلْتُ قَدْ زَمَّ الرَّوَابِي ... فَكَانَ الحَمْدُ بِالقَوْلِ مُكَمَّلُ

١٣ ـــ إِذَا نَهَضُوا بِهَوْجَاءَ اليَسَارِ أَمُونَةٍ ... وَالزَّنْدُ الوَرْدُ بَيْنَ أَرْدَافِهَا قَبِلُ

١٤ ـــ وَزَفْرَةِ بَيْنٍ يَعْتَلِي صَدْرَ مُتْعَبٍ ... كَصَهْبَاءَ جَاءَتْ عَلَيْهَا تَنْزِلُ حَوْلُ

١٥ ـــ يُضَاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ... مُزَرَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُتَهَيِّلُ

١٦ ـــ يَزِينُ بِالطِّيبِ مِنْهَا نَشْرُ رَائِحَةٍ ... وَلا بِالحَسَنِ مِنْهَا إِذْ نَسَبُ الأَصْلُ

[٥. فَصْلُ الخَيْبَةِ]

١٧ ـــ خُلِقْتُهَا هَرَمًا وَخُلِقْتُ رَجُلًا ... فَيَرِي وَخَلْقٍ أَخَرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ

١٨ ـــ وَخُلِقَتْ لَهَا أُمٌّ بِأَرْبَعِهَا ... بِنَ لَبَّتِهَا ثَبْتٌ يَهْدِي بِهَا وَعِلُ

١٩ ـــ وَخُلِقَتْ أُخْرَى مِنْ ثَلاثَتِهَا ... فَتَضِجُّ الحَيُّ حَبَّ قُلَّةٍ بَهِلُ

٢٠ ـــ لَكِنَّ مُقْدَمَ بَيْدِي بِهَا بِيضٌ ... سُرُوٌ وَدَالٍ وَعَقْرَبٌ وَعَقِيلُ

٢١ ـــ فَلَسْتُ مُزَيْرًا أَبَدًا مَا حَيِيتُ رَاسِهَا ... تَهْمِي عَلَيْنَا وَبَيْنِي مِنْكَ بَا رَجُلُ

[٦. فَصْلُ الطُّمَأْنِيَةِ]

٢٢ ـــ هَا مَنْ يَرَى عَارِفًا قَدْ بِتُّ أَرْقُبُهُ ... فَأَتَى لِلَيْلَةٍ فِي سَافِيهِ الشَّمَلُ

٢٣ ـــ لَهُ يَدَانِ وَمِحْرَزٌ لَحْمٌ غَيِّلٌ ... تَنْفِي بِهِ الرِّجَالَ الشَّهِيلُ

٢٤ أَبَا لَهَبٍ أَلْهَتْهُ عَنْهُ حَرُونَةٌ ... وَلَا أُمُّ سَوْدَاءُ مِنْ آلِ مُرَّةَ

٢٥ فَقُلْتُ لِصَاحِبِ فِي قُرْبِ وَقْدٍ لَيْلَةٍ ... شَدِيدٍ وَكَلَّفَتْ بِشَيْمِ الْقَرَابِيعِ النُّزَّلُ

٢٦ بِرَقْمَا يُحَيِّي حَسَنَ الْأَيَادِي ... عَلَوْهُ وَبِالْحَيِّ بِيضَةُ عَارِضٍ طَفِلُ

٢٧ تَبَارَكْتَ مَا تَشَاءُ تَفْعَلُ لِلْعَالِي ... جَاذَفَ فَالْقَصِيدَةُ فِي الْأَبْلَةِ فَالرَّجُلُ

٢٨ فَالشَّفَعُ يَجْرِي فَوْقَ مَرْقَدِهِ ... حَتَّى كَمَا قَامَ بِنَهْرِ الزَّيْتُونِ فَالْفَيْلُ

٢٩ حَتَّى تَحَمَّلَ بِهِ الْمَاءُ تَكْوِيفَهُ ... رَوْضَ الْقَطَا فَكَثِيبَ الرَّيْشَةِ فَالسَّهْلُ

٣٠ يَشْفِي صَدَاهُ لَمَّا قَدْ أَضَبَّتْ عَزَبًا ... وَوَرَدَ الْجَمَائِمَ مَهْبِ الصَّبَا وَالشَّمَالُ

[٧: فَصْلُ الرَّحْلَةِ]

٣١ وَتَلْتَوِي بِنَا عَلَى الْبُرْدِ مَوْجَةٌ ... يَجِنُّ بِاللَّيْلِ فِي حَافَاتِهَا الزَّجَلُ

٣٢ لَا يَنْتَمِي فِيهَا بِالْقَيْدِ يَرْتَجِهَا ... إِلَّا الْمُسَنَّى كَمْ فِيهَا أَتَوْا مَهَلُ

٣٣ جَاوَزْتُهَا بِطَلِيحٍ جَسْرَةٍ شَزِنٍ ... فِي بِرْقَتَيْهَا إِذَا اسْتَعْرَضْتَهَا قَتَلُ

[٨: فَصْلُ التَّلَهِّي]

٣٤ إِنَّا تَرَيْنَا خُفَّةً لَا يُطَاقُ لَهَا ... إِلَّا كَسَالَى وَمَا تَحْمِي وَتَحْتَمِلُ

٣٥ لَقَدْ أَصَابَ رَبُّ الْبَيْتِ فَلْقَةً ... وَقَدْ يُجَادُ بِنَفْسِي لَمْ مَا يَسَلُ

٣٦ وَقَدْ أَلُوذُ الْعَشِيَّ بِرَوْضَةٍ كَيْمَنَى ... وَقَدْ يُصَاحِبُنِي فِي الْعُشْرِ الْفَسُولُ

٣٧ وَقَدْ خَلَوْتُ إِلَى الْحَوْرَانِ يَتْبَعُنِي ... صَدْيَانُ يَشْرَبُ كَسْوَلٌ فَتَفْتُرُ كَسُولُ

٣٨ فِي إِثْرِ عَيْسٍ تَحُثُّ الرَّكْبَ فِي فَلَقٍ ... قَدْ عَوَّدُوا أَنْ لَا يَمُرَّ مَنْهَجٌ ضَرِعٌ فِي الْحَيْلَةِ

٣٩ تَأْتِي مَنَاهُمْ أَقْصَى الزَّعْفَرَانِ مُحَيَّا ... وَقَهْوَةً قَرْقَرَانِيَّةً وَرَوْضَ خَعِيلُ

٤٠ لَا يَشْتَكُونَ مِنَ الْوَعْثِ وَقْعَ رَاحِلَةٍ ... إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا إِنْ حَلُّوا تَزُولُ عَنْهُمْ

٤١ يَمْشِي بِهَا دَوْ أَجَادَتْ لَهُ ثَلَفْتُ ... مُقَلَّصٌ أَسْفَلَ النِّرْبَالِ مُحْتَمِلُ

٤٢ وَتَسْتَجِيبُ لَهُ الْعَنْزُ بِسَتَّةٍ ... إِذَا تَرَجَّعَ فِيهَا الْقَيْنَةُ الْفُضُلُ

٤٣ مِنْ كُلِّ أَوْبَكَ يَرْمٍ قَدْ خَرَجْتَ بِهِ ... وَفِي الْجَمَائِبِ خُرْقٌ فَالْهُوَ وَالْعَزَلُ

٤٤ـ وَالشَّيْبُ لَيْسَ وَإِنْ حَرَصْتَ بِزَائِلٍ

وَلِمِرَّةِ اللَّاتِ عَلَى أَعْدَائِهَا الْمِعْوَلُ

[١ فَضْلُ التَّوْحِيدِ (الرِّسَالَةُ)]

٤٥ـ أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ مَأْلُكَةً ... [أَبَا خُبَيْبٍ/ ١ أَلَمْ تَخْشَ الْمُعَجَّلَ/ ٢

٤٦ـ أَلَسْتَ مُنْتَهِيًا عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا ... وَلَسْتَ ضَائِرَهَا مَا أَطَّتِ الْإِبِلُ/ ٣ ف ١

٤٧ـ فَفُرِّجَتْ بِنَا رَفْطَ سَمْوٍ وَإِخْوَتِهِ ... جُنْدُ الْقُلُوبِ/ ٤ فَشَرْدِيهِمْ/ ٥ ثُمَّ تَنْصَرِفُ/ ٦

٤٨ـ لَأَهْوِنَنَّكَ (إِنَّ جِدَّ التَّغَيُّرِ ـ ٨/ ... وَكَيْتَ الْخَيْرِ

٤٩ـ فَصَادِحٍ صَخْرًا أَوْ نَاعِبٍ لَيْتَهُمَا ... لَمْ يَعْرِفَا وَأَوَى تَرْنَةَ الْوَجِلُ/ ٧

٥٠ـ لَأَهْوِنَنَّكَ (إِنْ جَدَّتْ صَدَارَتُكَ/ ١٢ ... وَالْقَوْسُ النُّضْرُ يَنْكُمُ عَرْضُ/ ١٣ الْمَفْصِلُ/ ١١

٥١ـ ثُمَّ الْتَزَمْ أَرْمَاحَ ذِي خَشَمٍ سَوَرَتْ ... جُنْدُ الْقُلُوبِ/ ١٤ فَشَرْدِيهِمْ/ ١٥ وَانْصَرِفْ/ ٩

٥٢ـ لَا تَفْعَلَنَّ وَقَدْ أَتَيْتَهَا حَلَبًا ... تَمْرًا وَبُسْرًا فَرَهْطَ يَزْنَ وَالْفُيُلُ/ ١٧

٥٣ـ قَدْ كَانَ فِي أَهْلِ كَهْفٍ (إِنْ هُمُ ... وَالْجَاثِلِيَّةِ مِنْ بَعْضِي وَتَنْزِيلُ/ ١٨

٥٤ـ سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ عَنَّا/ ١٩ (وَقَدْ عَلِمُوا ... أَنَّ سَوْفَ يَأْتِيكَ مِنْ أَنْبَائِنَا فَشَلُ/ ٢١

٥٥ـ وَاسْأَلْ قُشَيْرًا وَعَبْدَ اللهِ كُلَّهُمُ/ ٢٢ ... وَسَائِلْ رَبِيعَةَ عَنَّا كَيْفَ تَفْتَعِلُ/ ٢٣

٥٦ـ إِنِّي نَذَرْتُ لَهُمْ حَتَّى تُنَازِلَهُمْ ... جُنْدُ الْقُلُوبِ وَهُمْ جَمْدَرًا وَهُمْ جُهُمُ/ ٢٤

٥٧ـ فَلَا زَعَمَتْ بِأَنَّ لَا تُقَاتِلُكُمْ/ ٢٥ ... إِلَّا لِأَنَّا لَكُمْ (مِمَّا نَرَى نَاسُ)/ ٢٦ قُتَّلُ

٥٨ـ حَتَّى يَظَلَّ عَمِيدُ الْقَوْمِ مُعْتَجِنًا ... يَدْفَعُ بِالرَّاحِ عَنْهُ بِشْرَةً عُبُلُ

٥٩ـ أَصَابَهُ هِنْوَانٌ فَانْصَدَعَتْ ... أَوْ ذِيبَلٌ مِنْ رِمَاحِ الْخَطِّ مُخْتَبِلُ

٦٠ـ قَدْ يُخْفِضُ الْغَيْرُ مِنْ مُخْتَرِنٍ فَالِيَةٍ ... وَقَدْ يَشُطُّ عَلَى أَرْمَاحِهِ الْبَطَلُ/ ٢٦ ف ٢

٦١ـ هَلْ تَشْهَدُونَ/ ٢٨ وَلَا يَهْدِي ذَوِي ضَلَلٍ ... كَالطَّعْنِ يَلْقَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْفُتُلُ/ ٢٩

٦٢ـ إِنَّ الْغَدْرَ الَّذِي خَطَّتْ مَنِيَّتُهُ ... الْحَيِّ وَسَطَ إِلَيْهِ الْبَابِ الْفَيْلُ

٦٣ـ (أَبِي قَطَنٍ عَمِيدًا لَا يَكُنْ صَدَدًا)/ ٣١ ... لَقَاتِلَنْ بِقَنَاةٍ مِنْكُمْ فَتَنِيلُ

٦٤ـ أَيْنَ الْمَفَرُّ يَا عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ عَمْرَ تَغْلِبَ/ ٣٢ ... لَمْ تَأْلَفَا مِنْ وَصَابِ الْقَوْمِ تَنْكِيلُ/ ٣٠

٦٥ـ لَحَنَ الْقُوَابِسُ يَوْمَ الْغَرْبِ صَاحِبَهُ ... بِجَنْبِ نُعْلَيْنَةَ لَا مِيلٌ وَلَا عُسُرُلُ/ ٣٣

٦٦ـ قالوا الركوب/ ٣٤ فقلنا إليك عادتك أو تنزلون فإنا معشر نزل/ ٣٥

و لأخرى نونيةٌ جيدة[٣٦] وقد فصلتها بما استوجبتها على النحو التالي.

[١. فصلُ الترغيب]

١ـ يا ذا الذي زار طرفُ ما بالنا وأطلعوا بين جفني الوسنِ أقمارا
٢ـ حسبُ الليالي إذا لا تبتغي بدلاً بقدرِ دارٍ ولا أجسادِ جيرانا
٣ـ قد كنتُ في أمرِ الأغصانِ ذا طربٍ تروعُها بين جادي الترنجِ عزفا
٤ـ يا ربَّ مُنتجبٍ سوغ قد ليتَ له بيضاً وأخضرَ تشدو يتعانقا
٥ـ لو تعلمين الذي للنفس أوجبتِ لنا أو تسمعين إلى ذي الحزنِ شكوانا
٦ـ فاصبحي بالسرورِ إذ ملكتِ مهجتَه يهدو بذي الإسرا وإعلانا

[٢. فصلُ الرسول]

٧ـ يا أيها الراكبُ الزجي مطيتَه بلّغ تحيتنا البيتَ خلاتا
٨ـ بلّغ رسائلَ عنا حنّ قلبُ فيها فلا حبس إلا ليلتين سرانا
٩ـ يا حبذا الحولُ إذا بلّغتَ حاجتنا لكنّ الأنينَ إذا شئتَ كان حنانا
١٠ـ إني السلامَ لأحسنِ الدورِ من نَسَمٍ تهدي بين نَسيمٍ بالقرنفلِ عُهدانا
١١ـ أحببتُ إن يهدأ الجزعُ نزولَه يا ملتقى طلحتي بالأخضرين أصلتا
١٢ـ يا ليتَ ذا القلبَ لا يسلى من يتملّكُه أو ليتني قبلَ هذا اليومِ سلوانا
١٣ـ أو ليتني إذ تلاقينا خلا بصري ولم يكن مبصرٌ للقلبِ الذي كانا
١٤ـ فلا تمرّ بجنبٍ قد نظرتِ به يا أطيبَ الناسِ بعدَ النومِ أردانا

[٣. فصلُ المكيدة]

١٥ـ عللتُ أوهى إذ أنتِ مُنيلُه ولا بعللكِ بعدَ اليومِ تعللنا
١٦ـ يا طيبَ قلبٍ من صدقِ المحبةِ هو فيما تكلّمتِ زورا يا طيبَ ضحاتا

١٧ـ ما كنتُ أزكُ شُتاقي أخي طَرَبٍ ... ماجت هبوبُ الصِّبا أشواقَ أشواقا

١٨ـ يا أمَّ عمرٍو جزاكِ اللهُ مغفرةً ... رُدِّي فؤادي الذي قد شفَّهُ كلفا

١٩ـ ألستِ أحسنَ من يمشي على قدمٍ ... يا أفلحَ الناسِ قُلْ للناسِ إسكاتا

٢٠ـ بانَتْ لِتَسْلُبَكُمْ نفسي وغيرَ ضَرِيبِكُمْ ... بالبَيْنِ مُعْتَلِجاً والإخْتِ سِيرَ مَعا

٢١ـ لا أستطيعُ فِراقاً إنْ هَمَمْتِ بهِ ... فَدَعِ الخليلَ إذا ما كانَ آلِفَنا

٢٢ـ قد عُذِّبتُ بأنْ أكونَ يُحِبُّني ... ما ثُنِّيَتْ أوّلُ مَوْلِدِي بِعَذابِ

٢٣ـ لقد كُنتُ أهوى حَتْفَ نَفْسِي فَسَلَّني ... لا أستطيعُ بِهِ فِكاكَ يَدَيّا

٢٤ـ كادَ الهوى يومَ سَلْمَى بَيْنَ يَقْتُلُني ... وكادَ يَقْتُلُني يومَ التَّنائِيا

٢٥ـ وكادَ يومُ لِوَى حَوْمانَةَ يَقْتُلُني ... لو كُنتُ مِن زَفَراتِ البَيْنِ أَرْحَلُ

٢٦ـ لا بارَكَ اللهُ فيمن كانَ فِرْقَتُكُم ... إلّا على الغَهْرِ حَتْفٌ كانَ ما كانا

٢٧ـ فِيمَ حُبُّكُم ما أطلبُ القلبَ مَرَّةً ... تَرَى أمْ زَعَمْتُمْ لو كانَ يَتَوانى

٢٨ـ لا بارَكَ اللهُ في الدُّنيا إذا انْقَطَعَتْ ... أسبابُ وُصْلِكِ عنها وهي أسبابُ

٢٩ـ يا أمَّ عُثمانَ إنَّ الحُبَّ حَسْبُ عَرَى ... يُعْيِي الحَكِيمَ ويُكْسِي العَيْنَ أَنْيِقَ

٣٠ـ هَمَّتْ بِنَوْرَةَ لو كانَتْ لَنا كَرَعَتْ ... قَدْحي صَدى شُعْبِ الغَمْرِ مَصْدِيا

[فَصْلُ الوَجْدِ]

٣١ـ لَيْسَ الثَّلاثي ولا في الدَّهْرِ فاقِرُكُمْ ... بِمُسْتَقِيمٍ ولا مُسْتَأْنَسٍ نِيدا

٣٢ـ تَبْدُو لَنا أُمُّ عَمْرٍو إذْ أُلاقِيكُمْ ... كالبَرْقِ يَبْرُقُ لَيْلاً لا الثُّرَيّا ثُرَيّا

٣٣ـ ما أحدَثَ الدَّهْرُ بي تَنْفَكُّ لائِمَةً ... لِلْحَيِّ صَرْمٌ وإلْفٌ بَعْدَهُ بِينا

٣٤ـ أيَسْتَقِلُّ الخَيالُ لا لَعْرِي ثَوَيْتُكُمُ ... أمْ هَلْ لِحَيٍّ حَبِيتُ النَّجْمَ تَبْرِيحا

٣٥ـ يا رُبَّ حالِقَةٍ بالغَوْرِ لَوْ نَزَلَتْ ... حَلَّتْ عليها وبَدْرُ اللَّيْلِ مُسْتَتِرا

٣٦ـ إنَّ العُيُونَ التي في طَرْفِها مَرَضٌ ... قَتَلْنَ ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلانا

٣٧ـ يَضُرُّ مَنْ ذا الهَوَى حَتْفاً لا يَراعُ بِهِ ... وَحُسْنُ أَنْعَمَ خَلْقِ اللهِ أَزْكاهُ

٣٨ـ يا رُبَّ حالِبَةٍ لَوْ كانَ يَطْلُبُكُمْ ... لَأَعْجَلَتْكُمْ رِجالٌ

٣٩ـ أوَتِيهُ بلوت حتى لا حياءَ به ... قد تُحسِنُ بعدك تبلَ اليوم أبدانا

[٥. فَصْلُ الخيال]

٤٠ـ طارَ الغُرابُ مَشيبَ الرأسِ الذي طرقتْ ... في اليومِ طيبةَ الأظعانِ بيدانا
٤١ـ نظرتُ نحوَ الزمانِ بعدَ اليومِ وابتسمتْ ... عن ذي عثانٍ كثيثِ المِسكِ ذيالِ
٤٢ـ تشدو بأطيبَ من إسحاقَ ذاويةً ... غُمْ الفصيحِ فلا عُيّا ولا الآنا
٤٣ـ طلبي بكم حسنٌ وبي عجزٌ وبكم ... فلا تكونوا فتسن لقد كان ألوانا
٤٤ـ يا ليتها ضلّتِ الركبَ الذي حملتْ ... يا ليتها ضلّتِ الحقَّ الذي زانا
٤٥ـ قالتْ لكم أنّ إنّ القومَ قد جحدوا ... دونَ الذي أوّلوا فيها وخوّانا
٤٦ـ لما تبيّنتُ أنّ القومَ قد حملوا ... ظلّتْ عصائبُ قلبي للهوى كفنا

[٦. فَصْلُ الرَّحيلِ]

٤٧ـ ما ذاقَ بعدكِ من الأحزانِ يومَ فتى ... يحسبنَ منكنّ بالبينِ خفقا
٤٨ـ أيحسبونَ مُقامي فيهمُ قمنٌ ... هل ما ترى ساترٌ للشمسِ إطلاقا
٤٩ـ كأنّ أحسابَهم حُمرٌ مُقلّدةٌ ... تغلو بنانهمُ أو تخضلُ بُرقانا
٥٠ـ يا أمَّ غسّانَ ما للنفسِ راحلتا ... لو قيسَ قصّرتا من خيرِ ما كانا
٥١ـ الحمدُ يا ربِّ حتى تنتهي نعماؤه ... تفضلُ الحمدَ وازنْ جزلَها فوزانا
٥٢ـ قرّبي بأغيبَ نجدًا وقد قطعتْ ... بينَ الشواطعِ والأوعالِ غسرانا

[٧. فَصْلُ الأخرى]

٥٣ـ يا خيرَ من جبلَ الرحمانُ من بشرٍ ... وحبّما ساكنَ الريانِ من كانا
٥٤ـ وخيرَ من عصمتْ في بيتِ مأثرةٍ ... تأبى لك من بيتِ الزمانِ أحيانا
٥٥ـ عيّتْ فلا تذكرى ما ذكّرتكمُ ... عندَ الصفاةِ التي قرّتْ عيونانا
٥٦ـ قلبٌ مزجرٌ وليسَ الدهرُ مرتجعٌ ... خليّ يا طالما الخلّو وما الآنا
٥٧ـ أزمانَ تبذعوني الشيطانُ من خزلٍ ... كنتُ تجوزتني إذ كنتُ شيطانا

٥٨ .عن الذي ظلّ يسأل أن أزوركم ... أنسى عليّ ملمات الدهر حفظاتي

[٨. فصل الوعيد]

٥٩ ما يدّري شعراء الشام زلّتهم ... من فحولة الشعر عندي بعض ما علما
٦٠ جهلاً تقوّلوا كذباً عليّ ومن ... علّامهم حشو زوّاده
٦١ فاذكرهم من شعير مات في كمد ... والآخرين ثووا الفهد والرمضا
٦٢ ما بال خمسين في أعطافهم عرضاً ... عشر الثمانين وخمس فان مس ذا
٦٣ من يدّعي بينهم يتحي غمارهم ... فاستيقنوا أنهم عير وما انتسبا
٦٤ ما غطّ مني قوم أن أنوء لهم ... إنما أنتم إبل وإفك

[٩. فصل الذمّ (الرسالة)]

٦٥ قل للأخيطل (إذ تبغي مراثيه) ... فاجعل لأمك أمر القتل صرفا ١ ف١
٦٦ إني امرؤ أبيه قيس فارقه ... إلى سواي فلم يبخس ولا بخسا ٢
٦٧ أخصي جباي بأعلى المجد منزلتي ... بين جنوب وللأدبار من عنبس عيلانا ٣
٦٨ ما كنت أول عبد قلب عائلة ... وعل اجتماع القرابي رشح جرشا ٤
٦٩ لا تعي الأخيطل بالبولان فارزة ... لا يستوي ابن اللبون ابن المخاض ٥ ف٢
٧٠ يا نجر تغلب ما بال يشوكم ... ثاقب أعظم الثنيين جرشا ٨
٧١ لما رأوني على الجودي من سكن ... وتحتكم صلبهم رغماً وكرباً ٩
٧٢ هل تذكرون إلى القينين عيركم ... يا فخر أن تحمدوا الشر فخراً ١٠
٧٣ أن تذكروا المجد أو تطروا عباءتكم

تَفْصِيلُ الْقَصِيدَةِ

[٧] إن الشاعر بالقصيدة حين يقولها لقصدًا إلى إرسال رسالةٍ (مُغَلَّفَةٍ، مَأْلُوفَةٍ) ما، تدل عليها أدلة مختلفة، منها ما يلي:

١ طبيعة القصيدة الخاصة.

٢ سياق القصيدة الشعري.

٣ سياق القصيدة الاجتماعي.

أما دلالة طبيعة القصيدة الخاصة فأن تتفصّل فصولها وتتوصّل ظاهرًا وباطنًا بحيث تؤدي رسالتها، وأما دلالة سياق القصيدة الشعري في ديوانه، وغيره فأن يشتمل على أشباهها اللاتي يعرين بالاستناد إلى فهم تلك الرسالة، وأما دلالة سياق القصيدة الاجتماعي في إرسالها وتلقيها فأن ينص بحال صاحبها وبفهم متلقيها عن تلك الرسالة، حتى إن علماء المتلقين إذا صنفوا القصيدة مع غيرها من شعر صاحبها أو غيره وصنعوها تحت عنوان باسم تلك الرسالة.

وأولئك المتلقون هنا قسمان. فمُرْسَلٌ إليه مقصود هو نفسه بالرسالة، ومرسولٌ حامل لها موكول إليه كثير من أمرها، وكلاهما محتاج إلى أن يتأتى له الشاعر، وإلا ضلّ الرسالة الرسولُ فلم يُعنَ نفسَهُ أن يُبلّغها، أو كرهها المرسَلُ إليه فلم يقبل أن يستمعها.

ولقد كان من منهج الشاعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بني أمية، أن تسم قصيدته على فُصول، فصل برسالته، و فصول لتعقّب الرسول والمرسل إليه على رسالته. وأن جرى على تأخير فصل الرسالة إلى آخر القصيدة ـ وقد فرغ منه أولًا ـ حتى يجد مندوحة ليتأتى إليها ويعقب المتلقين عليها، وحتى تكون آخر ما يُلقي فيُبقي.

فمن ثم ينبغي أن يكون من منهجي أن أقدم النظر في فصل الرسالة الذي بدأ به الشاعر، وأؤخر النظر في فصول التأتي التي عناها على الحقيقة؛ عسى أن أتبين من تسيير تفكيري ما يستحق بطلبات نفسها

فَصْلُ الرِّسالَةِ

رِسالَتا الشّاعِرَيْنِ

[٨] لقد قصد الأعشى إلى مدح «يزيد» أحد رؤوس بني شيبان، من إعصار صدور «بني سبار» أحد بيوت قبيلته، من «بني كعب» أحد بيوت قبيلة الأعشى، ليقتلوا أحد رؤوسهم برجل منهم مُهَمٍّ لقتلوه. وقصد جرير إلى مدح الأخطل سامر بني تغلب الأكبر من التطاول عليه.

وهل رغم أنّ ليس هذا بمنع بعيد من ذلك - مكلافا منّ من الكلام، وبئس كان كلام يزيد مما يعطي إلى الثناء، فقد أعطى كلام الأخطل من قبل إلى مقتلة لم ينل جرير تعييره بها، و«الكِلامُ مِنَ الكِلامِ»؟ - كانت شناعة الذم وصية جرير إلى مدح خصيمه، وسياسة الوعيد وسيلة الأعشى إلى مدح خصيمه، وليس أدنى من التوسل من وسيلته؛ فأمر التوعد معذورٌ، وأما الذام مغفورٌ!

مِقْدارا الرِّسالَتَيْنِ

[٩] وهل حين شملت رسالة الأعشى اثنين وعشرين بيتًا بنسبة ٣٣٪، من آخر قصيدته التي عدتها ستة وستون بيتًا، وكان فصلها أطول الفصول؛ فدل ذلك على فضل عنايته برسالته وجلال شأنه عنده - لم تشتمل رسالة جرير غير تسعة أبيات بنسبة ١٢٪، من آخر قصيدته التي عدتها ثلاثة وسبعون بيتًا، ولم يكن فصلها أطول الفصول؛ فدل ذلك على ضآلة استهانته برسالته وهوان شأنها عليه، دون إهمال أثر اختلاف الوعيد والذم - هي اتفقا في مدح السابق - في ذمته؛ ففي الوعيد علاج، وفي الذم بتر!

إِحاطَةُ الرِّسالَتَيْنِ

[١٠] ثم هي حين اجتمع الشاعران في بناء أجزاء رسالتيهما على هاتين الجملتين الطيبتين [«أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ مَأْلُكَةً (...)»، و«قُلْ لِلْأَخْيَطَلِ (...)»]؛ اختار وجهين بسيطين [«حسن أمر الإبلاغ»، و«حسن أمر القول»]، فخرج النصيحة إعذارًا إلى المتلقين، وأسند إليه الواحد فيهما (خبر المخاطب غير المنكور، المحضور) فخرج التأديب على الصمت والصبر المرغوبين في غير موضعهما متى كان المتكلم هو المخاطب على جهة التجريد، أو خرج التشنيع بين الناس الذين لا يتناقلون شيئًا كما يتناقلون رسائل بعضهم إلى بعض ولا سيما إذا تواضعوا بكتمانها متى كان المخاطب غير المتكلم. وألّف الأعشى

وطأة أجزاء رسالته على خصيمه بتقديم كلمة «تَأَلَّكَةَ» قبلها بحيث كانت تفريقًا منها رسمًا له وبدلًا منها، والتألكة هي الرسالة التي لا تكون عادة إلا بين الإخوان لحرصهم على التواصل في البعد كالتواصل في القرب، تذكيرًا له بحقه عليه عسى أن يجيبه إلى ما يستحق - وأفدع جرير وطأة أجزاء رسالته على خصيمه بمباشرتها بعمل الفول، تنكيلًا به وتعييرًا له على وجوه الجواب!

ذِكْرُ الخَصِيمَيْنِ

[١١] ومهما يكن مُنْتَجَعُ ضمير المخاطب فقد عرف الأعشى عن مواجهة خصيمه بتحميل غيره الوعيد إليه، وألطف وَكَرَّهُ له باسمه مضافًا إلى قومه «( ) يريدُ بَنِي ثَعْلَبَةَ» تذكيرًا له بحظهم عليه ألا يهلكهم بكفاءة ما سَرَّدوه عليهم، كما عَرَّف اسمه المضاف بعدما ذهبت عنه عَلَمِيَّةُ اسمِهِمُ المضافُ إليه، حتى تحمل ما في عروضه عن مواجهته من استباقه والحرص عليه. وعرف جرير عن مواجهة خصيمه بتحميل غيره الدم إليه، وأقدع وكَرَّهُ بنعته مصغرًا «( ) للأَخْيَطِلِ» الذي نبز به «لسعفه واضطراب شعره»، تحقيرًا له وحطًّا منه، حتى تحمل ما في عروضه عن مواجهته من اطراحه والزهد فيه.

اسْمُ رِسَالَةِ الأَعْشَى

[١٢] وعلى حين اجتمع الشاعران بإطاري التبليغ والتحديث اللذين في جنسيهما لأوليين، على أن تختصا ما بعدهما على نحو ما رتشوليا عليه كي ينقسم الإطار ما فيه ويستولي عليه؛ تتوثق بذلك علاقة أجزاء الرسالة بعضها ببعض عن أحسن ما يتمنى مُرْسِلٌ حريص على كلمته إلى المتلقي - استعاد الأعشى من جواز انقطاع ما بعد «تألكة» منها وحمله على الاستئناف ما يتيحه ذلك لكل جزء من أجزاء رسالته من خصوصية تبدو بها حَمَالة وجهين من اللين والقسوة مُلَيَّنَيْنِ!

ومهما تكن شدة إطار الجملة الأولى المحيط بأجزاء الرسالة فلا نفس عن كسره وفصلها، ولا سيما أنها تغاير ما بينها هي إلى مقدار من التجاذب الباطني والظاهري يُلَيِّن صُلْبَها، ولا يتركها لدنة لإطار أختانًا متغايرة ضعيفة التأثير.

تَقْسِيمُ أَجْزَاءِ الرِّسَالَتَيْنِ

[١٣] لقد جمع بين الشاعرين المنع الذي أفاده فإنه لما انتفى (الوعيدُ = الدمُ) (مرعَّدًا = دامًا) و(متوعِّدًا = مذمومًا) و(شهودًا) تحولَ بنَ كُلٍّ منهما أو بعضه وتحكم له أو عليه وإلا تناقضت أقسامها وتضاعب بينها رسالة الوعيد أو الذم، قسم الشاعران أجزاء

رسالتيهما على ثلاثة الأقسام المنطقية السابقة؛ فجعل الأعشى أجزاء رسالته الخمس والثلاثين جملة عشر جعل منها لنفسه هو منتميًا إليه أحيانًا قومه (٢٩٪)، وسبع عشرة جملة منها ليزيد منتميًا إليه أحيانًا قومه كذلك (٤٩٪)، وثماني جمل منها للشهود (٢٣٪). وجعل جرير أجزاء رسالته العشر الجمل سبع جمل منها للأخطل وقومه (٧٠٪)، وجملتان اثنتان منها له هو وحده (٢٠٪)، وجملة واحدة منها للشهود (١٠٪).

ولكن كانت منهجي الشاعرين في تقسيم الجمل على أصحابها، اللذين يتحرك بها تفكيرهما، معالم تحتاج إلى مزيد تأمل فيما يلي.

أضحاتُ الأقسام

[١٤] لقد أدار الأعشى على خصيمه يزيد سبع عشرة جملة (٤٩٪) مسندة إلى ضمير خطابه، وعلى نفسه عشر جمل (٢٩٪) مسندة بين ضمير تكلمه وعن الشهود ثماني جمل (٢٣٪) مسندة إلى أسماء القتال والمقاتلين للمعرفة بأل والموصولة وضمائر غيبتهم. وأدار جرير عن خصيمه الأخطل سبع جمل (٧٠٪) مسنده أربع مرات إلى ضمير خطابه، و مرة إلى لقبه المنبور به، ومرة إلى اسم استفهام عن بعض هموم قومه الخيبة، ومرة إلى ضمير غيبته ـ وعلى نفسه جملتين اثنتين (٢٠٪) مسندتين إلى ضمير تكلمه، وعلى الشهود جملة واحدة (١٠٪) مسندة إلى معرف بأل.

لقد ادارا جميعًا أكبر أقسام أجزاء رسالتيهما على خصيميهما، ولكنهما اختلفا في نسبة ذلك الأكبر فيه فكانت عند جرير أكبر منها عند الأعشى، وما ذلك إلا من انصراف جرير إلى التنكيل بخصيمه وتحييره عن وجوه الجرائر وإحراجه أمام المتلقين، وإمساك الأعشى بتنبيه خصيمه إلى أنه يعاند الدنيا كلها بما يتنوي لا الأعشى وقومه وحدهم، وشتان ما هي!

لقد كان التوفيق إلى أخيث التهم والسباب والشتائم والتصاوير والتضاييق هو همّ جرير اللازم في أجزاء رسالته، حتى كاد لا يدع مفيرها مكانًا إلا أن يكون من بابته، كما فيما اختاره للشهادة على ما بينه وبين خصيمه؛ فقد كان مقالةً مخلوقة نفسه في سبب خصيمه، إن تكن أخف إقذاعًا يكفها أن تكون مقالة المخلوعة المسموع للنزع.

ويقد خيّل لي الأعشى بإحالته عن إسناد جمل خصيمه إلى ضمير خطابه، أن جملةً لإطراء الأمة الذكر «أَبِيعَ يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ مَأْلُكَةً (...)»، هي نفسها مسندةٌ إلى ضمير خطاب يزيد نفسه كذلك، وكأنه بما طمع له وطمح إليه غافل عن حقيقة نفسه، فأراد الأعشى أن يريه إياها في مرآته، ولسان حاله يقول: «به نفسك وهذا الطفُّ نائيا إلى الحجاز المردا

تتابُعُ الأقسام

[١٥] وعلى حين حرص الأعشى على مزج جمل كل طرف من أطراف أجزاء رسالته (يزيد، الأعشى، الشهود) بجمل غيره سريعًا ومتداخلة ومتناقضًا لكيلا تنفرد بمجال الصراع فتطغى بمعنى واحد يستبد عليه مراده من وعيده؛ فبدأ بنداء ليزيد حتى يتنبه إلى ما سيقوله له، وختم بمقالته ليمضي خصومه حتى يرتدعوا، ووالى الجمل بين البدء والختم على النحو التالي:

الأعشى (١) ـ يزيد (٢، ٣، ٤، ٥، ٦) ـ الأعشى (٧) ـ القتال (٨، ٩، ١٠). الأعشى (١١، ١٢) ـ يزيد (١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧) ـ القتال (١٨، ١٩). يزيد (٢٠) ـ القتال (٢١) ـ يزيد (٢٢، ٢٣) ـ الأعشى (٢٤) ـ يزيد (٢٥) ـ الأعشى (٢٦، ٢٧) ـ يزيد (٢٨) ـ القتال (٢٩) ـ الأعشى (٣٠) ـ يزيد (٣١، ٣٢) ـ الأعشى (٣٣) ـ القتال (٣٤) ـ الأعشى (٣٥)

ـ ثم يبدأ جرير بظهور جمل طرف من أطراف أجزاء رسالته (الأخطل، جرير، الشهود)، هي غيره، وانفراده بمجال الصراع الذي لا فخر فيه لفاخر، بل لا تهيء غير العار؛ فبدأ وختم بنفي القدرة عن خصمه، ووالى بين البدء والختم بجمل على النحو التالي:

الأخطل (١، ٢) ـ جرير (٣)، الشهود (٤) ـ الأخطل (٥) ـ جرير (٦) ـ الأخطل (٧، ٨، ٩، ١٠)

أزمانُ الأجزاء

[١٦] ثم هي حين وجه الأعشى أكثر جمله (٨٣٪) إلى المستقبل وأدناها إلى الماضي (١٧٪)، ووجه جرير نصف جمله إلى المستقبل وقرابة نصفها إلى الماضي.

إن المعية عند الأعشى تحتية، تقع بعده، فإن فعل خصمه شيئًا عدّا فعل هو مثله أو أشد منه، وشهد القتال عندئذ للمُحق على المُبطل، وفي الوقعات السالفة منهم لأعدائهم شاهد عدل لا يكذب، فأمر صغار الجَهَلاء الواقفة فيتبغي لرؤسائهم أن يخضعوا معها ولا يُكَبِّروها؛ وفي سبيل ذلك تلطف الأعشى غاية التلطف، فأخرج جملًا كثيرة مثنية الأزمنة.

فمنها ما ظاهره الحاضر المستمر ولكن باطنه مستقبل منتظر، كما في الجمل ٤ ـ ٦ «تُفْرِي بِنا (...)»، «تُرْدِي»، «تَنْتَزِلُ» فربما أيقن من بلغه ما كان من يزيد حقًا أن الأعشى أراد هذا الحاضر، ولكنّ في طرفي الجملة الأول ظرفًا هو «عند» مضافًا إلى تهيء

م يحدث بعد هو «التلقي»، كفيلاً بصرف من لم يبلغه ما كان من بريد عبر الحاضر إلى المستقبل.

ومنها ما ظاهره ماضٍ منقطع ولكن باطنه مستقبل منتظر، كما في الجملة ١٨ «لقد كان في أهل ثمود (...) والحاضرون من يتمنى ويتخيل «ضربوا عبر التلاقي سريعًا أن الأعشى يمتدح هؤلاء القوم بما استمر من فرسانهم وروعهم قديمًا، ولكن الأعشى يرمي بين طيات هذه الجملة جملة شرط مضمونها ظاهرًا مستقبلية باطنًا هي ١٩ «إن هُمْ عادوا» فبها أناط شرطها المستقبلية عن جوابها بما اعترضه؛ فيرتد التلاقي إلى نفسه ويتبين أنهم لم يصلوا شيئًا من ذلك، وأن الأعشى يريدهم ألا يفعلوا، أو يمنحهم بأن لن يصنعوا.

ومنها ما ظاهره فعل غير المستمر أو المستقبل المنتظر وباطنه الماضي المنقطع، كما في الجملة ٢٤ «وإنا لمآتيهم حتى تَمَلَّهم حين استلاؤا وهُمْ جاروا وهُمْ جهلوا» ضربها عبر التلاقي أن بين الأعشى وقومه وبين هؤلاء الجائرين الجاهلين الذين يمتدحت هجمهم بهذه الجملة، حربًا مشتعلة لأن أو هذه، ولا سيما أن «ال» التي في «التملاء» في سياق تعمل المضارع، يجوز أن تكون عهدية منصرفة إلى الآن، وأن تكون جنسية متجهة إلى المستقبل، حتى إذا ما وضعها التلاقي في سياقها بعد الجملة ٢٣ السابقة في «اسأل ربيعة عنا فيئت تَقْتَوِلُ» كانت أل عهدية متجهة إلى الماضي؛ فعلم أنه أراد سابق حروبهم هم.

ومنها ما ظاهره الإخلاق من حضور الزمان وباطنه ماضٍ منقطع، كما في الجملة ٣٣ «نحن الفوارس يوم تحتي صافنٌ جنبي فَطِيسَةَ لا مِيلٌ ولا عُزُلُ» فربما تَلَقَّتْ مُطْلِقَةً من أبيا أصل واسع لا ينفر، أدَّح فيها الأعشى بشاعيم وكبائيه ثم انثنى إلى ما في أيدي أصحاب الخبر من تأييد ذلك بزمان «يوم المَيْهَا» الماضي.

وإلى ذلك من سياسة التلاقي مهارة واضحة؛ فربما حلَّت المؤكِّدة وغيره مطابقة المؤكَّد عن إعمال القرائن وحظوظه، وأطَّرحه؛ فلم يَقِل من وعيه بطلال، مثلاً الأعشى وأرعى وألمعيّ وأحمى وعاري وعاري، فلم يكن حاصل تُضَيِّب تُضايِر غير تضييع تُضايِق أن يجعله مريبًا، حتى يكون تعالى الحكيمُ الزينُ الرجيح هو الذي يخبره بصراحة ويجزيه إليه في وقت واحد منا!

وإذ القضية عند جرير - إذ كانت أمُّ مصيبة - هي هي في الماضي والمستقبل؛ منطاسةً جرير التي حلته شريف الخصال وحلته على كريم الفعال، لن تزال تحمله عليهما، وسمارةُ خصيمه التي بطنه بوضيع الخصال وحلته على لئيم الفعال، لن تزال تحمله عليهما، ولا تتدوحة لغير ذلك؛ فالجمع طلاب، ولا أمل في غير ذلك؛ «وتأبى الطباعُ على الناقل» وفي سبيل ذلك مضى جرير تُمرِّرُ شاعر مخضرم إلى تلطف الأعشى، غير أنه أخرج جملته الثالثة التي كانت محور مقرنه الأول «إني امرؤٌ (...) جَهْلانة» بصيغة الجمع

فيها الزمان المستولي على أجزاء رسالته، فوجه بعضها الأول «لم أرِدْ (...)» جهة الماضي، وبعضها الآخر «أمن رجائي بأهل المجْد مرتحلي (...)» جهة الحاضر المستمر إلى المستقبل؛ فبعد الزمان فيها كليًا فوريًا، ولا سيما أن جملة البعض الآخر تحتمل كما سبق، أن تكون حالًا من أي من ضميري [«لم أرِدْ»، و«دُنْيانا»].

تَصَدُّرُ المُتَكَلِّمَيْنِ

[٢١٧] ثم اجتمع الأعشى في أربع جمل (٢١/ ٢١) وجرير في جملة واحدة (٢١/ ٢٠)، على صرف المتلقي عن تلك الأزمان قليلًا إلى الإنسان بتصدير المسندات إليه فيها وتعويبه هي وحدها من الفعلية المستولية على سائر الجمل، إلى الاسمية.

قال الأعشى:

٢٤ «إنّ مُحاوِلَتُهُمْ (...)».

٢٦ «إنّا لأمثالِكُم (...) قُتّلُ (...)»

٣٠ «إنّي لَمِمّنْ ألّبَ (...) لَفَقْئَ بِثْلَمُونِكُمْ (...)»

٣٣ «نَحْنُ الفَوارِسُ (...)».

وقال جرير:

٣ «إنّي امْرُؤٌ لَمْ أُرِدْ (...) أمْنِي رِجائِيَ (...)».

ولم يكن المُصَدَّرُ فيها كلها غير ضمير تكلم الشاعرين وكأنما انحصرت فيهما وحدهما حقيقة الإسناد الفعلي، فأما خصيصاه من ربي دعتهما إلى الفعل - إنما لَفَقْلا - فواقع خارجة عن حقائقهما.

لقد كان الأعشى متنبهًا بأساليب سياسة الناس مُتْعِبًا بحيرانها مُوقِفًا إلى مساعيهم على رغم المكر والخروج[٣٠] فوجب الانتباه إلى ما في تأخيره هذه الجملة ولا سيما الجملة ٣٣ إلى أواخر أجزاء الرسالة من مندوحة التمهيد لما بين قبلها، لكيلا ينقلب المعتبر على الفاخر ولا يتجر الوعيد مراده؟

ثم قد صير منها الجملة الثالثة ٣٠، بإفراد المسند إليه «إنّي»، على رغم رجوع الضمير إليه من جهة المسند مجموعًا «لَفَقْئَلُ». إن الأعشى هو الغاضب في هذه القصيدة لا غيره، وربما ركن يريدُ ملتوحِّدُ إلى ألا فعلٌ ولا مدرة عن شيء لشخص و حد مهما كان غضبه؛ فنبهه الأعشى بضمير تكلمه في «إنّي» على أنه السيد المطاع في قومه، وبضمير تكلمه مع قومه في «لَفَقْئَلُ» على أن قومه لن يتركوه؛ فمن العقل ألا يغري يريد المُتَوَعَّدُ أولياءَ المقتول المهمل بأن يقتلوا به أحد رؤساء قوم الأعشى، وإلا انتصف الأعشى منه وسهم وانتصر.

ثم قد مر منها كذلك الجملة الرابعة الأخيرة ٣٣، بوخلالها من أداة التوكيد «إنَّ»؛ لتخرجت في ظاهرها مخرج النتيجة التي لا تحتاج إلى اجتهاد ولكنها في باطنها مقدمة ما سبقها من هذه الجمل؛ فلو لم يستقر في قلوب الأعشى وقومه أنهم العوارس الذين تحولت عن قلوبهم وعقولهم الخمور؛ لم يجترئ على الوعيد.

أما جرير فقد كان خبيرا بهؤلاء الناس، وبيس أذى لهم من إنكار خصائصهم وإثبات أباطيل غيرهم أو حقائقهم؛ فوجب الانتباه من تقديمه نفسه وحده في الجملة ٣ وإخراله لغيره، ثم لإعادته ضمير حاملي النعش بالتكلم المسند للمسند إليه المُضْمَر «إنّي»، بدلاً من الغيبة المناسبة للمنعوت القريب «المُزَرَّأ»، حتى ملأ الجملة بنفسه المعلنة بنفسها!

تَقْفِيرُ القَصْلَيْنِ

[١٨] ولقد أكمن الشاعران للعاذل وراء جبل أجراء ورسائيهما، فجرى متفاوتين.

كانت الفقرة الأولى عند الأعشى من الجمل التسع عشرة الأولى (١ ـ ١٩)، في تحقير ما عليه بربله، وقد شغلت تسعة الأبيات الأولى، وكان محورها الذي دارت في فلكه منجدبة إليه قسم الأعشى أنّ يريد خاذل من يعزيهم بالقتل ـ لا محالة ـ قومه:

لأُخْرِقَنَّـــكَ إنْ جَـــدَّ الضَّـــرِيبُ ... وَشَـــبَّ الحَـــرْبُ بِـــالطُّوَلِ وَاحْتَمَـــلُوا
كَـــطَيْخِ ســـحْرَةَ يَوْمَ لِيلَتِهَـــا ... لَمْ يَبْقَ مِنْهَـــا وَأَوْهَـــى قَرْنَـــهُ الوَعِـــلُ
لأَخْرِقَنَّـــكَ إنْ جَـــدَّتْ عَـــدَاوَتُنَا ... الـيَـــوْمَ فَـــانْظُرْ بِـــنَا حَـــوْزَاً لِمُحْتَمِـــلِ

وكانت الفقرة الأولى عند جرير من الجمل الخمس الأولى (١ ـ ٥)، في تعظيم ما هو نفسه عليه، وقد شغلت خمسة الأبيات الأولى، وكان محورها الذي دارت في فلكه نفي جرير الظلم عن نفسه وإثبات الجراءة والحماية، بقوله:

إنِّي امْـــرُؤٌ لَمْ أُرِدْ قَـــوْمِي أَمَانَتَهُـــمْ ... إِنَّـــمَا ظُلِـــمْتُ وَلَا يَلْحَـــقْ بِيَ الرِّيَبُ
أَحْمِـــي حِمَـــايَ بِـــأَمْرِ اللهِ مُعْتَصِـــمٌ ... بِـــي يَعْـــذُبُ الدِّينُ إِنْ قَـــيْسٌ خَتَلَاهُـــا

وكانت الفقرة الأخيرة عند الأعشى الجمل الست عشرة الأخرى (٢٠ ـ ٣٥)، في تعظيم ما هو بصدد عليه، وقد شغلت الثلاثة عشر بيت الأخيرة، وكان محورها الذي دارت في فلكه منجذبةً إليه تتسم الأعشى أنه مُتَصَعٌ ـ لا محالة ـ بنَ يزيد ومَنْ أطاعه إذا مضى إغراؤه بقوله

إن المُنَى الذي خطَّتْ مَنِيَّتُها ... لَهْدي وصيق إلَيْهِ البَعْلُ المُثُلُ

لَيْسَ لَطَيْفُ خَيالٍ إنْ يَكُنْ صَدَدَا ... لَقَدْ نَزَلْتَ بِمَنْأَةٍ بِمُنْكَمْ فَنَتَنْزِلُ

لَيْسَ تُشَبَّهُ بِما عَنْ جِبِّ مَزْلَقَةٍ ... ثُمَّ الْفِيَافِ بِمَنْ وِسْطَ الْقَوْمِ تَنْتَعِلُ

وكانت الفقرة الأخيرة عند جرير الجمل الخمس الأخيرة (٦ ـ ١٠)، في تحقير ما عليه الأخطل، وقد شغلت أربعة الأبيات الأخيرة، وكان محورها الذي دارت في فلكه منجذبة إليه تأييد نفي جرير إدراك المجد عن الأخطل، بقوله

لَنْ تُدْرِكُوا المَجْدَ أَوْ تَشْرُوا مَبَاءَتَكُمْ ... بِمِسْحَرٍ أَوْ تَجْتَلُوا الشَّوْمَ شَمْشَرَا

الفِقَرُ وأبياتُها

[١٩] لقد اجتمع الشاعران بتقسيم جل أجزاء رسالتيهما على الفقرتين، على ملاءمة ظاهرة الازدواج الإيقاعي الطبيعية من حولهما، وكأن آخرة الفقرتين صدى صوت أولاهما المُبيِّنة، وَصْلًا للمتلقي بمجرى رسالتيهما، عسى أن يتأمل أجزاءهما، ويطابق بعضها ببعض، تحصيلًا لقصديهما

واجتمعت كذلك على زيادة نصيب فقرة تعظيم كل منهما لما هو عليه من الأبيات على قريتها، تزويقًا لفقرة ما هو عليه (الصوت الداعي) وتضعيفًا لتحقيره عليه (الصدى المجيب)، ولكنهما افترقا فيما وراء ذلك

تَغايُرُ الفِقَرِ

[٢٠] فعلى حين قدم الأعشى فقرة تحقير ما عليه خصيمه على فقرة تعظيم ما هو عليه؛ لدل على أن حقارة ما عليه يزيد هي التي حملته على تعظيم ما هو عليه، ولولا ذلك ما كان هذا ـ قدم جرير فقرة تعظيم ما هو عليه على فقرة تحقير ما عليه خصيمه؛ فدل على أن عظمة ما هو عليه هي التي حملته على تحقير ما عليه خصيمه، ولولا ذلك ما كان هذا

لقد أراد الأعشى بنفسه وخصيمه السلامة؛ فخشي في رؤوسهما أخبرًا ألا قدرة له عليه، وأراد جرير بخصيمه الندامة؛ فقذف في آذانهما أخبرًا ألا خير له في نفسه!

جَوَرَا بِظَرْفَيِ الْأَعْشَى

[٣١] ثم أقسم الأعشى في جملة جور فقرته الأولى على ما لا يملك من خذلان يريد، مثلي أقسم في جملة جور فقرته الأخرة، على ما يملك من الانتصاف منه، وأخرج المقسم عليه فيهما جميعًا جملتين مستأنفتين في جملة قسمية واحدة على النحو التالي.

أما الجملتان في الفقرة الأولى [«لَأَهْرِقَنَّكَ (...)» و«لَأَحْرِقَنَّكَ (...)»]، فقد كانتا جميعًا جوابين متعاطفين بعاطف محذوف موضعه بين «لَأَهْرِقَنَّكَ (...)» الأخرة، لتقسم واحد محذوف، وكانت الأخرة منهي تكون توكيد لفظي للأولى لولا بعض مكملاتها، والتوكيد اللفظي بمنزلة الصدى الحاكي والمؤكد فيه بمنزلة الصوت المحكي

وأما الجملتان في الفقرة الأخرة [«لَتَقْتُلَنَّ (...)» و«لَمْ تُلِفْ (...)»]، فقد كانتا جميعًا جوابين متعاطفين بعاطف محذوف موضعهُ قَبْلَ «لَئِنْ ثَنَيتَ (...)»، يقسم واحد مذكور «لَعَمْرُ الَّذِي (...)» في خبر قسم إن في «إِنِّي (...)» المحيطة بالجملة القسمية كلها مهما تعددت أجوبتها

ثم عدل الأعشى أجوبة جملتيه القسميتين جميعًا بشروط وقوعها؛ فاعترض جملته القسمية في الفقرة الأولى بقوله «إِنْ جَدَّ التَّغْيِيرُ (...)»، في أثناء جوابها الأول، وقوله «إِنْ جَدَّتْ عَدَاوَتُكَ (...)» في أثناء جوابها الأخر، واعترض جملته القسمية في الفقرة الأخرة بقوله: «إِنْ لَمْ تَلْقَنِي حَمِيمًا (...)»، في أثناء جوابها الأول، وقوله: «إِنْ ثَنَيتَ بِنَا (...)» في أثناء جوابها الأخر، وجعل اعتراضاته كلها بجمل شرطية فعلية ماضوية لا أداة لها غير «إِنْ»

ولا اعتراض على هذا التخريج بامتناع نفي المضارع بلم في جواب القسم «لأنهم يتوقونه بي بجور حذفه بالاختصار (...)، والعامل الحرفي لا يحذف مع بقاء عمله، وإن أبطلوا العمل لم يتعين الثاني للمحذوف»[٣٢] الذي يقتضي تَحَمُّل جواب القسم «لَمْ تُلِفْنَا (...)» جواب الشرط قبله «لَئِنْ ثَنَيتَ بِنَا (...)»؛ مراعاة واقع السياق الشعر على ما فيه، أنها أهم من مراعاة جواز حذف الثاني من جواب القسم، ثم قد يكون هذا التركيب مما وقع شاذًا في هذا الباب»[٣٣]

ثم لا اعتراض على هذا التخريج أيضًا برواية البيت على النحو التالي:

لَئِن ثَبَتَتْ بِنا ضَغْنٌ جِبٌّ تَرَغَّوْ ... لا تَلْقَنا بِنْ وَسْطِ القَوْمِ تَعْتَزِلُ

شاهدُه «هو أنه يجوز بقلة في الشعر أن يكون الجواب للشرط مع تأخره عن القسم؛ فإن لام (لَئِن) موطئة للقسم، وقوله «لا تلقنا» جواب الشرط دون القسم، بدليل الجزم»[٣٣] متغاضلا عن أنَّ من أصول اللغة ألا تُسْقِطَ روايةً روايةً، ينبغي أن تحمل هذه الرواية متى صحت، على أنه من تقصير يد «هذ الطويلة»[٣٤]، وألا جزم ثَمَّ ولا جواب للشرط إلا المحذوف المدلول عليه بجواب القسم؛ هذا ما يقتضيه السياق الشعري كذلك.

ولقد أحاط الأعشى جملته القسمية في الفقرة الأولى بيمين كأنها من تشابهها ظهرا وباطنا بيت واحد هما قوله

لَعَمْري لَبِنْ رَهْطٌ عَمْرِو وإخوتِهِ ... عِنْدَ القَفَا وَقُرُّدِي ثُمَّ تَعْتَزِلُ

لَقَوْمٌ أَرْمَاحٌ ذي الجَدَّيْنِ تَرْزُقُهُا ... عِنْدَ القَفَا وَقُرُّدِيٌّ وَتَقْتَزِلُ

فعمل إبرامه سورتهم في اللاحق مجاز عن فعل إعرائه بهم في السابق، وأرماح ذي الجدين في اللاحق مجاز عن رهط مسعود وإخوته في السابق، والظرف ومضافه «عِنْدَ القَفَا» هما هما فيهما، وأداة العطف «الفاء» هي هي فيهما، وفعل إبرائه هو هو فيهما، وضمير المُرْدَيْنِ في اللاحق محذوف من السابق مفهوم سريعًا بوجوه بين رهط مسعود، والعاطف «الواو» في اللاحق بمنزلة العاطف «ثم» في اللاحق، وفعل اعترائه هو هو فيهما ـ فأفرق جملته القسمية الأولى في دَوْمَة التكرار، على حين لم يعمل مثل ذلك بجملته القسمية الأخرة.

ولكن مع ذلك كله تظل جملة الأعشى القسمية الأولى نحوية قطبُ حركتها فعله المتصدر فيها تقديرا «أُقْسِمُ» حتى إنه ما حُذِفَ تَصَدُّرَ جملتي جوابها فعلاه «أَعْرِفُ ( ) أَعْرِفُ» كذلك، إيماء بأن فعل تقسيمه هو أصل كل تحضير عسى أن يُتَبَرَّ، على حين جملته القسمية الأخرة اسميه قطبُ حركتها اسمه (ضميره) المتصدر فيها «رِبِّي»، إيماءا بأنه هو أصل كل تعظيم عسى أن يُتَشَبَّث به!

ثم إن الأعشى بالغ في تقصير جملة القسم من الجملة القسمية الأولى، حتى حذفها مكتفيا بلام القسم في [«لَأُعْرِفَنَّكَ ( )»، و«لَأُعْرِفَنَّكَ ( )»]، على حين بالغ في ذكر

جملة القسم من الجملة القسمية الأخرى («لَعَمْرُ الَّذي (...)»، حتى شغلت بيتا كاملا، مستدلا بالقسم به البيت الحرام أسوة بمن ذكر في ديوانه طرفا من مناسك الحج إليه.

ثم نبّر الأعشى جملة الجواب الأول من الجملة القسمية الأولى بين أطلال منزل يهان المقسم عليه فيها بأنه («كناطح صخرة (...)» حتى شغل بيتا كاملا صدر به مستلا شروعا، على حين اكتفى في جملة الجواب الأول من الجملة القسمية الأخرة بأن المقسم عليه سيكون «مثلة بِنَكُمْ»

ثم رمى الأعشى الاعتراض في الجملة القسمية الأولى بين أجزاء جملتي جوابها [«لأعرفنك إن حدّ ( ) ـ كناطح ( )»، و«لأعرفنك إن جندب ( ) ـ تحمل»]؛ فكان اعتراضا هذا من خلال اعتراض جملتي جوابها، على حين جعل الاعتراض في الجملة القسمية الأخرة قبل كلّ من جملتي جواب [«إن قتلتم (...) ـ لنمثلن بمثله»، «إن مُنيت بـ (...) ـ لم تُلفينا (...)»]؛ فكان اعتراضا هذا هي لا لجملتي جوابها.

ثم جعل الأعشى اعتراضه في الجملة القسمية الأولى بخمس جمل سلات [«جدّ النّفير بنا»، «شُبّب مُحَرّبُ»، «الخمسو»]؛ ثم الثنتان [«جدّت عداوتنا»، «النّوس لنصرُ بنكم»]، على حين جعل اعتراضه في الجملة القسمية الأخرة بجملتين واحدة «فتلتم عميدًا لم يكن صدقا»، ثم واحدة «شُبّت بنا عن غِبّ مَعْرَكَةٍ»

فِقَرُ الفقرتي جرير

[٢٢] ثم أقبل جرير يعبر جملتي عنوري فقرتيه بعضهما من بعض على النحو التالي.

أولا أسند جرير أولاهما إلى ضمير تكلمه «إنّي ( )» والأخرة إلى ضمير خطاب خصيمه وقومه «لن تُدْرِكوا ( )» على غير ما فعل الأعشى؛ فلم يكن له رغبة في تغيير حال خصيمه وقومه إلى أحسن منها، بل في كبتهم بسوطه فلا تقوم لهم قائمة أبدًا؛ ثم في جعل مسنده بضمير تكلمه خصيمهم بضمير خطابهم دلالة للمتلقي على أنه وحده كافلهم حيثما منّا.

ثانيا قدم جرير المسند إليه في جملة الفقرة الأولى على المسند وجعلها اسمية فطبّ حركتها اسمه (ضميره)، إيذانا بأنه هو أصل كل تعظيم وحريٌّ بأن يصدر عنه، على حين صدّر الفعل في جملة الفقرة الأخرا وجعلها فعلية فطبّ حركتها فعل خصيمه وقومه لتفي عنهم إيهاما بأن أفعالهم هي أصل كل تحقير وحريه بأن تُعبّرا وإذا كان قد عكس ترتيب الأعشى بفقرتيه، كان في هذا الوجه من التغيير جاريا مجراه.

ثالثا راد جرير جملة الفقرة الأولى تركيبا دون جملة الفقرة الأخرا، وحسبي أن أجد الجملة الأولى مبسوطة على بيتين والأخرى مبسوطة في بيت واحد؛ على حين بسط الأعشى قريتيهما عنده كلا منهما على ثلاثة أبيات.

لقد أسند في جملة شرطه الأولى إلى ضمير تكلمه مكرراً مشهوراً بالتمهيد للكلام «المرؤ»، فتبع به أن يضيف إليها ما يتمم له شيئاً شيئاً، ثم ختمها بجملة أسند فيها إلى ضمير تكلمه معنى العدل والشجاعة «لَمْ أَرِدْ (... »، ثم بجملة أسند فيها إلى ضمير تكلمه كذلك معنى الحمية والحمد «أحمي (»، فتمثل أن تكون حالاً من أحد ضميري تكلمه المتقدمين في جملة البيت السابقة [«لم أَرِدْ (»، و«المَنِيَّةُ (»] ولا سيما الأخير، وجعل فيها مجازاً وهو قوله «بِأَطْلِ المَجْدِ» يحتمل أن يكون حالاً من المضاف في «جاي» قبله، وأن يكون خبراً مقدماً على مبتدئه والمعطوف عليه «مَنِيَّتي ( ) وَالفَخْرُ (...)» في جملة حال من فاعل «أحمي» أو المضاف إليه في «جاي» الذي مضافه بمنزلة جزئه، وهو الأرجح لما سيأتي على التقديم والتأخير في جملة هذه الفقرة كلها:

١ «عَلَيَّ لِلنَّاسِ = لِنَاسٍ عَلَيَّ»

٢ «إِدْعَائِي لِلْحَرْبِ = لِلْحَرْبِ إِدْعَائِي»

٣ «مَنِيَّتِي (...) بِأَطْلِ المَجْدِ = بِأَطْلِ المَجْدِ مَنِيَّتِي (...)»

بتقديم معمولي المصدرين عليهما أولاً وثانياً، وخبر المبتدأ عليه ثالثاً، تمسكاً بما وراء التقديم في التركيبين الأولين من معنى الاختصاص الذي في قصر قلبه على ما سيأتي من معنى الحمية، تصديقاً لقوله مرة في جواب من سأله عن شتمه الناس: «لا أَبْتَدِي ولَكِنِّي أَجْتَدِي»(١) أي أُجازي، أخذاً بمشاكلة اجتناء لاقتضاء، جائز في قول الخلق ـ سبحانه وتعالى ـ: {مَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}(٢)، وتمسكاً بما وراء التقديم في التركيب الثالث من معنى التمدح الذي في نصر منزلته من أهله على أهل المجد، وألح كذلك على عطف الأشباه على الأشباه في آخر البيتين:

١ «لِلنَّاسِ عَلَيَّ = ولا لِلْحَرْبِ إِدْعَائِي»

٢ «مَنَّتْنِي نَبْتُ جَنْوَبٍ = وَالفَزَارِيُّ بْنُ قَيْسِ عَيْلَانَ»

إيغالاً في معنى التمدح، ولاسيما في التعبير الأول بآخر البيت الأول الذي أضاف إلى العدل الشجاعة وهما خلقان، على حين لم يضف التعبير الأخير مهما كان ـ إلى المنزلة من أمّ قومه إلا المنزلة من أبيهم، وهما متكاملان!

مثل جرير ذلك كله بجملة الفقرة الأولى على حين أسند في جملة فقرته الأخرى تأييد النصر من (دراك) المجد إلى ضمير خطاب خصمه وقومه، ولم يستتر منه هنا كذلك عطف الشيء على الشيء في آخر البيت، وهو المظهر الوحيد الذي يمكن عده في وجوه الاتفاق، ولكن لا ظهور له مع وجوه الافتراق العديدة!

رابعاً: أمضى جرير تركيب جملة الفقرة الأخيرة دون تركيب جملة الفقرة الأولى من عدة جهات مهمة، منها «أو» الأولى التي يقتضي ظاهر سياقها أن تكون بمعنى «إلا»

ويقتضي باطن سياقه أن تكون بمعنى «إلا»؛ فإن إدراك المجد الذي هو عند عامة الناس لا يحصل شيئًا فشيئًا، كما في قول ذلك الفضيل الجاهلي رحمه الله:

لأستسهلنّ الصعب أو أدرك المنى ... فما انقادت الآمال إلا لصابر[1]

يقتضي أن تكون «أو» في بيت جرير كما كانت في بيت الفضيل بمعنى «إلى» الملائم لما يحصل شيئًا فشيئًا. ولكن المقام لقصد جرير من رسالته بيان أن خصمه وقومه لم يسعوا للمجد أصلًا بله أن يكونوا بسببه، وألا سبيلة لهم إليه إذا خطر لهم مرة وثنوة؛ حتى إلا أن تشق لهم السماء عنه فيأخذوه لهم في رهط الخيال كما شقت لسعهم عن عائذة. وفي تأويل «أو» هنا بمعنى «إلى» كما كانت في بيت الفضيل تصحيح لمعنى هذا الشعر وقياس لما لا يقاس وتشبيه لما لا يشبه.

ومن جهات الاعتراض أيضًا الفعل «تشروا» الذي يجوز أن يؤول بمعنى «تبيعوا» فتكون الباء داخلة على المأخوذ، وبمعنى «تبتاعوا» فتكون الباء داخلة على المتروك، والأول أكثر كما في قول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾[2]، أي ليئس ما عوّضوا به أنفسهم[3]، وهو ما يقرب به تحكيم آخر البيت في أوله، فالفعل «تجعلوا» بمعنى «تصيّروا» و«تحوّلوا»، و«التوم» و«الطّمران» من صغار الشجر، أو هي يطلق عن حب يستعمل في شؤون كثيرة، وهب على مستعمله بعضها، وآخرها دق خشب يُخَطّ ولا أراه بعيدًا من «الطومران» أو «الطمران (ريحان البر)»[4]. فقد اقترح جرير بآخر بيته هذا «أو تجعلوا التوم ضمرانًا»، على خصمه وقومه يتركوا المجد ـ ولس يتركوه ـ أن يصيروا التوم وهو المذكور أولًا، إلى ضمران وهو المذكور آخرًا، فيكون تأويل «تشروا» «بتبيعوا» على الأكثر فيه، من مناسبة أول البيت لآخره.

ولكن في ذلك تضييق لخرق الشعراء فالعباءة من البسة العرب والقز من ألبسة العجم[5]، ولم يرد جرير إلا تعيير خصيمه العربي وقومه وهم نصارى، بتشبههم بالعجم كراهةً للعرب المسلمين الغالبين عليهم؛ ومن ثم كان «تشروا» بمعنى «تبتاعوا» على غير الأكثر.

لقد أخرج جرير جملة نقرته الأخيرة بيتًا صعبًا غريبًا، في تأييد المعنى على طريقة بعض الأمثال التعبيرية[6]، وكأنما أراده بمذهب مثلًا شرودًا لا يدع الناس السخرية به من خصيمه وقومه، كسائر أبياته التي انقض بها مضاجع مهجويه وأفلق رحمتهم؛ ولما كان قد هكّن مرتب الأمثلة لنقرته، كان في هذا الوجه من التعبير جريًا عجراء.

خامسًا: وَسْطَ جرير جملته الأولى في نقرها على ما فعل الأعشى، بحيث صارت هذه قلب الدور حوله صار جلها من قبلها ومن بعدها، هل حين أخر جملته الأخيرة في نقرها على غير ما فعل الأعشى، بحيث صارت هذا عاية تؤمها من هيلب سائر الجمل وتنتهي إليها

ما وراء تركيب المحاور

[٢٣] لقد أوشك الأعشى أن يدل بما سبق من وجوه اتفاق جملتيه القصيدتين (محوري نقرتيه اللتين انقسمت عليهن أجزاء الرسالة) على أن نقته به سيكون من يريد مثل نقته به سيكون منه هو، وهذا معنى جسورٌ لا قدرةَ له عندَه ولا مُتَّسَعَةَ له بيدَه إذ لا يمضي إلا إلى تُقْبِر المُتَوَعَّد وتضييع المراد؛ فخلط بوجوه الاتفاق وجوه الافتراق أخفت جسارته، وكثفت استدلاله، وخفَّتْ عطف المتلقي عليه وإنجاز مراده. ولقد أراد جرير أن يرفع نفسه إلى أعلى عليين ويخفض خصيمه وقومه بين أسفل سافلين؛ فحرى أن يستمر بين جملتي محوري نقرتيه الافتراق على النحو السابق، عسى أن يُظهِرَ الضِّدُّ الضِّدَّا

فُصولُ التَّأَتِّي

التَّأَتِّي بِتَحارُنِ العُشَّاقِ

[٢٤] إن إنجاز فصل الرسالة نفسه ولا سيما إذا كان من بابة الهجاء كالوعيد والذم الذين هنا، عَمَلٌ مُفْرِحٌ ربما كانت عاقبته لإنسانية النفسانية أن تَتَهَلَّلَ فصولُ التأتي بين المتلقين بالفرح تفيؤ ظل فصل الرسالة حتى تنتهي إليه، ولكن التَّحارُنَ الذي تَحَشَّتْهُ في شعري الأعشى وجرير ولا سيما في مادة هذا البحث، يَدُلُّ الدلالة على ما يدوم العناية بالمتلقين؛ فيس أعطف هم عليها من الحزن الذي يساويها قسميهن يبرآن من حوض وقوعهن إلى حوضهم وقوتهن.

وربما اقتضى التأتي بالتحارن إلى عطف المتلقين على رسالتين من بابة الهجاء، أن يكون على خلاف الزمان الذي يكرم اللئام ويهين الكرام، أو الذي يسمر بالبخلاء ويبخر بالشجعان مثلًا، ولكن اقتصار التحارن في فصول التأتي إلى المتلقين بشعري الأعشى وجرير ولا سيما في مادة هذا البحث، على خلاف العشق الذي يُبْتَلَى الأنفس الخالية الساكنة فيعليها أكثر مما يتعبها، يَدُلُّ الدلالة على ميل المتلقين جيئةً دائبًا إلى ما يشأ ويتطور بين الرجال والنساء.

تفصيلُ تعالي الأعشى وتوصلُه

[٢٥] لقد سمى الأعشى في فصل الخير بالسفر وإن عن عنه على ترديع حبيبته ـ كما سلف هي بالصدود في فصل الإعراض، فإذا إياب مألوفةٌ حين يعاد عنها وغالبًا حين انصرفت عنه، لأن الأول عن رضاها بعده والآخر عن رضاه ببعدها، كما كشف قوله في فصل الخير: «إنَّ الرَّكبَ مُرتحِلٌ» الذي قام فيه قائم السفر فأثره عليها، وقوله في فصل الإعراض: «رأتْ رجُلًا أعشى أضرَّ به ربْبُ المنونِ ودهرٌ مُفنِدٌ خبلٌ» الذي حالت فيه حالٌ فتغيرت به.

ثم أضاف فصلي حرف إلى دين الفصلين على حسب ألفٍ منهما؛ فعقب فصل الخير أورد فصل الاستحسان الذي تجلت فيه بمعرفة خبرة يتساقط الرجال لتساهيهم وعقب فصل الإعراض أورد فصل الاستدراك الذي بملأها فيه بمعرفة خبرة يتعجب في النساء الرجال لتشهوده، كما كشف قوله في فصل الاستحسان: «ليست كمن يكرهُ الجيرانُ طلعتها» الذي لم يملأ فيه بمعرفة المتعجبين من أحوال غانيّ، وقوله في فصل الاستدراك: «يصرعُها لِلذُّ الهزْلِ لا جافٍ ولا تَزِقٍ» الذي لم تستحص فيه على طالب.

ثم أضاف في فصل الخيبة تفسيرًا لذلك السفر؛ فقد أحبها حقوقٌ من دون قصده وأحب هي غيره عنوا من دون قصد؛ فلم يستقم بينهم علاقة ولم تصلح زيارة، ولكنه اتصف منها بأنه أحبت رجلًا لم يحبها، ثم بأنه هو والرجل الآخر قد أحبتهما خالدة لم يحباها، كما كشف قوله: «أكُلَّما تَرْتَمُ تَبْغي بِصاحِبِهِ نأيٌ وَهَجرٌ وتَحْبولٌ وتَحْتَلُ»، الذي كان فيه ويلًا عليها كما كانت ويلًا عليه، على سحر حرام لم ينج منه رجل ولا امرأة!

ثم حلقه على الرحلة عنها حلقة الخيبة الثانية التي أحاطت بأوتاد التجاهيل لتخاطبين، فلم تختص بالرجال دون النساء ولكنه لم يبسط فيها حتى مل في فصل الاستدانة على فروسيته؛ فلم يرحل عنها حتى اطمأن عليها في بيت وعمدة، كما كشف قوله: «يسْعى ويأتِرُ ما قد أصبحت غُرَرًا روْ تخلف عنها الفردُ والرَّسَلُ» الذي بدا البيت فيه مرسلًا منه هنا عن بعضه.

ثم أفضل في فصل الرحلة على الفلاة القاتلة المهلكة بقصوى أن يكون حاله عكس حالها؛ متداويًا من حمى الحب الحادحة بمبرّد الغيظ الأسي، ومن صحبة الخيبة المحالفة بصحبة الناقة الواثقة، كما كشف قوله: «حاورتُها بطليحٍ ضَرْزةٍ شَزِجٍ في بَرطَلَيْهِ إذا استَعرَضتَهُنَّ فَحَلُ» الذي كان يمثل تلك الفلاة وهذه الناقة شبهه فيه بما سواهما.

ثم أفضل في فصل التعليمي على الشراب والسباع والنساء بموازي حبك خيبة وسخريتها بحبك وسخريتها منه، ظاهر الفرح بخبرته الأمة على الفلاة الثلاثية، كما

كشف قوله: «في التَّجارِبِ طولُ اللَّهْوِ وَالغَزَلِ»، الذي جعل التلهي فيه عن الحبيبة كالتعلق بها؛ لتجاربَ من التجاربِ لن تنقطع

ثم أضاف أخيرًا فصل القريض (الرسالة) السابق بعينه في خلال ست عشرة فقرة [٨ ـ ٢٣] على سبيل الاستطالة التي تُشرِّعُها لمتلقيها قدرته السالفة على الرحمة وعلى التلهي جميعًا معًا، وكأن هذا القريض أُلْهِيَهُ من تلك الآلامِ!

تَفْصيلُ تَحاني جَريرٍ وَتَوَصُّلِه

[٢٦] وتعالى جرير في فصل البين بالبقاء لا السفر؛ فقد كان هو وحبيبته والدار التي عهدته وعهدتها، كانَ واحدًا عجيبًا مُثَلَّثَ الأرواحِ منفصلًا عما حوله من الناس والزمان والمكان، كما تنفصل السفينة المبحرة في أثباج البحار لا تُلْوي على شيء؛ فصار بَيْنَ حبيبته بِشَوْا من شَمْلٍ مُمَزَّقٍ ولَوْحًا من سفينةٍ غَريقٍ، كما كشف قوله: «لا تَبْتَغي بدلًا بالدّارِ دارًا ولا جيرانَ جيرانًا»، الذي خفيت فيه حقيقة معنى الوصل لديه

ثم تَخيَّلَ في فصل الرسول كلَّ راكبٍ راحلًا بين حبيبته، قديرًا على وَصْلِ الدارِ بالدارِ الذي عَجَزَ هو عنه؛ فتمنَّته سلامه وسلام الدار القديمة التي عهدته وعهدها عليه وعلى ديارها الحديثة، وتعلَّقه بها الذي لم يعهده حتى افتقدها، كما كشف قوله: «فَتِلْكَ بِنَ مَلْحٍ بِالصُّوَيرِ مُهادُنا»، الذي اتضح فيه تعلقه بالدار وتألمه لبعد القديمة من الحبيبة

ثم فَصَّلَ في فصل التأكيد كيف تَلَبَّسَتْ به حبيبه وأنَّه قبل رحيلها، وكأنه استبعد أن تعلِّقها الرسالة الآنفة، كما كشف قوله: «ضَنَّتْ بِعَوْرِتِهِ كانَتْ لَهُ كَرَمًا تَشْفي صَدى مُشتَهى القَلْبِ ظَمْآنا»، الذي تطلعت فيه عليه وعلى نفسها طريق الريِّ الجامعة الشامخة.

ثم رد فصلَ الوجد على فصل البين فاشتكى غربة الأشياء من حوله بعد بين حبيبته، وبدا كأنه ذلك البحر الماثلة سفينته قد أبقى بالغرق، كما كشف قوله: «لَمْ تُبْقِ بَعْدَكُمُ كالجِرْقِ جِرْمًا وَلا السُّلّانِ سُلّانا»، الذي أنكر فيه بَعْدَها كلَّ ما حوله

ثم تحين حبيبته في فصل الخيال قد أجابته وعطفت عليه وأسكنته من نفسها بعد إخلاصه لها الوجد بها، كما كشف قوله: «لا دَنَّيا كَمَنْيانا»، الذي ابتسمت فيه ذات الكيان الواحد العجيب المُثَلَّثِ الأرواح، ولكن خيالها تفلتت منه وعاد إليها؛ فأضاف إلى البين بينًا وبين الآلام آلامًا

ثم اضطر في فصل الرحلة إلى مسة التداوي بالرحيل الذي ليس من رأيه؛ فأخفقه في غياث وحبل حبيبته الذي من رأيها، حتى نكاد لا نقطع للمتأمل ريبةً في أنه رحل حبل الحقيقة كما رحلت؛ إلا أن يكون رحيله كان في خلال رحيلها مُلاوَزَةً لها وتعلُّقًا بها، حتى

يبس من ردهاء كي تكشف قوله «قَدْ قَطَعْتُ بَيْنَ الشَّوْطَيْنِ وَالزَّوْحَاءِ شَوْطَانِ»، الذي عَنَّى فيه عنه على تعريض، ولا سيما أنه تحين بعدئذ في فصل الذكرى بصور من صورها في الدار التي عهدته وعهدته حتى أثارته في ديل الصور صورةً بعض أترابها يحبون دونها؛ فاحتقره حاضيًا عليه متبنيًا أن لو دار الزمان فانتصف منه، كي تكشف قوله: «كُنْتُ شَيْطَانًا»، الذي أسف فيه على سوء الحال وضيعة المآل.

ثم تمّم في فصل الوعيد فقضيه حتى شمل به خصومه من الشعراء؛ فتخير لي في إفحامه هم جيمًا من مآثر سالفة ومشاهد باهية مستمرة، كما كشف قوله: «قَدْ حَدَّثْتُمْ نَفْسِي وَوُعِدْتُمُونِي»، الذي قدم فيه نصه عليهم وانذاره.

ثم أضاف أخيرا فصل الختم (الرسالة) السابق بحثه في خلال ست عشرة فقرة [٨ - ٢٣]، من باب إضافة الخاص إلى العام، اصطفاءً لأحد الشعراء الشعراء (الأخطل) الذي لم يكون إلا واحدًا منهم؛ فتحرى إفحامه بكل ما يشينه ويؤذيه من خصاله وممايبه هو وقومه.

لقد اجتمع الشاعران على تأتي إلى المتلقين بنحازين المُشاق، وعلى تقسيم فصول التأتي عن تسعة، ولكن كانت لكل منهما في توجيه التسعة الفصول وجهةٌ تولاه واعيًا أو غافلًا.

ما وَرَاءَ تَفْصِيلِ الْأَعْشَى وَتَوْصِيلِهِ

[٢٧] أما الأعشى فتقاوى على حيبته وتعزز وأدر على نصه أكثر فصول التأتي؛ فلم تخلص له إلا نصي الاستحسان والإعراض اللذين بدت في أرهي كأتي تحيرت لنفسها ما شاءت من طيب الصفات وفي آخرها كأنها اجترأت بها اتصفت من طيب تلك الصفات، وأما فصل الحبيبة فقد كان شركة بينهما، وأما فصول البين والاستعداد والطمأنينة والرحلة والتلهي فقد أخلصها لنفسه يرى فيها ويعمل ما يبدو له.

تَفْصِيلُ مَبَانِي الْأَعْشَى وَتَوْصِيلُهَا

[٢٨] لقد استهل قصيدته في فصل البين بإسناد فعل أمر توديع امرأة معينة إلى ضمير خطاب نفسه على التجريد «وَدِّعْ هُرَيْرَةَ»، فدل على أنه هو المسافر عنها البائن منها، وان بعضه يلوم فيها بعضًا. وتحرى في جزله الكاشف «إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ» أن يكون جملة اسمية مؤكدة «إن»، مسندة فيها صفة الارتحال إلى مصرف بأل العهدية؛ فبدا قوله الكاشف قدره المقدور الذي لا حيلة فيه إلا أن يخضع له.

ثم فتح فصل الربح، وسأتف في فصل الاستحسان إسناد طائفة من الصفات الفعلية معرفا وسركبة أولاها سبوقة صفة مشبهة، إلى ضمير غيبة هو مرفوعا المبتدأ المحذوف المفهوم «هي» فقرأ ﴿ ﴾ على منهج عمري أصيل في ذلك -أراد به الأعلى صرف المتكلمين عن الموصوفة المحذوف اسمها إلى صفاتها المذكورة بتأملوها كأنه هي التي أسلمهم. ونحوي في قوله الكاشف «ليست كمن يكثرة الجبران طلقتها» في يكون جملة اسمية منسوخة «ليس» مسندًا فيها شبه الجملة «من الجبران» المضاف إلى ضمير غيبة «ها» هذا قوله الكاشف عليه إليها التي تحسدها النساء عليها!

ثم فتح فصل الاستحسان، وسأتف في فصل الإعراض إسناد فعل ماضي الصدود «ت» إلى اسمها لا ضميرها ملتفتا عن ذلك الخطاب «﴿ ﴾» لا أولاها «﴿ ﴾» في آخر مكسر سابق لفظه، إلى عدل المتكلم «صَدَدْتُ هُرَيْرَةُ عَنَّا مَا تُكَلِّمُنَا» بوحا بما يجد من مرارة صدودها وغرابة شأنها. ونحوي في قوله الكاشف «رَأَتْ رَجُلًا أَعْشَى أَضَرَّ بِهِ رَيْبُ الْمَنُونِ وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ صَبِلُ»، أن يكون جملة فعلية مسندًا فيها فعل ماضي رؤية ورجل ضمير مستتر مخاطب الزمان إلى ضمير غيبة هو «ه» بعد قوله الكاشف مستعملة عليه أن أضمرها ظاهرًا عجزه عنها!

ثم فتح فصل الإعراض، وسأتف في فصل الاستفهام إسناد طائفة من الصفات الفعلية معرفا وسركبة أولاها سركبة حالة المدح الفعلية إلى ضمير غيبة هو مرفوعا المبتدأ المحذوف المفهوم «هي» يتم الضمير ﴿ ﴾ على المنهج العمري الأصيل السابق نفسه، وكأنما أراد أن تطبق الصفات الصفات، ليسع بعضها بعضا، ويقتنص الطيب الطيب ونحوي في قوله الكاشف «يصرعه إذا قرع» لا جاء ولا قبل» في يكون جملة فعلية مسندًا فيها فعل مضارع مجزوم بـ«إذا» الشرطية إلى ضمير الغيبة «ه» المحذوف وأل يحتمل المعرف بأل العهدية «القرع» أن يكون معرفا بأل الجنسية، هذا قوله الكاشف كيدًا له يقوم فقرأه عليها رسالة طويلة؟ وينبغي التنبيه على أن كلمة «جاء» غير صالحة للفاعلية؛ إذ لا يكتفي الفاعل «بلا» بعد فعله المثبت، فلا أقول مثلًا «جاء لا زيدٌ ولا عَمْرٌو»، لتناقض آخر عهد الكلام الذي وأوله. لتنبيه بل يكتفي الفعل قبل فاعله، فأقول مثلًا «لا جاء زيدٌ ولا عَمْرٌو» في مثالي، و«لا يصرعُه جاءٍ ولا يُقبِلُ» ، فتكون كلمة «جاء» هنا مسندًا للفاعل المحذوف على غير طريقة «قُمْ» ، مهيئًا به من الكلام قبله وبعده، «وإذا كان الكلام إنما يصلحه ويفسده معناه، وكان هذا معنى صحيحًا مستقيمًا لم أر به بأسًا»

ثم فتح فصل الاستفهام، وسأتف في فصل الغلبة إسناد فعل ماضي تغلب حيثه نبني للمجهول، إلى ضميره ملتفتا عن استيفاء هيئة «ذلك التعريف بأل العهدية «﴿ ﴾

الزَّمَخْشَرِيُّ ( ) في آخر ذكر سابق لقصد إلى حضور هذا الكلام «مُنْذُ عرفت» فيما قبله، بجعله هنا متوسطة من صفاتها التي لم يسلك هذا طلبا حين تعرفت له بها. وتحرى في قوله الكاشف «أَمْ مُنْذُ يَتَّجِهُ بِمَعْنَى مَا وَمَتَى وَمُنْذُ وَمُخْتَصٌّ بِهِ أَنْ يَكُونَ جُمْلَةً مَنْفِيَّةً مُسْنَدًا فِيهَا صِفَاتُ إِعْرَامِ الْمُدَّعِي وَصِفَاتُ تَعَارُضِهِمْ إِلَى الْعِشَاقِ الْمَذْكُورِينَ جَمِيعِهِمْ؛ لِهَذَا قَوْلُهُ الْكَاشِفُ تَقْدِيمُ التَّعْجِيبِ لِلرِّجَالِ بِنِ الْمُلَّا!

ثم طلع فصل الطائيه، وسأتم في فصل الطائيه. نبيه صل إسناد جملة الطلب السببية المصدرة بفعل إلى ضمير المخاطبين «يا مرّ بي على حارث لمّا بِتُّ أَرْقُبُهُ ( )» بمعنى: لصحبته إياه وشهادته عليه. وتحرى في قوله الكاشف «بِسَعْيِ يَبْرَأُ لَكَ قَدْ أَصْحَبَتْ عَزَّ رُوحُ؛ فَهَاتِفٌ عَنْهَا الْمُزَوِّدُ وَالْمُرْسَلُ» أن يكون جملة فعلية مستقبلا فيها فعل مضارع مبنيا لغير الغيبة إلى ضمير عبده الغارض؛ قد قوله الكاشف لمثله الشهم الحبيب المعتمد.

ثم طلع فصل الطائيه، وسأتم في فصل الرحلة إسناد جملة محذوفة مفهومة إلى نكرة مجرورة برُبَّ المحذوفة المستغنى عنها بوجودها «رُبَّتَمَ ( ) فصيٍّ حبيته. أهي لمحةٌ أم ملمةٌ، وسعرةٌ أم سعراتٌ؟ فإني «رُبَّ» بطبيل متأصل فيه أنه أجمل حتى صار مستعمله كالمضيع، وتكتم مصرع من ذلك الطليل فيه أنه أجمل حتى صار مستعمله كالخليفة - ثم حيّرها مرة أخرى. أهو سفر الراهي عنها بالهموم بحراوات شوزنه، أم سفر الغاضب عنها الغارب منه؟ فتأصل «رُبَّ» (حوابها) محذوفٌ بطبيعة مجرورها المستغنى عنه بها لفظًا. فصل ساعر كالنابغي في «أحدي ( )» أو المتنبي ( )» مقالا، جوابُ الكلام قبل «رُبَّ» مقدم سقل «ما أَسْلَفْتَ مِن ...» يمكن أنه يعني: أو «ما أَسْلَفْتَ من حبيبك أنه بلديه مقلٌ»، يمكن أن يكون قاله للأعشى صحة. وعد «رُبَّ» أن أجمل عامل «رُبَّ» (حوابها) هو الفعل الماضي في «جاور ب ( )» المحذوفة لدلالة مجرورها. ثم آثرت أن أقدره محذوفًا لما وجدت مثل هذا المذكور في كثير من الشعر القديم الذي فسر فيه علماؤه عامل «رُبَّ» محذوفًا، ولا سيما في فصل «رجعه» في لامية الأعشى التي بين يدي؛ فهذا سيبويه يقول: (سألت الخليل عن قوله - جل ذكره - ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فقال: إن العرب قد تترك في مثل هذا الموضع [الخبر] في كلامها لعلم المتكلم أي شيء وضع هذا الكلام. ورأيتم أنه وجد في الشعر تعرب (رُبَّ) لا جواب لها، من ذلك قول الشَّمَّاخ

وَدَوِيَّـــةٍ قَفْـــرٍ أَمُرُّ كَأَنَّهَـــا ... كَأَنِّي النَّصَارَى فِي جِعَافِ الْأَرَنْدَجِ

وهذه القصيدة التي فيها هذا البيت لم يجرِ فيها جواب (رُبَّ)، لعلم المخاطب أنه يريد (فَطَعْتُهَا)، وما فيه هذا المعنى[٣٢]. ثم راجعت ديوان الشيخ؛ فوجدت هذين البيتين من القصيدة الثانية

وَدَوِيَّـــةٍ قَفْـــرٍ تَمَشَّـــى بِهَامُهَـــا ... كَمَشْيِ النَّصَارَى فِي جِعَافِ الْيَرَنْـدَجِ
فَطَعْـــتُ إِلَى مَعْرُوفِهَـــا مُنْكَرَاتِهَـــا ... بِذِي خَبَبٍ آلِ الْأَمْعَـــزِ الْمُتَوَهِّجِ[٣٣].

وفي رواية أولها أربع مخالفات لرواية سيبويه، وفي آخرها ما يجري بمجرى عامل (رُبَّ)» (جواب) الذي قدره سيبويه. وقد كان عقق الكتاب العلامة عَلَّقَ على بيت الشماخ في نص سيبويه قَوْلَه: «الشاهد فيه حذف جواب (رُبَّ) لعلم السامع. وتقدير (رُبَّ قَوْرَاءَ قَطَعْتُ) أو نحو ذلك». وقد رَدَّ على ما نقله سيبويه عن الخليل من تأويله من حذف الجواب بأن بعد البيت:

فَطَعْـــتُ إِلَى مَعْرُوفِهَـــا مُنْكَرَاتِهَـــا ... وَقَـــدْ خَبَّ آلُ الْأَمْعَـــزِ الْمُتَوَهِّجِ[٣٤]

وفي روايته مخالفة واحدة لرواية الديوان. وكان محقق ديوان الشيخ عَلَّقَ على البيت الأخير قَوْلَهُ: «فَطَعْتُ: هو جواب (رُبَّ) المقدرة في البيت السابق»[٣٥]، أخذا لا ريب فيه بما سبق من تعليق محقق الكتاب العلامة. ولقد كان تحرير الخليل أحرى بالتأمل من كلمة سيبويه التي حَمَلَهُ عليها عدمُ روايته للبيت الأخير؛ فلو قد رواه لعرف أن عامل (رب) (جوابها) شيءٌ وَرَاءَ (قطعتُ) وما في معناه، يتبين بطول تأمل سياق الكلام؛ استهدت أن أثبته فيما سبق. ولقد تحرى الأعشى في قوله الكاشف «جَاوَزْتُ بِطَيِّحٍ جَسْرَةٍ شُرُحٍ في بَرْقَبِهِ، إِذَا اسْتَعْرَضْتَهُ خَبَلٌ»، أن يكون جملة فعلية مستأنفة فيه فعل ماضي مجاورة الدقة بإقامة شديدة إلى ضمير تكلمه؛ عدا قوله الكاشف علامه بهجة البريه بهضبه العافية

ثم قطع فصل الرحلة، واستأنف في فصل التهي ترتيب تركيد إسناد ثبات الأخلاق في أثناء التقلب بين حدي البؤس والنعمة إلى ضمير تكلمه، على إسناد رؤيته بالعين إلى ضمير خطاب حبيبته «إِمَّا تَرَيْنَا حُفَاةً لَا يَسَالُ لَنَا إِنَّا كَذَلِكَ مَا نَحْمِي وَنَنْتَعِلُ»، مسخرية من خيلتها بالتظاهر على الباطل الخصلة النسائية الأزلية الأبدية. لقد زاد «ما» على «إن»

في «إنّا» مؤكدا حال إيسامه الذي رأته عليها غير مشرئ منه، ولكنه زادها على «أتحمى وتتميل» مرة أخرى في جواب الشرط بعد أن كان حذف فاء ربط الجواب بالشرط و لا شك مؤكد أنه هو هو على رغم التقسم بين البؤس والنعيم، ولكنها لا ترى ما يسعى أن ترى[3] وتجري في قوله الكاشف «في التجارب طولُ النَّهْيِ والخَزَلُ»، أن يكون جملة اسمية مسندًا فيها شبه جملة حرفي متقدم يحتمل حرفُ «في» طُروءَ معنى «من» التبعيضية عن أصل معنى الظرفية فيها[4]، إلى مضاف إلى معرف بأل الجنسية مؤخرا فيد قوله الكاشف لصيحة المستغني.

ثم قطع فصل التغني، واستأنف آخرا فصل الوعيد (الرسالة)

ما وراء تفصيل جرير وتوصيله

[٢٩] وأما جرير فتضاعف خيبته وتأمل وادار عليها أكثر فصول التأني؛ فلم يخلص نصه غير فصلي الرسول والذكرى اللذين بدا في أولهما حريصًا على حاضر علاقته بحبيبته وفي الآخر حريصًا على ماضيها، وأما فصل الوحدة فقد كان شركه بينهما، وأما فصول اليأس والكآبة والوجد والخيال فقد أخلصها لخيبته يرى فيها ونصل ما يدور فيه، وأما فصل الوعيد فلم يكن من دأبة لحارس العشاق الذي استوى على فصول التأني، بل من دأبة الهجاء الذي استوى على فصل الرسالة، ولكن ما يأتي من دلالته على استواء المتمكن من الخيبة وصدارة الشعراء بمير قصيدته يرتفع هذا الفصل منها في مرتبة بين مرتبتي التأني والرسالة

تفصيلُ مَبانِي جَرِيرٍ وَتَوْصِيلُهُ

[٣٠] نقد استهل قصيدته في فصل اليأس بإسناد فعل ماضي البين إلى معرف بأل العهدية صيغةِ على فَعِيلٍ بمعنى مُتَفاعِلٍ أو مُتَفاعَلٍ مستغنى بها عن الموصوف (الخليطة) المفهوم من «بانَ الخَلِيطُ»[1] فإنه «إذا كانت المفاعلة بين اثنين جاء كل واحد منهما على (فَعِيل) كما جاء على مُتَفاعِل»[2] دلالة على المُبايَنة بين حبيبته وبين الدار وبينها وبينه، ثم على مبلغ الضرر الحادث بتعطيل البين لطبائع الأحبة. وتجري في قوله الكاشف «لا تَبْتَغي بدلًا بالدّارِ دارًا وَلا الجيرانِ جيرانًا» أن يكون جملة فعلية مسندًا فيها فعل مضارع زيدة تَبْتَغي الدار وإيثار المتغي بين ضمير تكلمه، مشتملة على ظاهرة يسميها النحاة «النصب على معمولي عاملين مختلفين»[3] فقد كان ينبغي في التركيب أن يكون «لا تَبْتَغي بدلًا بالدّارِ دارًا وَلا بالجيرانِ جيرانًا» بحيث يكون «بالجيران» معطوفا على «بالدار»

و«جيرانًا» معطوفًا على «دارًا» وكلا المعطوف عليهما عندك من معمولات «ابْتَغِي» لمعنى: هي حذف الباء من «الجيران» لضرورة كان هو وحده مطلوبًا على معنى: اقبل الدار، و«جيرانًا» على حاله، وكان الكلام ملتئمًا محتملًا على العموم عند طائفة من النحويين، وعليه غير محتمل على العموم عند طائفة أخرى، وغير ملتئم ولا محتمل متى كان على النحو الواقع في عبارة جرير الأنفة عند طائفة ثالثة من النحويين، لتباري الكلام وتواريه وجري آخره من أوله[٣٠] فيما قوله: لكاشف شهادة حاله الصادقة عن حقيقة نيته بمعنى امتزاج الأرواح الثلاثة امتزاج الصور وراء حقيقة الواحدة!

ثم قطع فصل البيت واستأنف في فصل الرسول بعد دعوة من لم يعبأ بتعريفه لك إلا بصفتين مبهمتين هما أيها الراكبُ المُرجي مطيَّتَهُ» جريًا على ألا يُعتَدَّ إسناد فعل أمر التبليغ من جهة الرجاء إلى ضمير المخاطب للمأمور «بَلِّغ لُحَيْتًا»، موقتًا الرجاء على غيبة مضافة إلى ضمير تكلمه، تنبيهًا له على أنه لن يقدر جوابيًا في حال الرسول إلا ببلاغ وقرى في قوله الكاشف «فَبِيتَ بين سَلَح وقُرْمُلٍ مُهدانًا» أن يكون جملة فعلية مستأنفة مبنيًا اسم فعل البعد عن دار العربية الحديثة إلى اسم مكان الإقصاء دارها القديمة التي عهدته وعهدتها، المضاف إلى ضمير تكلمه، عدا قوله الكاشف نوحًا من مصدوع عاجز عن رأب صُدوعه!

ثم قطع فصل الرسول، واستأنف في فصل المكيدة إسناد فعل ماضي القول لآخره بالتقاء إلى ضمير غيبة حيث «قالت أيْنَا (...)»، مباعدة لها منه قليلًا حتى يثب عليها علامات التكرير، وقرى في قوله الكاشف «فَبِتُّ بِتورِكَ كأنَّ لَ شَرَرًا تَشِبُّ صدى شِهابِ القَذْفِ طَفَّا[٣١]» أن يكون جملة فعلية مستأنفة ليبت فعل ماضي الفعل بالطريق مشتركًا إلى ماء الحياة، إلى ضمير عيبة حبيبته[٣٢] بعد قوله الكاشف استكثارًا شديدًا لجهلها حقيقة معنى الاحتراق الذي آمن به

ثم قطع فصل المكيدة، واستأنف في فصل الوجد إسناد اسم الاستفهام عن الغيبة إلى معرف بأل العهدية «أيْنَ الثَّلاثي (...)» اعتدادًا عن كيده اللاحق، فقد استعب حاله في الشعر مبتهلًا وفي الحضر متكورها، وقرى في قوله الكاشف «ثم تَلْقَ بعدكُمُ فالبرقِ جِرْقٌ ولا الشَّلاثي شُلاثاه» أن يكون جملة فعلية مضارعية مستأنفة ليبيت فعل مضارع أُلغيَ البيت الذي المعنى «بيت» إلى ضمير تكلمه، مشتملة على ظاهره المنصوب عن مفعول عاملي المفعولية السابقة ودلالاتها معنويًا بعد قوله الكاشف نُدبَةً نُدِبَ بها أحد عناصر ذلك المزاج المركب الثلاثة!

ثم قطع فصل الوجد، واستأنف في فصل احتمال إسناد فعل ماضي الطيران مع غيبة الغيبة إلى معرف بأل العهدية: «طارَ الهُزارُ مِنَ الحُزونِ التي طَرِقَتْ في الرَّوْم (...)» دلالة

على قصدا تعلق بها وشبهه بصبيه مبها. ولجرى في قوله الكاشف «لا ذَنْبَ لَكَ شَيْبٌ»، أن يكون جملة اسمية مسوقة «تعليل» التأنيه للجنس، مستأنفا بها شبه جملة جرى تشبيهي لا اسم تذكرة فبدا قوله الكاشف علامة ابتهاج وصف الكمال الواحد العجيب المنتشي الأرواح!

ثم طلع فصل الخيال، واستأنف في فصل الرحلة إسناد فعل ماضي لغب أي شيء من غيب مجهول مستهم عنه نيابة له، إلى ضمير خطابه على التجريد تجريدا وتوجيه «ما لَغِبَ بِنَ الأَظْمَاءِ (..)»، دلالة على سوء رأيه في الرحلة بالقطر إليها ولجرى في قوله الكاشف «قد تَقَلَّصَ بَيْنَ السَّوْطِ وَالرَّجْلِ صِرَارٌ»، أن يكون جملة فعلية مسندة فيها فعل ماضي تَقَلُّصِ الأرض بين الدار التي عهدته وعهدت حبيبه وبين غيرها إلى ضمير غيبة الوفي الراحلة به وبصحبه؛ فبدا قوله الكاشف نَزْعًا آخر من مصدّع عاجز عن رأب صُدوعه بعد قوله الكاشف السابق في فصل الرسول: فلم يرده بالرحيل الذي لم يكن من رأيه إلا صدوفًا؛ فوجه في السفر كوجهه في الحضر! ولقد ينبغي أن يكون ثَمَّ بحث محذوف دل عليه سياق الكلام من قبل ومن بعد ولا سيما إذا أُحِسَّ بِلَفْزٍ؛ حل مُنْقَبِضٌ، تقديره «صَوَانًا لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي أَنْ يَنْقَطِعَ» أو «صَرَّانًا فِي قَطْعِهِ لَطِيعُ رَجِبٍ أَوْ شَعْبَانَ» أو ما إليهما مما يناسب المراد المفهوم، ولا سيما أن الصَّوَانَ يجعارة يُقدحُ بها أو جِجارة شُوَّد ليست بصُبُرٍ، ولا غناء بهذا وحده في هذا المقام

ثم طلع فصل الرحلة، واستأنف في فصل الذكرى إسناد حالة المدح العملية الماضية المقدمة إلى مضاف إلى علَم مؤخر «يا حبذا جبلُ الرَّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ»، شوقًا وإفصاحًا إلى معهد الحب الذي نُكِّن في حاد من حسنه، واهتزازًا ظاهرًا للذكرى الحبيبة بأداة التنبيه «يا» التي تحتمل نداء محذوف مفهوم، ومرمًا حذفوا أنجع في الدلالة على المعنى المراد من خصوص ذكره. ولجرى في قوله الكاشف «لَكُنْتُ قَمِينًا»، أن يكون جملة اسمية منسوخة «ككاد» مسندة فيها صفة معرفة نكرة إلى ضمير تكلمه أسند على سوء فعال وشيمه ذاك، مشهورٌ في العرب عن الشيوخ حتى سموا الشيخ «كُثَيِّرًا» بكسرة قوله كُنْتُ كذا»!

ثم وصل فضيلة فعطف في فصل الوعيد إسناد فعل مضارع تُراء أيّ شيء منه (لاحتياله) مجهولٍ مستهم عنه استنكارًا له إلى مضاف إلى معرف بأل الحسب «ما يُدْرِي شُعَرَةُ النَّاسِ (..)»، حل شبهه في فصل الذكرى «مِنْ ذَا الَّذِي ظَنَّ يَفْلِي أَمْ أُزُورَكُمُ» ـ وإن اعترض بينهما بالدعاء بأداة عطف محذوفه مفهومة؛ فحل قول أن شعراء الناس حاذقون دون التسليم له بالصدارة هم وغريبٌ حبيبه حاذق دون تمكينه من لقائه سوءة بديه في الخصومة، وتسليمهم له بالصدارة وتمكينه له من حبته سواء لديه في القصد

قصيدته وحبيبه والدار التي عهدته وعهدها ثُمَّ مسوقاً تشوقُ كما سبق بن حقيقة واحدة! وخبري في قوله الكاشف «قد جعلوا بينهم نسبي وبين وحدتها» أن يكون جملة فعلية مستأنفة فيها فعل ماضي مبني للمجهول منقولاً كل واحد منهم بضميره ومصدريه مكتفياً كل واحد منهم بنفسه إلى ضمير يكلمه» فيما قوله الكاشف وجملة العار التي لن تزول عنهم تشنيعاً عليهم وتسفيهاً بهم!

ثم تقع فصل الوحيد، وستأنف أخيراً فصل الدم (الرسالة)

الاستئنافُ تفاصيلِ الفُصولِ

(٣١) لقد فصّل الشاعر فصول التأني بقطع تركيب أول لاحقها من تركيب آخر سابقها واستئناف تركيب أول لاحقها بعد تركيب آخر سابقها، وهو الاستئنافُ عند القدماء، وذلك أن يقطع الشاعرُ كلامَهُ الذي هُو فيه، ويستأنف كلاماً آخر غيرَهُ من مديح أو هجاء أو غيرِ ذلك ولا يكونُ الثاني علاقةً بالأول، وَهُوَ مَذْهَبُ العَرَبِ وَمَنْ يَليهِمْ من المُخضرمينَ[٣٦]. ولا ريب في أن استئناف التراكيب يعين الشاعر على تفصيل الفصول، ولكن الريب في زعم انقطاع علاقة آخر الكلامين فيه بالأول من أجل ظهور آخر تراكيب سابق وأول تراكيب اللاحق بالاستئناف وعدم تداخلها بالعطف وما أشبهه؛ فإنها لا تنقطع، بل تحفظ صلتُها على المُتأمل، ثم الريب في وقوعه عند الجاهليين (المعربة) والمخضرمين؛ فإنه لم يقف عندهم بل «الاستئنافُ أوقعُ في الشعر أكثر من أن يُحصى»[٣٧]، وهذا جَرِيرٌ الإسلامي الأموي قد جرى منه هوى الأحبة الجاهلي

ويبغي ألا يخرج من ذلك الاستئناف إلى التخلص ما كان وصلاً وعطفاً على مثل ما فصل جرير بتركيبي آخر فصل الذكرى وأول فصل الوحيد من عطف هذا على ذاك؛ فإنه قد أخرج الوصل والعطف فخرج القطع والاستئناف بحذف العاطف والاعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه حتى لكاد المتأمل يدخل هذا، ثم إلى التخلص عند القدماء إضافة بعض ما يخص الفصل اللاحق إلى طرف الفصل السابق، أو بأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فيبنيا مرموزه إلى أحدٍ في معنى آخر صريح وجعل الأول سبباً إليه؛ ليكون بعضُهُ آخذاً برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامَهُ ويستأنف كلاماً آخر، بل يكونُ جميعُ كلامِهِ كأنه أفرغ إفراغاً واحداً وطابق بعضُهُ بعضاً على جِدّةٍ، كما قال الشاعر وقوله قصرٌ[٣٨]

ولقد أحسن الشاعر إذ انتقل ولم يتخلص، فمتى ما قصيدتهم من استئناف أقطع أكثر مما تُرصّع؛ فلم يجد في كثير من عبارات التخلص ضرورة، غير كثير من علامات التكلف المنكرة!

ما وراء الأقوال المتناقضة

[٣٢] ثم قد أكثر الشاعران المتناقضان وراء عناصر فصول التأي كي نسير في العشر [٢٥، ٢٦، ٢٨، ٣٠] أقوالا معينة مختلفة، تَرَدَّدَتْ في أنفسهما من قبل تكوين أي فصل حتى استقرت في مواضعها، ثم ثبتت عليها فصولا حتى صارت محاور نفسية دارت عليها كتيبة كلما تأملوها أن تكشف لهم طرفا جديدا من مسيرة تفكيرهما، أو ربط بعضها ببعض في بني.

قد	الأعشى	جرير
١	إنّ الغريب لغافلٌ	لا تقلي بلا بغضٍ فؤادك لا لجبن جبرتا
٢	ليست كمن يكرهُ مجيرانُ الثقب	مهدت بيتي ملتقى الجيران مهدتا
٣	وإذا رحالا أنت مزمعة الفراق فجدّ عليلا	فدعي فؤادك لا يزال متيما إن التفرق للفؤاد تتيما
٤	يصرمها إلفٌ إذا ما صرمها	إنّا نقدّم كالأمور وبرقعا لا السلاح سلاحا
٥	أفدي ظعائنَ يمّمنَ العراقَ فأدلجنَ بالعيسِ أو هجّرنَ بالسَّحَرِ	لا تبعدي
٦	يسقي ديارا قد عفا آثارها مزنٌ دان مسف فويقها	قد هدمت بيتَ الشاعرِ طلحٍ والزوراءِ هدرا
٧	جاراتِ يثربَ بطنَ حزنٍ فالنخيـ	لا تبعدا
٨	لا تقربنّ حرامَ الفجورِ والبخلِ	قد حرمتكم نفسي ورشدها

ينبغي لتنبيه أولا على خفة وطأة العمل بفصول التأي على الشاعرين، فعلى حين انقسمت أجزاء الفصل على فقرتين في فصلي الرسالة، التأمت هي في فقرة واحدة في فصول التأي، ثم على حين تكشف في فصل الرسالة مراد الأعشى بقولين كاشفين في ستة أبيات ومراد جرير بقولين كاشفين في ثلاثة أبيات، انكشف في كل فصل من فصول التأي مراد الأعشى بقول واحد في بيت واحد من اثنين (سادسًا وسابعًا)، وفيما يجور بيتًا مخروتا عاجله الشاعر عندما سلكه في موضعه من فصله بإضافة الهاء إلى أوله مرة واحدة (خامسًا)، وفي شطر واحد مرة و حدة (ثانيًا)، وفيما يجور شطرًا مخروتا عاجله الشاعر عندما سلكه في موضعه من فصله بإضافة الواو إلى أوله مرة واحدة (ثامنًا)، وفي أطول من شطر وأقصر من بيت مرتين اثنتين (ثالثًا ورابعًا)، وفي أقصر من شطر مرة واحدة

(أولًا) ـ ومراد جرير بقول واحد في بيت واحد مرة واحدة (ثالثًا)، وفي شطر واحد مرة واحدة (ثانيًا)، وفيما يجور شطرًا غروره حاجبه الشاعر عندما سلكه في موضعه من قصيده بإضافة الهاء إلى أوله مرة واحدة (رابعًا)، وفي أطول من شطر وأقصر من بيت سلات مرات (أولًا وربعًا وسادسًا)، وفي أقصر من شطر مرتين اثنتين (خامسًا وسادسًا) ولا تتجاوز زيادة أقوال الأعشى لدورته بيتًا وشطر بيت جميعًا مرة وهي خمسة، على أقوال جرير الموزونة بيتًا وشطر بيت جميعًا مرة وهي ثلاثة ـ من دلالة على غنائية الأعشى السابق ذكرها في الفقرة (٥)، فقد كان أكثر انجذابًا في محاور بناء قصوله بين الأقوال الموزونة، وأما جرير فقد كان أكثر تمويلًا على روافد السياق الذي سيطبع فيه تلك المحاور.

ثم ينبغي التنبيه أخيرًا على دوران أقل أقوال الأعشى الكاشفة عنه هو حتى إذا ما استقرت في مواضعها وانبنت عليها قصوله دار أكثرها عليه هو، والتنبيه على دوران أكثر أقوال جرير الكاشفة عليه هو بصور مختلفة حتى إذا ما استقرت في مواضعها وانبنت عليها قصوله لم يدر عليه غير أقلها!

أما الأعشى فقد كان قوله الأول مثلًا مطلقًا من قيد الجهة، حتى إذا ما أضيف إلى «وَدَّعَ هُرَيْرَةَ» انصرف إلى الاستئناف عنه وصار المعرف بأل فيه «الرَّكْبَ» إلى العهدية التي تنوب فيها أل عن ضميره أي «الرَّكْبَ» وكيف؟ ـ وكان قوله السادس منجذبًا إلى ضمير خفية الغيب، حتى إذا ما أضيف إلى قوله «حَتَّى تَحَمَّلَ بِنَةً لَدَاجِ» انصرف إلى الحال من ذلك الضمير الكامن من الحيث المتموت في جواب صَحْبِ الأعشى طَلَبَهْ ـ وكان قوله الثامن مطلقًا من قيد الجهة، حتى إذا ما أضيف إلى «مِنْ كُلِّ دِيكٍ يَوْمَ لَذَّ خُوتَ بِهِ» انصرف إلى الحال من ضمير تكلمه وصار المعرف بأل فيه «التَّجَاوِبِ بِهِ اللَّهْوِ الْمَرَأَلِ» إلى العهدية التي تنوب فيها أل كذلك عن ضميره.

وأما جرير فقد كان قوله الأول مثلًا منجذبًا إليه حتى إذا ما أضيف إلى «خَيْرُ نِسَاءٍ» انصرف إلى الاستئناف عنه خضوعًا لسطوة دار الخيبة البائنة التي عهدته وعهدتها ـ وكان قوله الرابع منجذبًا إليه، حتى إذا ما أضيف إلى «لَنَوَى أَمْرِئٍ الْوَرَقِ» انصرف إلى الاستئناف عنه خضوعًا كذلك لسطوة دار الخيبة البائنة التي عهدته وعهدتها ـ وكان قوله الخامس منجذبًا إليه حتى إذا ما أضيف إلى «عَارٍ لَهُنَّ مَعَ الْخُرُوجِ الَّتِي طَرَقْتَ فِي النَّوْمِ (...)» انصرف إلى الاستئناف عنه انقطاعًا بوهم الوصال!!

لقد استأنف الشاعران مثلًا قوليهما الكاشفين الأولين استئناف تعليل على جانبين مذهبيين.

الجملة الشرطية	أداة الفصل	الفعل الكاشف للوجه
وإذا المَرْءُ	بلا	إنَّ المَرْءَ يُخبِرُ عن نَجْلِ
في الفَعَلِ	إذَنْ	لا يَنْتَمِي بِدَلًا بِالفَعْلِ دَنْوًا ولا أَجْدِرْ بِهِ جِيرا

وكان قول الأعشى منها مطلقًا من الاتجاه إليه، وقول جرير مقيدًا بالاتجاه إليه، ولكن لما كان الأعشى بادئًا باثًا مستعينًا بالسفر، وجرير مبدوءًا مبتدأ عنه متمسكًا بالمكان، وجزء حال كل منهما من ما يؤثره لأقواله الكاشفة عن رَغْبِي منه أو عَفْلَةٍ ـ تأكيد مُطْلَقُ الأعشى وأُطلِقَ مُقَيَّدُ جريرا

ولا ريب لدي الآن في علاقة ما انتهجه كلًا الشاعرين في فصول التأليف بما انتهجه في فصل الرسالة؛ فإنه لما لان الأعشى برعيده في فصل الرسالة فَسَا بتحازيه في فصول التأليف، ولما قسا جرير بلَمْثِه في فصل الرسالة لان تحازُّه في فصول التأليف؛ حتى أن تعدل عند منطقي كلتا القصيدتين جيدًا كيفًا سيراعيا؛ فتصور بقدرهم الذي يكمل لصاحبها بُلوغها مَبْلَغَها!

خاتمة

[٣٣] لم يخل اشتغال بمقتضى مقالة أبي عمرو بن العلاء ـ رضي الله عنه ـ هذه النبيهة «نظيرةُ (الأعشى) في الإسلام جريرٌ، ونظيرُ النابغةِ الأخطلُ، ونظيرُ زُهَيرٍ الفرزدقُ»[٣٣] من إجلال لما في موازنة الكلام العربي بعضه ببعضه من دعوة خالصة إلى بحث محوي واسع شامل، لا يتناهى في أية الجهتين إلى غاية، بل يراحب كلما سار فيه الحوريون، نائيًا عنهم خوفهم من نفاد مسائل البحث وتكرارها الذي يزوقهم، واقفًا عيرهم على جَلال ما يعمدون هذه الثقافة العربية الإسلامية المُشَرِّفة للصيغة، فاخترت لهذا البحث شعر أول أزواج الشعراء المذكورين بمقالته (الأعشى وجرير)

ثم لما وجدت كلا الشاعرين قد فَصَّلَ قصيدته إلى فصولٍ للرسالة صنعه أولًا ووضعه آخرًا وفصول للتأتي صنعها آخرًا ووضعها أولًا، عدت النظر في فصول رسالتيهما فانتهيت إلى اجتماعهما عليها، ثم إلى افتراقهما في مقاديرها، ثم إلى اجتماعهما على إطلاق أجزائها، ثم إلى افتراقهما في ذكر خصيصتيهما، ثم إلى اختصاص الأعشى بتقديم اسم رسالته قبل أجزائها، ثم إلى اجتماعهما على أقسام أجزائها، ثم إلى افتراقهما في أعصاب أعصابها، ثم إلى افتراقهما في تتابع أقسامها، ثم إلى افتراقهما في أزمان أجزائها، ثم إلى اجتماعهما على ما تَصَدَّرَ فيه شعر تكلمها من أجزائها، ثم إلى اجتماعهما على تقادير فَضَلَاتِها، ثم إلى اجتماعهما على أعداد النظر ومقاديرها، ثم إلى افتراقهما في منازل النظر، ثم إلى افتراقهما في تراكيب محاور النظر ـ وأخرت النظر في فصول التأتي، فانتهيت إلى اجتماعهما على التأتي بتحازن المشاق، ثم إلى افتراقهما في تفصيل إدماج وتوصيلها، ثم إلى افتراقهما في تفصيل إدماج وتوصيلها، ثم إلى اجتماعهما على انتصاب مفاصل الفصول، وذلك كله على النحو التالي في الجدول:

م	مسائل الاجتماع	مسائل الافتراق
	تفصيل القصيدة	مقدار الرسالة
٢	إصابة الرسالة	ذكر الخصيم
٣	تقديم تجزئة الرسالة	تقديم اسم الرسالة
٤	تجزئ الكلام	أصعد الأقسام
٥	تقلب فصل الرسالة	تتابع الأقسام
٦	النظر وأدباره	أزمان الأجزاء
٧	التأتي بتحازن المشاق	منازل النظر
٨	انتصاب مفاصل الفصول	محاور النظر
٩		تفصيل إدماج وتوصيلها

لقد ظهرت بين الشاعرين مسائل جامعة، ربما كانت وراء مقالة أبي عمرو بن العلاء رضي الله عنه ولكنْ ثَمّ مسائل أخرى مغرقة ظهرت على تلك المسائل الجامعة، وبين كانت وراء بقائهم جميعًا معًا في العربية شاعرين كبيرين، حتى قال يونس بن الجون العبدي راوية بشار «نحنُ حاكةُ الشِّعْرِ في الجاهليّةِ والإسلام، ونَحْنُ أعلَمُ النّاسِ به أعْشى بَني ثَعلَبَةَ أستاذُ الشُّعراءِ في الجاهليّة، وجريرُ بنُ الخَطَفى أستاذُهُمْ في الإسلام»[١٠٧]

حواشي الفصل الثاني

١ ابن سلام: ١/ ٦٦

٢ السابق: ١/ ٦٤، فقد نقل عن أصحاب الأعشى احتجاجهم له بأنه «أكثرهم هَرْوَشَة»، وهو ما ذكره في حاشية الصفحة المشار إليها، محققا محمود محمد شاكر ـ رحمه الله ـ بقوله: «هَرْوَشَني كثيرًا أي زاحمني وأخجلني، وكذلك هَرْوَشَ بي الأعشى».

٣ ضيف: ٣١٧ ـ ٣٢٤

٤ الأصفهاني: ٩/ ٣٢٢٩، وابن منظور: صنج.

٥ ومن ذلك قوله ـ الأعشى: ٥٩ ـ

«وَتُسْتَجَابُ لَهَالُ الصَّنْجِ يَسْمَعُهُ إِذَا تُرَجِّعُ فِيهِ القَيْنَةُ الفُضُلُ
بِي كُلَّ ذَلِكَ يَوْمٌ قَدْ لَهَوْتُ بِهِ وَفِي التَّجَارِبِ طُولُ اللَّهْوِ وَالغَزَلُ».

٦ ومن ذلك قوله ـ جرير: ١/ ١٦٥ ـ

«هَلْ تَرْجِعَنَّ وَلَيْسَ الدَّهْرُ مُرْجِعَهُ عَيْشٌ بِهَا طَالَمَا عَلَّقْتُ وَمَا لَاتَا
أَزْمَانَ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانُ مِنْ غَزَلٍ فَكُلُّ يَرْدِينَنِي بِهِ فَتَنٌ شَيْطَانُ».

٧ البحتري: ٥٦

٨ الأعشى: ٥٥ ـ ٦٣، وربما ظنّ حسنًا أن القدم هذه القصيدة بشرح بعض مفرداتها، ولكنني استحسنت ألا أفعل، فربما أفسدها تقديم مثل هذا الشرح، ولا سيما أن سياق البحث كفيل به.

٩ اكتفيت الأبيات متصلة الأسطار بلا بياض بين صدورها وأعجازها، إلا الأبيات المعترضة أو المقتاة التي اتضح فيها قصد الشاعر فيها إلى الوقف على أعاريضها تشبيها لها بضروبها ـ أخذا برأيه من أصالة القصد في عمل الشاعر وحداثة قصده في عمل الشروحي، على ما أخبرنا أستاذنا محمود محمد شاكر ـ رحمه الله ـ بمقابل قوله ـ شاكر: ٦٥ ـ ٦٦ ـ «جريت في هذه المقالات (نمط صعب ونمط عبيد) على كتابة بيت الشعر سطرًا واحدًا، ليس بين شطريه بياض، كما ألفنا في نشره من الشعر هذا، والقدماء كانوا يكتبون الشعر كذلك سطرًا واحدًا متصلًا في جميع مخطوطات القديمة»، وإن لم يجر هو نفسه على ذلك في كثير مما أخرج، فربما خالفه الطابع إلى ما هيأه هذه، ولا سيما أنني سمعته يتذكر كثرة أخطاء طباعة كتبه على رغم شدة عنايته بتدقيقها!

١٠ قسمت هذا الفصل على ثلاثة وعشرين، وتعمدت، قريبًا بحسب ظني بالي، تجنيب المقطوعين إعادة ذكرهما.

١١ جرير: ١/ ١٦٠ ـ ١٦٧، وكذلك استحسنت ألا أفسد هذه القصيدة بتقديم شرح بعض مفرداتها.

١٢ وكذلك قسمت هذا الفصل تمهيدًا وخاتمة.

١٣ ابن يعيش: ١/ ٤٤ ـ ٤٥

١٤ ابن دريد ٣٣٨، ٣٣٩، وكذلك ١٠٦

١٥ الجملة في هذا البحث مُرَكَّبٌ لُغَوِيٌّ مِنْ عُنْصُرَيْنِ مُؤَسِّسَيْنِ بينهما علاقة إسناد، وهي المضافات إليها نوعان أحدهما عناصر مُكَمِّلَةٌ (مُكَمِّلات)، وهي مضافات من طبقة العناصر كلها أو بعضها عناصر أخرى مُكَوِّنَةٌ (مُقترنات).

١٦ ويدل على ذلك تأمل ديوانه، ولا سيما جيده ـ الأعشى ١ ـ

«هل ما علمتَ وما استودعتَ مكتومُ أم حبلُ ما بكَ من سلمى مصرومُ»

وديوانه ـ الأعشى: ٢٢٧ ـ:

«الثوى وأحضرَ ليلةً يبرُوه وتغنى وأخلفَ من قُتيلةَ موعدُه»

١٧ الرضي ٢/ ٣٣٩

١٨ حسن ٤ ٤٨٤

١٩ البغدادي ١١/ ٣٢٧، وحسن ٤/ ٤٨٧

٢٠ ابن عصفور ١١٩ وما بعدها

٢١ ابن عقيل ١/ ٤٩٦، وقد نبه محققه العلامة في حاشية الصفحة، على ملاك كلمة جرير بأنه سورة البقرة

٢٢ البقرة من الآية ١٩٤

٢٣ ابن هشام ١/ ٦٤،

٢٤ البقرة من الآية ١٠٢

٢٥ ابن منظور سرى

٢٦ السابق، نسب رضعر

٢٧ السابق، خزز

٢٨ صبر ١٠٥ ١٠٦

٢٩ ابن جني ١٧٦ ـ ١٧٢

٣٠ حسن: ٢/ ٤٩٤، ومن ثم جعلوا من شروط حذف المنعوت صلاح نعته لمباشرة عامله إلا إذا كان المنعوت بعض كُلٍّ سابق المجرور «من» أو «في». وليس منه منعوت الأعشى!

٣١ ابن جني ٢/ ٤٣٥، على رغم بيانه شمة القرد بحذف الفاعل عند كثير من النحويين.

٣٢ الرضي ٢/ ٣٣٠

٣٣ ابن يعيش ٨/ ٢٩

٣٤ سيبويه ٣/ ١٠٣ ـ ١٠٤

٣٥ الشماخ ٨٣ ٨٤

٣٦ سيبويه ٣/ حاشية من ١٠٤

٣٧ الشماخ: حاشية ص ٨٤.

٣٨ ابن هشام: ٢/ ١١، فقد نسبه إلى ربيعة، وهو في هذا البيت مرتين.

٣٩ ابن هشام: ١/ ١٤٤ ـ ١٤٦.

٤٠ البغدادي: ٧/ ٥٧.

٤١ ابن الخشاب: ١/ ١٣٤، وابن هشام: ١/ ١٠٢.

٤٢ في منظور: ورد شرح فقد أشار إلى معنى الطريق إلى قفاه الذي في «الصرّ وقفاه» ومعنى الشاري في الحق الذي في «الصرّ».

٤٣ ابن جني: ٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

٤٤ ابن منظور: صول.

٤٥ الشيباني: كون.

٤٦ ابن الأثير: ٣/ ١٣١.

٤٧ الشنقيطي: ٣/ ١٤١.

٤٨ الشنقيطي: ٣/ ١٣١.

٤٩ الفارابي: ١٠٨٨، ١٠٨٩، فقد نبه على أن قصر الأفعال الموزونة هو الشطر (المصراع)، وأن أحدهما لا حد له، ولكنه يكون بمضاعفة ذلك الشطر (المصراع).

٥٠ ابن هشام: ١/ ١٤٣ فقد نبه على مسألة نبه إليها كل من الفراء، وجمهور الكوفيين، وبعض البصريين وكثير من المتأخرين، وهي في أمثلتهم ملحقة بالمعتلة.

٥١ ابن سلام: ١/ ٦٦.

٥٢ الأصفهاني: ٩/ ٣٣٣٢ ومن العجيب ما اجتمع عليه الأعشى وجرير، أن تسمى ابنة جرير بسلمى كاسم بنت الأعشى (سيأتي) القائل عن ابنته:

«إن بسلمى شذى في القول ألين»

وأن قيس جريرٌ بالرياسة بيت ابن الأعشى

كُتُبُ الفَصْلِ الثَّالِثِ

ابن الأثير (أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم الجزري): «المثل السائر»، قدم له وحققه وعلق عليه الدكتور أحمد الحوفي وبدوي طبانة، طبعته ونشرته دارُ نهضة مصر بالجالة القاهرة.

- ابن جني (أبو الفتح عثمان): «الخصائص»، حققه محمد علي النجار، وطبعته الطبعةَ الثالثة في ١٩٨٧م الهيئةُ المصرية العامة للكتاب.

- ابن الحاجب (أبو عمرو عثمان): «أمالي»، حققه الدكتور فخر صالح سليمان قدارة، وطبعته في ١٩٨٩م دارُ الجيل ببيروت.

- ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن): «الاشتقاق»، حققه عبد السلام هارون، وطبعته الطبعة الأولى في ١٤١١هـ-١٩٩١م ونشرته دارُ الجيل ببيروت.

- ابن سلام (محمد الجمحي): «طبقات فحول الشعراء»، قرأه وشرحه المرحوم محمود محمد شاكر، وطبعته مطبعةُ المدني بالقاهرة.

- ابن عصفور (أبو الحسن علي بن مؤمن الإشبيلي): «ضرائر الشعر»، حققه السيد إبراهيم محمد، وطبعته الطبعةَ الثانية في ١٩٨٢م ونشرته دارُ الأندلس ببيروت.

- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الكوفي الدينوري): «الشعر والشعراء»، حققه وشرحه أحمد محمد شاكر، وطبعته ونشرته دارُ المعارف بالقاهرة.

ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم المصري): «لسان العرب»، طبعته دارُ المعارف بالقاهرة.

ابن هشام (جمال الدين الأنصاري): «المغني اللبيب»، طبعته ونشرته دارُ إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه) بالقاهرة.

ابن يعيش (موفق الدين بن يعيش): «شرح المفصل»، نشرته مكتبةُ المتنبي بالقاهرة.

الأصفهاني (علي بن الحسين القرشي): «الأغاني»، حققه إبراهيم الإبياري، وطبعته في ١٩٦٩م ونشرته دارُ الشعب بالقاهرة.

- الأعشى (ميمون بن قيس): «الديوان»، شرحه وعلق عليه الدكتور محمد محمد حسين، وطبعته المطبعة النموذجية بالقاهرة، ونشرته مكتبة الآداب بجوار الفاهرة.

- البحتري (الدكتور سيد): «المعروفي وإيقاع الشعر»، طبعته في ١٩٩٣م الهيئةُ المصرية العامة للكتاب.

- البغدادي (عبد القادر بن عمر): «خزانة الأدب»، حققه وشرحه عبد السلام هارون، وطبعت الطبعةَ الثانية في ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م مطبعةُ المدني بالقاهرة، ونشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة.

- الجرجاني (أبو بكر عبد القادر بن عبد الرحمن بن محمد): «دلائل الإعجاز»، طبعته في ١٩٨٤م مطبعة المدني بالقاهرة، ونشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة.

- جرير (ابن عطية بن حذيفة الخطفي): «ديوانه»، حققه الدكتور نعمان محمد أمين طه، وطبعته الطبعة الرابعة ونشرته دار المعارف بالقاهرة.
- حسن (عباس): «النحو الوافي»، طبعته الطبعة السادسة ونشرته دار المعارف بالقاهرة.
- الرضي (محمد بن الحسن الاستراباذي): «شرح الكافية»، طبعته في ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م ونشرته دارُ الكتب العلمية ببيروت.
- سيبويه (أبو بشر عمرو بن قنبر): «الكتاب»، حققه عبد السلام هارون، وطبعته الطبعة الثالثة في ١٩٨٨م مطبعةُ المدني بالقاهرة، ونشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- شاكر (محمود محمد): «كتاب الشعر»، نسخة مصورة عن أصل لدي أستاذنا لم أجده منشورًا بعد.
- الضبي (ابن ضرار الديباني): «ديوانه»، حققه وشرحه صلاح الدين الهادي، وطبعته في ١٩٧٧م ونشرته دار المعارف بالقاهرة.
- صقر (الدكتور محمد جمال): «الأمثال العربية القديمة: دراسة وتحليل»، طبعته الطبعة الأولى في ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م مطبعة المدني بالقاهرة.
- ضيف (الدكتور شوقي): «الشعر والغناء في مكة والمدينة»، طبعته الطبعة الرابعة ونشرته دار المعارف بالقاهرة.

الفارابي (أبو نصر محمد بن طرخان): «كتاب الموسيقا الكبير»، حققه وشرحه غطاس عبد الملك خشبة، وراجعه وصدَّره الدكتور محمود أحمد الحفني، وطبعته دار الكاتب بالقاهرة.

الْفَصْلُ الرّابِعُ

بَيْنَ الرّافِعِـــيِّ وَشـــاكِرٍ

مُوازَنَةٌ نَصّيَّةٌ نَحْوِيَّةٌ

مُقَدِّمَةٌ

التَّثقيفُ العَرَبيُّ الإسلاميُّ

[١] إن عَجْزَ المُثقفين لم يأتهم جهلوه، فضاع إبانهم جاد وأجدبوا فيها واختفروا دون مُتناولِ عنه بإثبات حضوره وكأنَّ أمرَ يُحتِّم النَّظرَ فيه ويسرَ مُذْبِرٍ عنه إلى غيره من الثقافات وكأنَّ علمٌ يَنبغي أن يَبْرَأ منه دون مُقبلٍ عليها بالتعريف وكأنَّ فَرْضاً يَنبغي أن يُجتَنَب - حتى إذا ما تيسَّر لبعضهم أن يستوعبها حتى ثَمِلاً عليه أقطار نفسه، فيُوسِعَ بها حتى يصيرَ هو نفسُه مظهرَ كُنهها، ويُجرِّس عنها حتى يصيرَ هو نفسُه لسانَ حالها - أتى يتأتى إلى تعليمها، ويغري المثقفين بمراجعتها

ويبدو لي أن خَيَواتٍ الثقافات الكبيرة حيواتٌ مستديرة، تتوالى فيها من التجديد حديث، أحوالُ الوصال والهجران، والاستيعاب والجهل، والقوة والضعف. فقد نشأت الثقافة العربية الإسلامية في القرن الهجري الرابع عشر (الميلادي العشرين)، بمواقف من أولئك الخاصلين نشأتين الرائدين، ثم فداء وأقبروا و حَرَّفوا وتمكَّنوا، حتى نشأ مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ - ١٩٣٧م)، ثم تلميذه محمود محمد شاكر (١٩٠٩ - ١٩٩٧م) - رحمهما الله! - فلم يكونا إلا مُتقَصِّيَيْ أوبةٍ من استيعاب الثقافة العربية الإسلامية والإيمان بها والحرص عليها، وما أفضلا بتأتيان به إلى تعليمها والإغراء بمراجعتها، حتى استحدثا أساليب أدبية متعددة فحققا أثرت في المثقفين تأثيرًا شديدًا

أشدُّ الأساليبِ التثقيفيةِ تأثيرًا

[٢] ولكن ثمَّ أساليبَ تجاريَّ، كانا أشد أساليبها تأثيرًا:

١ تكميلةُ الكُتُبِ القديمة: فيه يكتبان نصوصها فيما يريدان أن يبناه لمعاصريهم من معالم الثقافة التي استرجعاها، على منهج كتاب عظيم أثيرٍ لدى مشروفٍ مشهورٍ لدى المثقفين، ثم يتبعان نصوصها تلك بما هما الكتابان، مُكْثِرَيْنِ بأكثر الراسخ في نفوس المثقفين، مُذْهِرَيْنِ أنه وقعت لكل منهما نسخة منه لم تقع لغيره حتى صاحب الكتاب نفسه، موهِمَيْنِ أنه لن يتمثل أحد من المثقفين من هذا عمليا!

أما الرافعي فنسب نصوصًا في خاصة بعض الأدباء إلى كتاب «كليلة ودمنة»، ثم قسمها كتابه «وحي القلم» وأما شاكر فنسب نصوصًا في خاصة بعض الأدباء كذلك، إلى الكتاب نفسه، على أثر استدعاه، ثم قسَّمها كتابه «أباطيل وأسمار»، ونسب نصوصًا أخرى في استشراف مستقبل الوطن العربي إلى كتاب «تاريخ الطبري»، ثم قسَّمها كتابَ «جمهرة مقالات محمود محمد شاكر»، الصادر بعد وفاته.

٢ ـ الحكمة في المجالس القديمة: فيه يكتب الكاتبان نصوصهم فيما يريدان أن يبينا لمعاصريهما من معالم الثقافة التي استوعباها، على نهج مجالس أعلام جلة ثقافتها القدماء التي يرويها الأخباريون، ثم يسبغان نصوصهما على رؤوس الأعلام، مُتَقَوِّيين بأثرهم الراسخ في نفوس المثقفين، مُدْجِين أنهما سمعا وشاهدا ما لم يسمعه أو يشاهده غيرهما حتى الأخباريون السابقون أنفسهم موقِنَيْن أنه لن يعمل أحد من المثقفين على نجاز عملهما هذا كذلك!

أما الراضي فروى نصوصًا في تهذيب الأخلاق النفسية والاجتماعية، عن بعض العلماء والزهاد، ثم ضمنها كتابه «وحي القلم». وأما شاكر فروى نصوصًا في تهذيب الأخلاق النفسية والاجتماعية كذلك، وفي تنبيه الوعي السياسي، عن أبي الخطاب عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغزلي المشهور، ثم ضمنها كتاب «جمهرة مقالات محمود محمد شاكر» بعنوان رقم وضع شاكر فوق عناوين نصوص هذا الأسلوب، عبارة «من مذكرات عمر بن أبي ربيعة»، يَسُوغُ من إضافتها إلى الأسلوب الأول، ألا وجود في الكتب القديمة، لما تشير إليه العبارة!

جوامعُ الأسلوبين وفروقُهما

[٣] وعلى رغم تجلي آيتين من اتصال الحاضر الدليل بماضيه العزيز (همّ الكاتبين) في نصوص الأسلوبين، استنادهما الماضي إلى الحاضر في نصوص الأسلوب الأول، ورحيل الحاضر إلى الماضي في نصوص الأسلوب الأخير، تميّز هذين الأسلوبين الاثنين في خلال ذلك الاتصال الواحد

١ ـ أن الأسلوب الأول أميل إلى الجزئية. وإن عُدَّ كتاب «كليلة ودمنة» في الكتب الفنية ـ من حيث يجري مجرى عمل المحقّقين، والأخير أميل إلى الفنية ـ من حيث يجري مجرى عمل القصاصين؛ فكانا حرصا الكاتبان على أن يسلكا إلى الخلق، كل سبيل!

٢ ـ أن أحداث نصوص الأسلوب الأول مُدَّعاةٌ على الكتب المنسوبة إليهما، وأحداث نصوص الأسلوب الأخير مُخْتَلَقَةٌ على أصحابها، وإن شابتها زيادات لا تؤثر فيها

٣ ـ أن افتراق الأسلوبين بما سبق، أفضى إلى كثرة نصوص الكاتبين في الأسلوب الأخير منهما في الأسلوب الأول، وإن كانت نصوص شاكر على وجه العموم أقل كثيرًا من نصوص أستاذه، شأنَ المعارَضِ مع معارِضِه. ومهما أحبَّ التلميذُ معارِضُ أستاذه المعارَضَ، وكان مُرْفِقًا في معارَضَتِه، فسيَظَلُّ أكبرُ إخلاصه له يتسيطه هو نفسه، ما دام فنانًا مبدعًا!

خصوص الأسلوب الأخير

[٤] ولقد كان في جلال العناية التي أمَّنها الكاتبان، وفي صدق معنى المدرسة الثقافية الواحدة بينهما، وفي نجاح أسلوبها الأخير الواضح في زيادة خصوصه على خصوص الأسلوب الأول - ما يستغرق تأمل النحوي، حتى يورد بينهما موازنة نصيه نحوية؛ فيشرح من معنى الغاية والمدرسة والأسلوب، ما يتقدم بدراسته النحوية في سبيل وعي علمي جديد.

- فانتخذت من نصوص شاكر هذه القصيلة، في الأسلوب الأخير
١ «ذكريات الطفولة»[١٣٠]، في الشدائد التي صادفها حتى مكتب
٢ «الحقيقة المؤلمة»[١٣١]، في ابتلاء به عروة بن الزبير
٣ «أيام حرجة»[١٣٢]، فيها ابتلي به ابن أبي عتيق.
٤ «جزيرة ميداد»[١٣٣]، في بعض المواقف العراقية.
٥ «الصديق إيليس»[١٣٤]، في بعض المواقف العراقية
٦ «الصديق إيليس»[١٣٥]، في بقية ذلك.
٧ «الحديث غداً»[١٣٦]، في إحلاء يهود عن بلاد العرب،
- إلى نصوص الرافعي هذا الكثيرة في الأسلوب الأخير نفسه.
١ «السر الخطير»[١٣٧]، في الحب بين الرجل والمرأة
٢ «قصة زواج وفلسفة مهر»[١٣٨]، في حسن اختيار الزوج.
٣ «ذيل القصة وفلسفة المال»[١٣٩]، في بقية ذلك.
٤ «الزوجة إمام»[١٤٠]، في مكانة المرأة
٥ «الزوجة إمام. بقية الخبر»[١٤١]، في بقية ذلك.
٦ «قبح جميل»[١٤٢] في حسن اختيار الزوجة
٧ «رؤيا في النساء»[١٤٣]، في حسن علاقة الزوج بزوجته
٨ «البنت الصغيرة»[١٤٤]، في الغيرة بالأبناء.
٩ «البنت الصغيرة»[١٤٥]، في بقية ذلك.
١٠ «الانتحار»[١٤٦]، في علاج اليأس من الحياة.
١١ «الانتحار»[١٤٧]، في بقية ذلك
١٢ «الانتحار»[١٤٨]، في بقية ذلك.
١٣ «الانتحار»[١٤٩]، في بقية ذلك.
١٤ «الانتحار»[١٥٠]، في بقية ذلك.
١٥ «الانتحار»[١٥١]، في بقية ذلك.

١٦ «السمكة»[٣٧]، في الإيثار على النفس.

١٧ «الرهبان»[٣٨]، في بقية ذلك.

١٨ «إبليس يعلم»[٣٩]، في بقية ذلك.

١٩ «الدنيا والدرهم»[٤٠]، في بقية ذلك.

٢٠ «الشيطان»[٤١]، في معنى الصلاح والفساد.

٢١ «الأسد»[٤٢]، في ثبات العلماء وكبر أنفسهم.

٢٢ «أمراء الجيش»[٤٣]، في جلال العلماء وسموهم.

مادَّةُ المُوازَنَة

[٥] تَلَمَّسْتُ كُلَّ زَوْجَيْنِ مُتَشابِهَيْنِ مِقْدارًا وَرِسالَةً، حتى ضَرَبْتُ لِبَعْضِ شاكِرِ الثاني «الحقيقة المؤنسة»، مِن بَعْضِ الرائِي الحادي والعشرين «الأسد»؛ فَفَصَّلْتُهما بِاسْتِوْعابِهما، وعَنَوَنْتُ فُصولَهما ورَقَّمْتُهما، وشَكَّلْتُهما، على النحو التالي.

«الأَسَدُ»، لِلرّائِيِّ[٤٤]

١١ [شَهْدَةُ وَفاةِ البَطَلِ]

«سَلَسَ أَبو عليٍّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الرَّوْذَباريُّ البَغْداديُّ في مَجْلِسٍ وَعَظَهُ بِمِصْرَ بَعْدَ وَفاةِ شَيْخِهِ أَبي الحَسَنِ ثَباتٍ بِالمِثالِ الزّاهِدِ الوايِطيِّ شَيْخِ الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ، وكانَ يُضْرَبُ المَثَلُ بِعِبادَتِهِ وَزُهْدِهِ، وَلَقَدْ خَرَجَ أَكْثَرُ أَهْلِ مِصْرَ في جِنازَتِهِ. فَكانَ يَوْمُهُ يَوْمَ تَأْبِينٍ مِنَ العالَمِ الآخَرِ لِأَهْلِ هذِهِ الدُّنْيا: ما بَقِيَ أَحَدٌ إِلّا اقْتَنَعَ أَنَّهُ في شَبَهِ الحَياةِ وَأَنَّ طَرِيقَها كَالأَمْسِ في سَوادِ تَضْيِيقِهِ بِيَنِ لَوْنِ التُّرابِ ولَوْنِ الدَّقيقِ؛ إِذ يَنْظُرُ كُلُّ مَرِيءٍ في خَصائِصِهِ وتَتابِيعِهِ بِشَيْءٍ هذِهِ النَّظْرَةِ بِالنَّفْسِ لا بِالبَصَرِ، وبِالتَّوَهُّمِ لا بِالتَّحْصِيلِ، وهي دَلِيلُ نَفْيِهِ في الشَّيْءِ لا على دَلِيلِ الشَّيْءِ في نَفْيِهِ، وبِالإِدْراكِ مِن جِهَةٍ واحِدَةٍ دونَ الإِدْراكِ مِن كُلِّ جِهَةٍ، ثُمَّ يَأْتي المَوْتُ فَيَكونُ كَالمَاءِ صُبَّ عَلَى الدَّقيقِ وَالتُّرابِ جَمِيعًا، فَلا يَرْتابُ مُبْصِرٌ وَلا أَعْمَى، وَيَبْطُلُ ما هُوَ بِاطِلٌ، وَيَحِقُّ الَّذي هُوَ حَقٌّ.

[٢ التَّطَلُّعُ إِلى لِقاءِ البَطَلِ]

وَتَكَلَّمَ أَبو عليٍّ، فَقالَ: كُنْتُ ذاتَ يَوْمٍ عِنْدَ شَيْخِنا الجُنَيْدِ في بَغْدادَ، فَجاءَهُ كِتابٌ مِنْ يوسُفَ بْنِ الحُسَيْنِ شَيْخِ الرَّيِّ والجِبالِ في وَقْتِهِ، يَقُولُ فيهِ:

لا أَدامَكَ اللهُ مُعَلِّمَ نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ إِنْ ذُقْتَهُ لَمْ تَتَذَوَّقْ بَعْدَهُ خَيْرًا أَبَدًا!

قالَ: فَجَعَلْتُ أُفَكِّرُ في طَعْمِ الخَمْرِ ما هُوَ، وَجَهِدْتُ ما لَمْ أَرْضَهُ مِنَ الرَّأْيِ، حَتّى سَمِعْتُ بِخَبَرِ بُنانٍ. زَعَمَ أَنَّهُ سَمِعَ أَحْمَدَ بْنَ طُولُونَ أَمِيرَ مِصْرَ يَقُولُ الَّذي كانَ سَبَبَ قُدومي إِلى هُنا لِأَرى الشَّيْخَ وَأُصاحِبَهُ وَأَنْتَفِعَ بِهِ.

شيء، تتحرّل عنه، فلا يكونُ به فيه من الوهم، بل بما فيه من الحقّ. وبه صَدَقَ النّاسُ هذا الرّجُل الذي يُعَدّهم بقوّته الصحيحة، فقلّل يصلُحونَ بقوله فكبارُ الصّالحين وكبارُ الزّهاد وكبارُ العُبّاد وكبارُ الشّجعان وكبارُ العلماء وأشباههم، فكُلُّ هؤلاء بهذا بابٍ واجب وكُلُّهم في جملة كبار المرء.

[٥ شهرة كرامة الفعل]

قال أبو علي: وسمعتُ مرّة أبا إسحاق الشّيخ عن خبره مع ابن طولون، فقطعني فيه، فلمّا أحتال بسؤاله عن كلمة قبيح الرّيّ: «لا أعدمك الله علم نفسك». وبينما أعيدُ في نفسي كلاماً أجري فيه هذه العبارة، جاء رجلٌ، فقال يشتكي

لي على فلانٍ مئة دينار، وقد غلب الوظيفة التي وجبت فيه الدّين، وأحبّ أن يُكبّر إذا هُوَ علم بحبسه، ليدفع الله عنّي وله أن يُقدّر بقدري وأن يُبَيّت عن الحقّ.

فقال الشّيخ: إنّي رجُلٌ قد كبرتُ، وأنا أحبُّ الحلوى، فاذهب، فاشترِ بطيخاً بمئة، وائتني به حتّى أذكر لك!

فلمّا ذهب الرّجُل، مشترى الحلوى، ورفعها له الباعةُ في زرفق، فإذا هي الوظيفة الضائعة! وجاء إلى الشّيخ، فأخبره، فقال له

عُد المشترى، فأطعمه حيث أبانك، لا أدام الله علم نفسك فيما تشتهي!

ثمّ إنّه التفت إليّ، وقال:

لَوْ أنّ شجرة اشتهت غير ما به صيغةُ وجودها، وكان منعها، فأبيحت علم نفسها، لأكلت نفسها، ولَمُتّ!

قال أبو علي: والمسيرات التي تحدث بالأنبياء، والكرامات التي تكونُ للأتقياء، وما يخرق العادة ويخرج عن السنن، كُلُّ ذلك تحويل القدرة عن الرّجُل السّامع لخبرها، فلم تبقَ لي حاجةٌ إلى سؤال الشّيخ عن خبره مع ابن طولون، وكنتُ أتأنّى أرى يجيئني رأسي كُلّ ما سمعتُ، لئلا أني لم أنصرف منه حتّى لقيتُ أبا جعفر الشافعي أحمد بن عبد الله بن مُسلم بن قُتيبة الدّينوري، ذاك الذي تحدّث بكتب أبيه قُتيبة بن جعفر، وبين واحدٌ وعشرون مصنّفاً، فيها الكبيرُ والصّغير، فقال لي

لعلّك استفدتَ بزّ خبر سلامة مع ابن طولون، فبين أجبته - زعمتَ - جئت إلى مصر؟

قلتُ: إنّه لواقعي، علم بخبرك، وجئت، فلم أسألهُ.

قال: فقال أحدّثك الطيب

[٦ صفة نصب الحلي]

كان أحمدُ بن طولون بن جارية تركيّة، وكان طولونُ أبوه، تملوكاً حتّى سرح بن أسبوه جاءل بُخارى إلى المأمون في كان مُوطّد عليّ بن المال والرّمي والسّراديب وغير ذلك،

وَضربَهُ روعُ الشَّيخِ، فلَمْ يَدْرِ بِهِ وبينَ الآدميِّ مَثَلٌ، ولَمْ يَكُن بِهِ بأسٌ لو لَحِمَ وَدَمَ، فلو أكلَ الشَّعيرَ والحَشيشَ والحَديدَ كانَ ذلكَ أقربَ وأيسرَ مِن أنْ يأكلَ هذا الرَّجُلَ المُتَمثِّلَ في روحانيَّتِهِ، لا يُحِسُّ بِصورةِ الأسودِ مَتى مِن تَعاطيها لِعافيَتِهِ، ولا يَرى بِهِ إلَّا شَباةَ حابِسَةً شَجَرَةَ بِطُولِ الخُطى الَّتي هُوَ مُؤيِّسٌ بِها ومُتَوَكِّلٌ عَلَيْها، فَحِمايَةُ السُّرادِ والنَّمْلَةِ وما هوَ بِها مِنَ الهَوامِّ والذَّرِّ، وَوَرَدَ الفَتْرُ عَن هذا القَلْبِ المُؤيَّدِ بِكَشْفٍ لَهُ عَن قُرْبِ الحَقِّ ـ سُبْحانَهُ وتَعالى! ـ فَهُوَ لَيْسَ بَيْنَ يَدَيِ الأسودِ ولَكِنَّهُ هُوَ والأسَدُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، وكانَ شَديدًا في يَحْيى هذهِ الآيَةِ {واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} ورَأى الأسَدُ رَجُلًا هُوَ خَوْفُ اللهِ، فخافَ مِنْهُ، وكَما خَرَجَ الشَّيْخُ مِن دارِهِ وَمَعايِشِها النَّاقِصَةِ، خَرَجَ الوَحْشُ مِن دارِهِ ومَعايِشِها فَوَحْشِيَّةُ فَلَيْسَ في الرَّجُلِ خَوْفٌ ولا هَمٌّ ولا جَزَعٌ ولا تَعَلُّقٌ بِرَجاءٍ، وَمِن هُنا لَيْسَ في الأسَدِ قَلَقٌ ولا هَمٌّ ولا جَزَعٌ ولا تَعَلُّقٌ بِرَجاءٍ، وَلَمَّا رَأى الشَّيْخُ نَفْسَهُ، فَكَأَنَّما رَأى الأسَدُ مَيِّتًا ولَمْ يَجِدْ فيهِ (أن) الَّتي يأكُلُها، ولَمَّا أنْ حَظَرَتْ مِن هَمِّ الدُّنْيا خَطَرَتْ عَلى قَلْبِهِ في بَعْضِ المَواضِعِ أو اخْتَطَفَتْ في نَفْسِهِ خاطِرَةٌ مِنَ الشَّكِّ، فاخْتَبَأَتْ رِعْدَةُ الخَوْفِ في حَواشي الأسَدِ فَتَمَرَّدَ في أنيابِهِ وَمَخالِبِهِ

[٧ ـ ٥ فَضيلَةُ الشُّهورِ]

قالَ: وَانْصَرَفَ عَنِ النَّظَرِ في الشَّيْخِ إلى النَّظَرِ في وَجْهِ الشَّيْخِ، فإذا هُوَ ساهِمٌ مُفَكِّرٌ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَجَعَلَ كُلٌّ مِنَّا يَظُنُّ ظَنًّا في تَفْكيرِهِ

فَمِنْ قائِلٍ: إنَّهُ الخَوْفُ فَجَعَلَهُ عَن نَفْسِهِ!

وَقائِلٍ: إنَّهُ الإشْفاقُ بِعَقِبِهِ إلى المَوْتِ.

وَثالِثٍ يَقولُ: إنَّهُ شُكورُ النِّعَمِ، لِأنَّ المَعْرِفَةَ هي الجِنْسُ، فَلا يَضْطَرِبُ

وَزَعَمَ جَماعَةٌ أنَّ هذهِ حالَةٌ مِنَ الاسْتِغْراقِ يَشْعُرُ بِها الأسَدُ!

وَأكْثَرُنا في ذلكَ وَالجَوابُ فيهِ، حَتى سَأَلَهُ فَقالَ: فيمَ تُفَكِّرُ؟

ما الَّذي كانَ في قَلْبِكَ، وفيمَ تُفَكِّرُ؟

فَقالَ الشَّيْخُ: لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ بَأْسٌ، وَلَكِنْ كُنْتُ أُفَكِّرُ في الجَوابِ لِلأسَدِ: أهُوَ حَلالٌ أمْ حَرامٌ؟

الخَطيئَةُ المُؤَبِّدَةُ لِلشاكِرِ

[١ قِصَّةُ عَوْنِ شابِّ نَبيلٍ]

«قالَ عُمَرُ بْنُ أبي رَبيعَةَ: فَبَدَرَتْ لِعَمْرٍو بِكَلِمَةٍ يَسْتَقِلُّ عَلَيَّ جِلْدي مِن شِدَّةِ العُذْرِ، فَقَدْ أكَلَتْ بَنِي الشَّرِّ وَتَرَكَتْني أبيتُ الكَبيرَ، في جَزيرَةِ رَوْضَةِ قَصْرِ أسيرِ المُؤَيَّدِ، حَتى تَقَطَّعَ أنفاسي بَيْنَ الجَهْدِ، وَتَلْتَقِيَ الآبِدُ

ما عَهِدَكَ يا أيُّها الخَطَبُ؟

فَقُلْتُ: اقْدَحْ لِي عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ نَزَلَ بِنَا مَا لَا رَدَّ لَهُ.

وَبَعِيشُهُ وَاللهِ إِنْ هِرَابِعِي لَتَرْعَدُ، وَكَأَنِّي مَحْمُومٌ قَدْ هَبَّتْ عَلَيْهِ هَبَّةُ رِيحٍ بَارِدَةٍ. وَهَابَ الْأَمِينُ، فَهُوَ إِذًا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَسْتَقْبِلُنِي لِلْفَزَعِ، وَقَدْ خَرَجَ إِلَيَّ. فَقَالَ:

أَيُّ شَيْءٍ هُوَ، يَا ابْنَ أَبِي رَبِيعَةَ؟

قُلْتُ: وَاللهِ مَا أَدْرِي - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - مَا كَانَ إِلَّا وَمُحَمَّدُ بْنُ عُرْوَةَ تَحْتَ سَابِيكِهِ، فَمَا رَالَتْ تَقْصِرُهُ بِقَوَائِمِهَا، وَمَا أَتْرُكُهُ إِلَّا وَقَدْ تَهَشَّمَ وَجْهُهُ، وَتَحَطَّمَتْ أَضْلَاعُهُ!

وَكَأَنَّمَا هَاوَنَنِي الرَّوْحُ، فِي أَشْعَرَ إِلَّا وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي يَنْفُخُ الْمَاءَ عَلَى وَجْهِي، وَقَدْ قُرِّبَ إِلَيَّ بِخُمْرَةٍ يَسْطَعُ مِنْهَا رِيحُ الْمَنْدَلِ الرَّطْبِ، فَلَمَّا أَفَقْتُ وَرَجَعَتْ إِلَيَّ رُوحِي سَأَلَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْهِ الْخَبَرَ.

[٢ صُورَةُ مَوْتِ الشَّابِّ النَّبِيلِ]

قُلْتُ: خَرَجْنَا أَنَا وَمُحَمَّدُ بْنُ عُرْوَةَ وَهِشَامٌ أَخُوهُ نُرِيدُ مَنْزِلَنَا مِنْ قَصْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، نَرْجُو أَنْ نَتَغَفَّلَ مِنْ بَعْضِ نِيَامِنَا، فَقَدْ أَلْهَبَتْ الْحَرُّ، فَنَظَرَ مُحَمَّدٌ إِلَى جَارِيَةٍ مِنْ جَوَارِي قَيْنَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ:

أَتَذْكُرُ يَا أَبَا الْخَطَّابِ حَاجَتَنَا بِذَلِكَ؟

قُلْتُ: أَيَنْهَضُ، فَقَدْ أَكْثَرَتْ وَصْفَكَ الْحَيَّ؟

فَقَالَ: شَرِهَانَ مَا نَسِيَ الشَّيْخُ لَقَدْ كَبِرَتْ، وَاللهِ يَا أَبَا الْخَطَّابِ! وَقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي بِأَنَّهُ كَانَ مِنْكَ، فَقَدْ كُنْتَ تُسَايِرُهُ وَتُحَادِثُهُ، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ سَأَلْتَ:

وَأَيْنَ زَيْنُ الْمَوَاكِبِ، يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ؟

فَقَالَ لَكَ: أَمَا تَرَاكَ

فَأَرَدْتَ تَرْكُضُ رِجْلَكَ تَطْلُبُنِي، فَقَالَ لَكَ:

يَا أَبَا الْخَطَّابِ، لَوَدِدْنَا أَنَّهَا تَرَاكَ لِمُحَادَثَتِكَ، وَنَحْنُ أَوْلَى أَنْ تُسَايِرَنَا!

فَقُلْتَ لَهُ: بَلْ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! وَبَكَيْتَ مُعَرَّى بِهَذَا الْجَمَالِ، أَيْنَهُ حَيْثُ كَانَ!

ثُمَّ عَدَلْتَ بِرِجْلَتِكَ، وَغَمَزْتَهَا، وَأَقْبَلْتَ إِلَيَّ، وَجَعَلَ أَبِي يَتَعَجَّبُ مِنْكَ وَيَضْحَكُ، وَقَدْ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ! إِحْدَى سَوْآتِكَ هِيَ، وَاللهِ، يَا أَبَا الْخَطَّابِ!

فَضَحِكْتُ لِقَوْلِهِ، وَنَاوَلْتُهَا الْحَبِيبَةَ، وَإِذَا هُوَ سَاكِنٌ سَاجٍ كَأَنَّمَا غَيْبَتْهُ غَاشِيَةٌ عَنْهُمْ.

فَقُلْتُ:

مَا بِكَ؟

فَزَفَرَ - وَاللهِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - زَفْرَةً كَأَنَّ الْتَنَفُّسَ لَمْ يَجِدْ فِي، ثُمَّ قَالَ:

أرأيت هذا الجبل الذي يُبصر يا أمير المؤمنين، يوشك أن يكون طعاماً يلتقمه البحر
فيصير ما يرى إلا عظماً أخضر من خضرته ونضرة الزهر من عُجبه؟

قد رأيتُ، والله يا أمير المؤمنين، حتى تصوّرتُ وما هي بطرفة فأردتُ أن أصرف له
من بعض وهمه أن يكون الطعام قد أزمع عليه، فرفع صبيّه فالتقطه حيث هي سطح
الثبج فاستقلّ بطنه، وتشوّف الشراب به وأقلت سفينة وتبعتُ وهو من بعض الطير،
وإذا طائر أجوف يتصدّى بعد جوف، ثم رأيتُ فكسر له بين الإبهام، ثم سقط، ثم مرح، ثم
اضطرب فما كاد يتقلّ الطعام، فعرى إليه فالتقطه من أعلى طعام مخلف الطائر، فعرى
إلى عُنقه يلتمس له في ري، والله، عُنقاً قد مصّ أعلاه، مطلعه، فعرى به إلى إضطراب
الحوت، فبلغ بها القرار، فتحيّر، وإذا بين أنيابه كأنها مصارع حصرية في أفركة
والله يا أمير المؤمنين، إلا خلقة قد بعثت رُعْبها، وما نرى إلا أنهم رحمة الله عليهم
قد

[٣ قصة الملك وخوفه القتل إن قتلت الشيخ]

قال أمير المؤمنين: يا عُتبة إنّ راجعون، يا عُتبة ويحك ما فكّرتَ فيما فكّرتُ فيه
من الأمر، وما ذا لي وبه؟

قلتُ فيم ذلك يا أمير المؤمنين، وقد لقيتَ من القتل ما

فقال: أما هذا أيها الشيخ، فاسترح واستر الرأفة، فما أسرع البرء عند الله فسيح
يوشك أن يصاب في حبه

قلتُ يا أمير المؤمنين، هذا فصاله في ليله، في نصاله في شبه؟ إلا أن يكون كبيراً قد
يئسه، وسأحتال له

قال أمير المؤمنين: مهلاً يا عُتبة، قد عجبتُ أن أبى عليه قتل ابن الملك، وما
وال يتكلّى، فتنا بحرٍ تسامه خوشٍ، إذ دخل علينا أمير الملائكة المطيب، فسألتُ أن
يعيد الله له ولداً إلى الملك حتى يرى، ويشفي في ولده إلا أن الملك يقول إن
الأكفاء، وإنما قد ولّيتُ ثريد الرأفة، وإنّ إنما يجب الرأفة التي هي حسد، فلم
يستقم لي بدٌّ من أن أخضع وعلمتُ أنه يجب أن تثبت الأعلا إلى حيث لا يصنع الخضوع
ولا الخيرُ

فرجعتُ والله إليه بأرفق ما يكون، وأخلقه به القدرة على شيخ مثل أبي عبد الله في إبدي
الشفير، وأعطى أمير المؤمنين يديه، وقال: ما حسب عيسى خلاصه، وإنما وجوه الناس قد
جلسوا إليّ عُرْضاً في عبد الله يرمونه ويضربونه ويذكرونه بالشر عند الله عنده، وشرّه وإنما
يهم سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين، وعمر بن عبد العزيز، والصالحين من الخلق،
وعبد الله بن عبد الله بن عُتبة بن الخطاب، وقد حضره، وقد جثا، عُرْضاً قد نكبت بزنه

من الحزن على أخيه والرحمة لأبيه. وأقبل أمير المؤمنين وأصحابه على عُرْوَة، فتفرق الناس إلى مجالسهم، وإذا عُرْوَة كأن ليس به شيء؛ يرف وجهه كأنه بلقعة قمر وهو يضحك، ويقول:

لقد كرهت - يا أمير المؤمنين - أن يقطعوا مني عضوا بعضو حتى يخطئ ظني بعضو، فلقد حدثت أن أبا بكر قال

يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية {ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به}، فكل سوء عملناه جزينا به؟

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: غفر الله لك يا أبا بكر! ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟

قال: بلى، يا رسول الله

قال صلى الله عليه وسلم فهو ما تجزون به؛ فإن ذلك بذاك

لوددت - يا أمير المؤمنين - أني بريت بدائها فهي كفارة تحت الذنب.

قال أمير المؤمنين: غفر الله لك، غفر الله لك! وما أصحب لصبرك! فأنت أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين، وأبوك حواري رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وابن عمته الزبير بن العوام، قرني الله عنك، وألزمك، يا أبا عبد الله!

[1 قطع رجل البطل]

[1 - 1: عيفة العليب]

ما جدنا نقوم حتى أقبل أبو ملكم. وهو شيخ نصراني طويل ذارع مشرع العظام، قد تحدد لحمه، أحمر أزهر أصلع الرأس، إلا شعرات بيضا قد بقيت له، كأن لحيته طويلها، لو حركتها الريح لطارت به.

[1 - 2 يقود البطل]

ودخل أبو الحكم وراء لحيته وهي تسعى بين يديه، حتى وقف على عُرْوَة ابن الزبير، فقال:

لا عدمنا ليثا مثلك - يا أبا عبد الله - وإني - والله - لأرحمك، وأحشى أن يبلغ بك جهدك، فما أرى لك إلا أن تستبقي نفسك حتى لا تجهدها في التعليم

قال عُرْوَة: أتعدد الله من شيخ ويئس - والله - ما رأيت! إنا - والله - ما نحب أن يرد الله بحيث نستمتع بخرابه على ما نرجو من عافيته

قال أبو الحكم: فتستبقي نفسك المريد، يا أبا عبد الله؟

قال عُرْوَة: ما أحب أن أسلب عضوا من أعضائي وأن لا أجد ألم ذلك فأحتسب عند الله

قال أبو الحكم، وفاك الله، يا أبا عبيد الله! لقد ألممت بنا فجأة كانت عابرة
ثم التفت أبو الحكم إلى رجال سود جلاميد شديدو قد وقفوا ناحية، فقال
أقبلوا.
فأقبلوا، فتلمذهم عروة فأكرمتهم، فقال
ما هؤلاء؟
فقال أبو الحكم يمتحركك، فإنك لا أم زيا عرفت قدر الصبر
قال عروة: أما تكرع - أيها الشيخ - عن باطلك! اقصر قراءتك خاسئ الله! وإني لأرجو أن
أخبركم دينك من نفسي. ولا - والله - ما يستغني أن معه الحائط وقال أدناه، فاحتمل حتى
أليه. أقبل يا - أبا الحكم - وتعلم بي جئتك به (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا
بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتنا ما وعدتنا
على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد)
[٤ - ٣: مجلس القطع]
فرأيت أبا الحكم وقد ترقى وجهه وتولد كأنما أسلم تعذ نظر، ثم نشر درجا كان في
يده، وأخرج بمشارة دقيقة طويلا صغيرا يضحك فيه الشعاع، ووضع الطست، ومد أبو
عبيد الله رجله على الطست وهو يقول
باسم الله والحمد لله وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله (ربنا ولا
تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا) ثم قدم - يا أبا الحكم - فقرب حتشيثه
منه
فما تبين والله أحد في المجلس إلا استدار، ووقف وجهه في كفه، وتكى القوم، فصلا
لشيوخهم، وإن عروة لساكن قار يبصر بين ما يراد به، وكأني ملتفت فإذا جماء بين الأرض
يستقبل الأنهار يروح بين السماء.
[٤ - ٤: عمل القطع]
ووضع أبو الحكم بمشاره في اللحم إلى العظم وإن عروة لصابر يؤتمه ثلاثا، / ١ ثم
تغير وجهه، / ٢ ولا تقبض وانتشار بأكل في عظمه حتى، / ٣ وما يريد على أن يتململ
ويتكبر ويسبح الله وكأن الدم - والله - / ٤ قد أصابه جزءا كأنه شعاع ينسكب من قميله
وتكبيره / ٤ ودخل رجال يحملون مغارف من حديد يفور منها ريح الزيت، وقد غلى فيها
على النار، / ٦ وقدراه / ٧ فما عر إلا أن فرغ أبو الحكم وقد فار الدم منه وانفجر مثل
الينبوع، فأخذها أبو الحكم بغمسها في الزيت، ليسكن لهيبها به حتى حسم الدم، / ٨
وإذا عروة قد غشي عليه، / ٩ وإذ وجهه قد صفر من الدم، وقد تجهد، فتقلص وجهه
بالعرق، ولكنه بقي منكرا ما تيرف كأنه عرارة لحب الندى / ١٠

[٤ - ٥ دَهْشَةُ الطَّبِيبِ]

قَالَ أَبُو الْحَكَمِ

مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّهُ رَجُلٌ، وَإِنَّهَا لَخَلِيفَةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ إِيمَانَهُ لَيَحُوطُهُ، وَيُثَبِّتُهُ، وَيَنْفُضُ عَنْهُ الْجَزَعَ

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى عُرْوَةَ يَقُولُ:

جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! لَأَنْتَ - وَاللهِ - بِكَمَالِ الصَّبْرِ فِي إِعْلَاجِ رَجُلٍ

[٥: انْتِبَاهُ الْبَطَلِ إِلَى رِجْلِهِ الْمَقْطُوعَةِ]

وَمَا لَبِثَ، حَتَّى إِذَا أَعَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ جَلَسَ يَقُولُ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالْحَمْدُ للهِ!

وَيَمْسَحُ عَنْ وَجْهِهِ الرَّوْعَ وَالْعَرَقَ بِكَفِّهِ، وَيَنْظُرُ، فَيَرَى قَدَمَهُ فِي يَدِ رَجُلٍ يَهُمُّ أَنْ يَخْرُجَ بِهَا فَيُنَادِيهِ

عَلَى رِسْلِكَ، أَيُّهَا الرَّجُلُ! أَرِنِي مَا تَحْمِلُ؟

فَيَأْخُذُ قَدَمَهُ فِي يَدِهِ، فَيَرُدُّ إِلَيْهَا وَقَدْ سَكَنَ وَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ، ثُمَّ يُقَلِّبُهَا فِي يَدَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهَا

أَمَا وَالَّذِي خَلَقَنِي عَلَيْكِ، لَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي مَا مَشَيْتُ بِكِ إِلَى حَرَامٍ وَلَا مَعْصِيَةٍ. اللَّهُمَّ، هَذِهِ بَقِيَّةُ أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ، ثُمَّ سَلَبْتَنِيهَا، أَحْتَسِبُهَا عِنْدَكَ رَاضِيًا مُطْمَئِنًّا، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. ثُمَّ قَالَ، أَيُّهَا الرَّجُلُ

ثُمَّ أَضَاءَ وَجْهُهُ بِالْإِيمَانِ وَالصَّبْرِ عَنْ مِثْلِ الدُّرِّ فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ

غَفَرَ اللهُ لَكَ، يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! وَإِنَّ فِي النَّاسِ لَمَنْ هُوَ أَعْظَمُ بَلَاءً مِنْكَ. يَا عُمَرُ، نَادِ الرَّجُلَ مِنَ الْغَدِ

فَيُقْبِلُ عُمَرُ وَمَعَهُ رَجُلٌ ضَرِيرٌ مُحْتَرِمُ الْوَجْهِ لَا تَرَى إِلَّا دَمَامَتَهُ، فَيَقُولُ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ

حَيَّاكَ أَبَا عَبْدِ اللهِ بِخَيْرٍ، يَا أَبَا ضَمْضَمَةَ

[٦ تَحْقِيقُ مَصِيرِ الْبَطَلِ بِرِجْلِهِ]

فَيَلْتَفِتُ الرَّجُلُ إِلَى عُرْوَةَ، وَيَقْبِلُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ

ابْنَ الزُّبَيْرِ، قَدْ - وَاللهِ - لَقِيتُ الْبَلَاءَ يَا فَقِيهَ الْمَدِينَةِ وَابْنَ حَوَارِيِّ رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! وَإِنِّي وَاللهِ لَأُحَدِّثُ نَفْسِي بِخَيْرٍ، عَسَى أَنْ يَرْتَفِعَ عَنْكَ. فَقَدْ بِتُّ لَيْلَةً فِي بَطْنِ وَادٍ، وَلَا أَعْلَمُ عَبْدًا فِي الْأَرْضِ يَرِيدُ مَالَهُ عَلَى مَالِي، فَطَرَقَ سَيْلٌ جَارِفٌ كَأَنَّهُ الطُّوفَانُ، يَتَدَافَقُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَوْجًا كَالْجِبَالِ، فَذَهَبَ بِي كَانَ لِي مِنْ أَهْلٍ وَمَالٍ وَوَلَدٍ، إِلَّا صَبِيًّا مَوْلُودًا وَبَعِيرًا يَضُوَّا ضَعِيفًا. فَقَدْ الْبَعِيرُ يَوْمًا وَالصَّبِيُّ مَعِي، فَوَضَعْتُهُ، وَاتَّبَعْتُ الْبَعِيرَ

أحنكه، فما جاوزت اثني عشر يومًا إلا ورأس الذئب في حجره، قد سحبه بأنيابه العشر، فجعل أخته، وابنة الصغير تصرخ، وتبكي، وتتمرغ على جلده الأرض، فكبست - والله - أسوح في الأرض مما رأيت، ولكني ذكرت الله، وصبرت، واحتسبت الصغير، فرفعته إلى صدري والله وثبت البعير، فهمست أخذ بذنبه وقد أدركته، فرفعني رفعة حطمني بها وجهي وألصقني، فأصبحت لا ذا مال ولا ذا ولد ولا ما يضير، فوالله أحمد الله إليك يا أبا عبد الله فاصبر على ما أصابك، إن دون ذين لعظيم الأمور

قال عمرو: لقد أنعم الله عليك يا أم عصمة، وإني لأرجو لك الجنة

قال عمرو بن أبي ربيعة: والله إني لأجد للأمير في أمرك، فاصبر إلى

إن أرادت الحية فقد انكشفت، فانصرف إلى أبي عبد الله، فلما أتاه وأخبره

قلت: هو والله - الرأي، يا أمير المؤمنين

(٧ - إطلاع البطل على نصيحة عمرو إياه)

ثم انصرفت إلى عمرو وقد طابت نفسي بالذي قال، فلما رآني قلت

عرافك، يا أبا عبد الله!

فقال عمرو: فيم تعرفني يا أبا الخطاب؟ إن كنت تعرفني بحق فقد سترتها الله

قلت: وهي الله عنك، بأي أنت وأمي، بل أعرفك بغير ذلك

فدهش، وتلعثم، وأدبر إلا يسيرًا ولمحه فرأيت في وجهه الغيرة، ثم هدأ، فقال

ما لك يا أبا الخطاب؟

فجلست إليه، وتحلق الناس حوالينا، وتكنفوه، وأحدقت أحداقه بشأنه، ووالله ما يريد

على أن يقول

لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

فلما فرغت من حديثي ما زاد على أن قال

وكنت إذا الأيام أحدثن حادثًا أقول لعمري ما أتيحن خيبي

ثم رفع وجهه إلى السماء وقد تلألأت نجومها، ثم قال

اللهم إنه كان لي أطراف أربعة، فأخذت واحدة، وأبقيت لي ثلاثة، فلك الحمد على

ما أخذت وأبقيت. اللهم - أحسب صغيرة، وأرفق أرملة، وأحدب نهضة، وأرحم غربة

وأيم الله لئن كنت أحمدت لقد أنهبت، ولئن استلبت لقد عاقبت، سبحانك - ربنا - إليك

المصير. فوعز إلى جهابذ أحكمكم بحكم الله، واطرحوا، لا تكونوا عليّ مغرمة ولا مسألة،

فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - نهى عن النياحة، وأمرونني بالصبر للصدقة، وإن

رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أتى عن امرأة تبكي صبيًا لها، فقال لها

اتقي الله، واصبري!

فقالت: وما ليلي بمصيبتي!
فلما ذهب قيل لها:
إنه رسول الله، صلى الله عليه وسلم!
فأعادها مثل المرة، فأتت بابه، فلم تجد على بابه بوابين، فقالت:
يا رسول الله، لم أعرفك، فقال ـ صلى الله عليه وسلم! ـ
إنما الصبر عند أول مصدمة
وجزاك الله خيرًا عني وعن ولدي يا أمير المؤمنين! {فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم}

جوامع النصين

[٦] نص الرافعي (حدي وسعون وثمانمئة وألف (١٨٩١) كلمة كتابية)، ونص شاكر ثمانون وثمانمئة وألف (١٨٨٠)، بكادان يتطابقان؛ فلم يفترق ما بينهما إلا الضآلة بحيث لا تعتبر ه

يبدو نص الرافعي «مترجمة» منسوبة إلى أبي علي الروذباري الذي لم يتردد به عليها ذكر حتى نعرفه، ويبدو نص شاكر «رسالة» منسوبة إلى الخطاب عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغزل الشهير الذي صار اسمه رمزا فنيا شعريا، وفي الأمرين القصد نفسه

أراد الرافعي أن ينبه المثقفين على أن من رجال الثقافة العربية الإسلامية الكبار مغامير كالشاعير، بل أكثر، يفتشون عنهم، ويعرضوا نفوسهم على أفراحهم وأفعالهم وإقراراتهم وعنوهم ومعارفهم وخبراتهم، وينصتوا لهم، حتى إنه كنهم من أسرارها ما استغلق عليهم وعلى مشاهير من قصدوهم، رجعوا إليهم، وتعلقوا بهم، وتعجبوا كيف يخرج ذلك كله ممن أهملوا معرفتهم، وأيقنوا أن قد جهلوا في غير تجهّل، وشكوا في غير شك، وزهدوا في غير تزهّد!

كان الرافعي حريصا على معنى المدرسة الثقافية الواحدة؛ فقد أجلس التلميذ مجلس أستاذه، ثم تراءاه عنه برًّا بذكراه، وكأني بمصر المثقفين إذ أهملوا ذلك المعنى، أن ينطع فيهم ما بين التلامذة والأساتذة (الحاضر والماضي)، حتى يقول بعضهم تيه وعقوقا وجهلا وتنكرا: نحن جيل لا أساتذة لنا!

واعتنى الرافعي بمعنى العلم كثيرًا، ولا سيما تلقيه كفاحًا تطبيقًا؛ ليجعل زاويته التلميذ البار، مجاراً في علم مسألة حويصة؛ فيرحل في طلب علمها، ويلح على ضروره ملازمة الأستاذ العالم العامل، الذي يدل عمله بعلمه على صدق إيمانه به

وأراد شاكر أن يبعث المثقفين على أن من عباب رجال ثقافتنا العربية الإسلامية الكبار، عمالقة كالشعير، بل أوسع، ليفتشوا عنها، ويعرضوا عليها تصوراتهم السابقة، وينصتوا لها حتى إذا ما كشفت لهم عن أسرار أصحابها ما استخفى عليهم، رجعوا إليها وتعلقوا بها، وتعجبوا كيف جعلوا في نفوسهم ذلك كله الذي أهملوا معرفته، وأيقنوا أن قد جهلوا في غير تَجَهُّلٍ، وشكوا في غير مَشَكٍّ، وزهدوا في غير تَزَهُّدٍ!

يظل مثقفو نص شاكر كما اختلفت أحداثه وأشخاصه ومواقفه، يعودون إلى رأوينه المفرد بصيغة الشاعر المثقف عندهم للمرد الصريح، ليحكموا عليها حكمهم عليه، وربما قال بعضهم: إذا كان مثل هذا الشاعر المثقف المفرد الصريح هذا الإحساس العالي بالثقافة العربية الإسلامية، فكيف بغيره من العلماء المثقفين الباحثة، والزهاد المثقفين العبادة، وغيرهم؟

كان شاكر حريصًا على معنى انتماء لقمان الثقافي؛ فقد أشعر الشاعر العربي المسلم الكبير، المثقف بمفرد الصريح، بمشاعر عالية من الإيمان و لإحسان، وكأنما يحذر فتيان المثقفين أن يتعلموا أول طريق الفن العربي الإسلامي، عند أول طريق الكفر والفسوق والعصيان!!

و معنى الانتماء الثقافي الذي حرص عليه شاكر، كمعنى للدراسة الثقافية الثقافية الواحدة الذي حرص عليه الراقمي، فإن كان معنى شاكر أشمل وأعمق وأعلى من معنى الراقمي؛ فإن معنى الراقمي من سبيل بلوغ معنى شاكر

فُصولُ الأَحْداثِ

حُضورُ الأَعْلامِ

[٧] أدار الرافعي أحداث نصه على ثمانية عشر علمًا من أعلام العقيدة والسلطان والزهد والفن والعلم والمال[٥]. وأدار شاكر أحداث نصه على سبعة عشر علمًا من أعلام العقيدة والزهد والسلطان والحرب والمال والفتوة والعدد والقصة والمرأة[٦].

وإذا كان تعريفُ بعض النحويين للعَلَم بأنه «ما وُضِع بشيءٍ بعَيْنِه غيرَ مُتناوِلٍ غيرَه بوضعٍ واحِدٍ»[٧]، واسع العلاقة بمعنى «الدلالة» المعجمي الوارد فيه ـ فمكانة العلم في نصي الرافعي وشاكر أعلق بمعنيه عند المعجميين[٨]:

١ «شيء يُنصَب على الفَلَوات تهتدي به الضالّة».

٢ «الراية التي تجتمع إليها الجُنْد».

فلم يرد الرافعي وشاكر حين أدار على تلك الأعلام أحداث نصيهما، لا أن ينصبا منارات على طرق المتأخرين المسافرين، ورايات أمام جيوش المتلقين المجتهدين، يتبهون بها ويهتدون أنفسهم إليها، حتى يعيشوا هذه الحياة الواحدة، كِرامًا عِزازًا.

إنما يؤكد بيان الثقافة العربية الإسلامية ـ ومنها سائر الثقافات ـ وجود العقيدة فيه ـ فهي التي تحرك الإنسان العربي المسلم بين حلومه ومعارفه وخبراته وأفعاله وأقواله وإقراراته ـ ثم وجدنا السُّلطان مظهر تلك العقيدة، فكل عقيدة لا سلطان لها على معتنقيها وهم من الأوهام، حتى شاعت في الثقافة العربية الإسلامية عبارة: «إنَّ اللهَ ليَزَعُ بالسُّلطانِ ما لا يَزَعُ بالقُرآنِ»، ثم وجدنا الزُّهد منهج الثقافة العربية الإسلامية في الجمع بين العقيدة والسُّلطان، حتى شاعت عبارة السؤال والجواب: «قيلَ لمَن مَلَكَ؟ قالَ للزُّهّاد».

ولقد اجتمع كاتبانا على ضرورة تكثيف المتلقين، فتحرى استعمال أعلام العقيدة والسلطان والزهد، تحريًا واحدًا، فكانت عند كل منهما ١/٧٥ وهو تطابق عجيب، لا يكون إلا في مدرسة واحدة، فيها الأستاذ والتلميذ!

ولكن في خلال ذلك كانت أعلام العقيدة عند الرافعي ٣٥٪، وأعلام السلطان ٢٥٪، وأعلام الزهد ٢٤٪ ـ على حين صارت أعلام العقيدة عند شاكر ٤٢٪، وأعلام السلطان ١٣٪، وأعلام الزهد ١٩٪، على حين تطابقت عند الرافعي أولًا مرتبة أعلام العقيدة والسلطان، فكانتا قريبًا مرتبة أعلام الزهد. ظهرت عند شاكر أولًا مرتبة أعلام العقيدة، ثم ثانيها بعيدة مرتبة أعلام الزهد، فثالثها مرتبة أعلام السلطان

ربي كاتب في ذلك دلالة على تغير رأي التلميذ قليلا بعد اختبار رأي الأستاذ في مدرسة الحياة التي أسسها؛ فلقد كانت مجموعة مقالات الرافعي «وحي القلم» في العقد التالي لسقوط الخلافة، وفيه بقي الناس متعلقين برجوعها، حتى عقدوا الآمال على من لا يستحق، من مثل كمال أتاتورك؛ فربما كان ذلك وراء تطابق صرختي العقيدة والسلطان عند الرافعي، حتى إذا ما جاء شاكر بعد قليل، واتكشف خديع أتاتورك الذي لم ينج منه كثير من العلماء الكبار، حتى الشيخ محمد وكيل الأزهر؛ أبو شاكر - لم يضطره ما استقر أستاذه، وارتاح إلى تصحيح العقيدة، وإلى منهج الجمع بين العقيدة والسلطان من قبل ومن السلطة.

وكذلك كانت أعلام العقيدة عند الرافعي، أسيا واحدة، وأعلام السلطان أربعة أسياء، وأعلام الزهد خمسة أسياء - على حين صارت أعلام العقيدة عند شاكر خمسة أسياء، وأعلام السلطان اسمين اثنين، وأعلام الزهد اسمين اثنين.

وربما كان أحد الأسباء أكثر استعمالا أو أهدبه، ولكن لا ريب في أن إكثار الأسياء من سياسة الدعوة والحرص على المعنى؛ فلقد كانت أعلام العقيدة عند شاكر أكثر من أعلام غيرها؛ فربما احتاج الناس إلى قرآن يمشي على الأرض فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وكان صحابته - رضي الله عنهم! - على حين لم يتبه الرافعي لذلك المعنى السياسي الدعوي.

ولكن في خلال ذلك غيبت أفكار الزهد «الحصة والجلد والصبر» على رسالتي النصوص، بعد ما طار في أرجائها نفس كريم من أخلاق الزاهدين العالية؛ فكان الرافعي أحفى في الأعلام بذلك من شاكر؛ إذ أهدر أحداث نصه على خمسة من أعلام الزهد، ولم يذكرها شاكر إلا على علمين اثنين فقط.

صَوْتا الكاتِبَيْنِ

[٨] إذا كان نص الرافعي موعظة قصصية منسوبة إلى أبي علي، ونص شاكر رسالة قصصية منسوبة إلى أبي الخطاب، وقمتُ في مقام المطلع على موعظة الواعظ ورسالة المرسل كاتبيهما؛ رأيتُ نص شاكر أكثر ملاءمة لطبيعة الرسالة من ملاءمة نص الرافعي لطبيعة الموعظة.

لقد كان شاكر كأنه وقع على كتاب «مذكرات عمر بن أبي ربيعة» حقا؛ فأسرع بنقل منه دون أن يضيف إليه إلا عبارة «قال عمر بن أبي ربيعة» التي صَدَّرَ بها الرسالة - على حين خلط الرافعي طبيعة نصه بطبيعة نص شاكر؛ فتكلم هو من دون أن ينسبه عمر بن أبي ربيعة استغراقا ولا استهلالا، حتى استوى على الفصلين الأول والثاني كليهما، وعلى

بصاحب المقال الرابع، فإذا أراد أن يُعلِّق الواعظ عاد يجمد: «قال أبو هريرة»، وإذا استطال كلام الواعظ نفسه زاد فصل القول الماضي «قال» على مثل ما نجد في مجالسيات الأصبهاني بـ«الأغاني» مثلاً: «حدثني فلان» هذا، كان القدماء يهوون التلقين على استمرار كلام الراوي.

لقد كتب الرافعي نصوص هذا الأسلوب التي منها نصنا، في عقده السادس الأخير (١٩٣١ـ ١٩٣٧م)[٨]، وكان في شيخوخته، وكتب شاكر نصوص الأسلوب نفسه التي منها نصنا، في عقده الرابع (١٩٣٩ـ ١٩٤٩)[٩]، وكان في شبابه؛ فكأني أراد شاكر أن يكتفي من شأو نفسه، ويخرج بها من البَيْن؛ فقد ظهر الرافعي بصوته العالي، مظهر مُعلِّم المتلقين الذي يشرح لهم رأيه هو ومذهبه، وكأنه صوت الحقيقة المطلقة، قد حضر بشهدها!

ثم لا ريب في ملاءمة شاكر لتيار الواقعية الغالب على عصره آنذاك، بنحوي إخراج القصة من الحياة كي تكون فيها، ثم على طريقة المذكرات التي لا يقتضي صاحبي من قبول شاكر أن يستعملها في تنويع أعماله، وليست مما رأيناه بعيد، ولو عُرِضَت عليه في آواخر عمره بعدها من رقاعات المتأخرين!

تَفْصِيلُ الفُصُولِ

[٩] أفرد الكاتبان عدد فصول النصين (سبعة فصول)، وكأنما خرجا على منهج التدوير الجديد بمدة التأثير؛ فهي تشعّب أفكار رسالة النص، وتفصّلت بها الفصول، تلاقت في فصل يقدر دائرتها ويحكم رسالتها، تختلف المتلقون في تعيينه، ولكن يعجب أن يكون الأخير.

اتفق الكاتبان على أن يتأتّى إلى المتلقين بمفهوم مألوف في الثقافة العربية الإسلامية؛ فعند أوصى سيدنا أبو بكر، سيدنا خالد بن الوليد ـ رضي الله عنهما! حين بعثه إلى المرتدين، وهيبته الجليلة الخالدة: «احْرِصْ عَلَى المَوْتِ تُوهَبْ لَكَ الحَيَاةُ»، فَعَيِيَ به، حتى قال في مؤنه مقالته الخالدة الخالية الخالدة: «لَقَدْ لَقِيتُ كَذَا وَكَذَا، وَمَا فِي جَسَدِي مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا وَفِيهِ ضَرْبَةٌ أَوْ طَعْنَةٌ أَوْ رَمْيَةٌ، وَهَا أَنَذَا أَمُوتُ حَتْفَ أَنْفِي كَمَا يَمُوتُ البَعِيرُ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الجُبَنَاءِ» ـ جرى بعده القائد العربي المسلم، حتى كان يفتح عقول المدرك قبل فتح بلادهم، بمقالته الخالية الخالدة: «جِئْتُكُمْ بِقَوْمٍ يُحِبُّونَ المَوْتَ كَمَا تُحِبُّونَ أَنْتُمُ الحَيَاةَ»!

لقد تَلَبَّسَ الكاتبين حالُ الناقد العربي القديم، تَفَشَّاه فأقبلا يجبطان تحبيرها بدائرة من الموت محكمة

أما الرافعي فقد عَرَّضَ بَطَلَه للافتراس في الفصل الأخير، ولم يُفَرِّس، ولكنه أناقض في مقام موته في الفصل الأول؛ فجعل الفصل الأول نتيجة الفصل الأخير؛ فلو لم يعهم البطل حقيقة حياته ما فهم الناس حقيقة موته، ولبقي متلقو النص ينتظرون أن تؤدي الفصة إلى موته! ولقد اتفقت بين الفصلين الأول والأخير عبارتا الكاتب عن دهشة الناس من حياة البطل ومن موته جميعا؛ فإذا تأملنا قوله من الفصل الأخير

«جَعَلَ كُلٌّ مِنَّا يَظُنُّ ظَنًّا في تَفْكيرِه. قَوْمٌ قائِلٌ ( ) وقائِلٌ ( ) وثالِثٌ يَقولُ ( ) وَزَعَمَ جماعةٌ (...)».

وقوله من الفصل الأول.

«كانَ يَوْمُه ( ) ما يَرَيْنَ أَحَدٌ إِلَّا اقْتَنَعَ أَنَّه في شَهَواتِ الحَياةِ وَأَباطيلِها كَالأَعْمى في سَوادِ قَميصِه بَيْنَ لَوْنِ التُّرابِ وَلَوْنِ النَّفَقِ».

رأيت الشهود فيها يتكررون في كل وجه بلا مخالفة. ورأيت كان من ملاءمة كل عبارة لفصلها، أن تكون عبارة الفصل الأول من تفصيل إجمال ما قبلها، وعبارة الفصل الأخير من إجمال تفصيل ما بعدها؛ فقد كان فصل الفصة الأخير مبتدأ حياة البطل الحقيقية، وفصلها الأول منتهاها

ورأيت شاكر فقد بدأ نصه بمصيبة موت ابن البطل، ثم لم يطلعه عليها إلا في الفصل الأخير؛ فكان مثل الرافعي في جعل الأول لمتعلقين خاتمة لآخر. ولقد اتفقت كذلك بين الفصلين الأول والأخير عبارتا الكاتب عن أثر مصيبة الموت؛ فإذا تأملت قوله عن عمر بن أبي ربيعة، في الفصل الأخير

«لَقَدْ غَلَبَني عَيْناي بِالبُكاءِ»

وقوله عنه في الفصل الأول. «كَأَنَّ فارِقَني الرُّوحُ».

رأيتَ في الفصلين وهو من الشهود، مفعولًا به، مغلوبًا على أمره. تعاوره عيناه أخيرًا، وتغلبه روحه أولًا! ورأيت كان من ملاءمة كل عبارة لفصلها، أن يكون فاعل عبارة الفصل الأول باطنيًا «الروح»، ودخل عبارة الفصل الأخير ظاهريا «عيناي»؛ فقد كانت الوطأة في الفصل الأول على عمر بن أبي ربيعة الراوية منه، وفي الفصل الأخير على قيره!

ترتيبُ الفصولِ

[١٠] ومن باب الحرص على منهج التدوير السابق، أن جعل الراعي في فصل «تعريض البطل للافتراس»، أفتح الأحداث (اختناقان)، وأشدها تأثيرًا في المتلقين، ثم جعله سابقًا خاتمة الفصول وأكبرها، وصعد إليه بما قبلًا قبلًا

الفصل الأول	١٢٤ كلمة كتابة	٣٠٦
الفصل الثاني	٧٦ كلمة كتابة	
الفصل الثالث	٢٣٠ كلمة كتابة	
الفصل الرابع	١٩٤ كلمة كتابة	٤٤٢
الفصل الخامس	٢٤٨ كلمة كتابة	
الفصل السادس	١٩٨ كلمة كتابة	
الفصل السابع	٥٢١ كلمة كتابة	

فإن بدت أطرافه مضطربة، فهي كون ثالثها بمنزلة التعليق على ثانيه، وربيعها بمنزلة المقدمة لخامسها، ما يوضح تصاعدها.

وجعل شاكر في فصل «قطع رجل البطل»، أندع الأحداث (اختناقان) كذلك، وأشدها تأثيرًا في المتلقين، ثم جعله رابعا واسطة الفصول السبعة وأكبرها، من قبله ثلاثة ومن بعده ثلاثة، وصعد إليه بما قبله، ثم صعد مرة أخرى بما بعده إلى حدث آخر على جهة تصاعده لمصائب

الفصل الأول	١٤٩ كلمة كتابة
الفصل الثاني	٣٠٤ كلمة كتابة
الفصل الثالث	٣٩٦ كلمة كتابة
الفصل الرابع	٤٠٨ كلمة كتابة
الفصل الخامس	١٤٨ كلمة كتابة
الفصل السادس	٢٠٩ كلمة كتابة
الفصل السابع	٢٩٦ كلمة كتابة

من دون أن يكون الفصل الأخير (فصل الحدث الرائد)، أطول من الفصل الرابع (فصل الخَتَّان)، على رغم ما فيه من مضاعفة المصائب؛ فإن مصيبه لدرب أزلية أبدية ثم إن المتلقين كانوا قد عرفوا مصيبة الدرب في الفصل الرابع (فصل الخَتَّان)؛ فكان فيه المرادُ كلُّه، ولكن الكاتب تحرك على طبيعته؛ فصعد بين مجتمع المصائب عند البطل، مثلما صعد له عند المتلقين.

نَسْجُ النَّصِّيْنِ

[١١] كان فصل الراقي الأول نظرة حارجية كلية، ربط في المنتهى بالمبتدأ، ثم يجد من شخوص قصته من ينظر هذه النظرة، فنظر هم، قائلًا:

«جَلَسَ أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّوْزَانِيُّ الْبَغْدَادِيُّ فِي قَبْوِ وَعْظِهِ بِمِصْرَ بَعْدَ وَفَاةِ شَيْخِهِ أَبِي الْحَسَنِ بْنَانِ الْخَيَّالِ الزَّاهِدِ الْوَاسِطِيِّ شَيْخِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ»

ثم كان فصل شاكر الأول كلمه داخلية بحتة، أنطق بها أحد شخوص قصته، قائلًا:

«فَبَادَرْتُ أَضْرِبُ بِكَفِّيَّ عَلَى جِلْدِي بِنِ يُدَيَّ الْمَيِّتِ»

جملة أول فصل الراقي الأول، فعلية ماضوية هادئة مطمئنة، مُفصَّل نَسَبُ فاعلها تفصيلَ كُتُبِ الأنساب، يحتاج قارئها إلى تمهل كثير، به يهب المتلقي حل معنى المدرسة السابق ذكره. وجملة أول فصل شاكر الأول، محذوفة في جمل كثيرة سَتُشْرَحُ في الفصل الثاني، سَتَشْمَلُ عليها بعد عطف الجملة الثانية الفعلية الماضوية الكثيرة القلقة، ألفى بحذفها المتلقي في مجرى الأحداث.

وإن في هذا وذاك لعلامة أولية مهمة، على مَنْهَجَيْ نَسْجِ النَّصِّيْنِ.

١ الاسْتِبْطَانُ الْمِثَالِيُّ الضَّوْئِيُّ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الكامنة في العناصر القصصية، يتحرك حركة عمودية من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، ذوالَيْك.

٢ الاسْتِبْطَانُ الوَاقِعِيُّ الفَنِّيُّ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الظاهرة على العناصر القصصية، يتحرك حركة أفقية من وراء إلى أمام، ومن أمام إلى وراء، ذوالَيْك.

فعل حين يَسْلُكُ الراقي المنهج الأول، فيطول الجمل، ويثقلها، ويقللها، ويشغلها بتخييل الأشخاص والأحداث. ويَسْلُكُ شاكر المنهج الآخر، فيقصر الجمل، ويخففها، ويكثرها، ويشغلها بتحريك الأشخاص والأحداث.

تَوْصِيلُ الْفُصُولِ

[١٢] إذ تأمّلت مفاصل الفصول، حيث يخيط كل من الكاتبين أطرافها، فيضم أولى اللاحق إلى آخر السابق، وجدنا ما يلي:

١ جملة أول فصل الرافعي الثاني معطوفة على جملة أول نفسه، كرر فيها اسم فاعلها بعد ما حال ما بين الموضعين من كلام الكاتب الحدري بينهما:

«جَلَسَ أَبُو عَلِيٍّ (...) وَتَكَلَّمَ أَبُو عَلِيٍّ (...)»

وجملة أول فصل شاكر الثاني معطوفة على جملة آخر فصله الأول:

«سَأَلَنِي (...) قُلْتُ (...)»

فعل حين عبر شاكر عن ثورة عمر بترتيب جمله دونه على جملة سؤاله من دون أن يتيح للقراء بينهما مكانًا؛ إذ ليس أقدر على تحريك الأحداث من حذف العاطف، وليس أكثر حذفًا بين الجمل من فاء العطف بين جمل الأقوال[٢٠] ـ عبر الرافعي عن هدوء راويته أبي علي بعطف جملة تكلمه على جملة جدرته بالواو دون ترتيب وكأن تكلمه كضمنه، تمهيدًا للمعنى الذي سينطقه به في الفصل الرابع، قائلًا:

«عَلَامَةُ الرَّجُلِ مِنْ هَؤُلَاءِ أَنْ يَعْمَلَ وُجُوهُ فِيمَنْ حَوْلَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْمَلُ هُوَ بِنَفْسِهِ».

٢ وجملة أول فصل الرافعي الثالث اسمية اعتراضية مقترنة بواو:

«وَالْبَلَدُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ (...) هُوَ فِي الْجَهْلِ كَالْبَلَدِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ (...)»

وجملة أول فصل شاكر الثالث فعلية ماضوية معطوفة على جملة أول فصله الثاني:

«قُلْتُ (...) قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (...)».

فعل حين يسمع تعبير شاكر عن ثورة الأحداث، باستقال فاء الترتيب والتعقيب نفسها، يعرض الرافعي بكلامه كلام راويته أبي علي، إمعانًا في خلعلبته فيه، توشّقًا في التحليل.

٣ وجملة أول فصل الرافعي الرابع فعلية ماضوية رائدة:

«قَالَ أَبُو عَلِيٍّ (...)».

وجملة أول فصل شاكر الرابع اسمية مشوشة بـ«كان»:

«فَإِذَا كَانَ الْقَوْمُ (...)».

فعل حين يستعمل الرافعي رويدًا روا الفعالي القديمة التي يصدون بها كلام المتحدث بعضه ببعضه على رغم الاستطراد، وكأن كلامه من كلام أبي علي، يرتب شاكر أول الفصل على آخر سابقه ترتيبًا سريعًا، ولا يمنعك أن تحذف العاطف لعدم الدلالة عليه، كما كان يحذفه لدلالة كثرة الاستعمال عليه؛ فليست الجملتان المتعاطفتان هنا قويتين، كما كانت هناك.

٤ وجملة أول فصل الراقي الخامس هي الفعلية الماضوية الزائدة نفسها:

«قالَ أَبُو عَلِيٍّ (...)»

وجملة أول فصل شاكر الخامس فعلية ماضوية:

«وَمَا أَبَتَا (...)».

فعل حين يستعمل الراقي زيادة رواة المجالس القديمة نفسها، ولكن في أصل موضعها؛ إذ يصل كلام أبي علي بعضه ببعض رغم استطراده ـ بترتيب شاكر أول الفصل على آخر سابقه من دون العدد ولا «ثم»؛ إذ هو مطمئن إلى مهم معنى الترتيب من منطق الأحداث، ثم هو لم يشأ أن يجعل زمان ما بين خشونة البطن وإفاقته وبين أوحى بالترتيب إلى أن حوار ما بين أبي الحكم وأمير المؤمنين قد أقرّ الوقت من دون أن يتبيّن له تحديدًا.

٥ وجملة أول فصل الراقي السادس اسمية مشروحة بـ«كان»:

«كانَ أَحْمَدُ بْنُ طولونَ بنُ جاريَةٍ تُرْكِيَّةٍ».

ابتدائية في أول تفصيل معطوف جملة آخر الفصل الخامس المُجْمَلِ:

«قالَ: ثمالَ، أَحدِّثُكَ بالحديثِ كانَ أَحْمَدُ (...)».

وجملة أول فصل شاكر السادس فعلية مضارعية:

«تَبْلُغُنِيْ الرَّجُلُ إِلى مُرُوَّةٍ».

معطوفة على جملة آخر الفصل الخامس:

«فيقول له (...) فيلتفت (...)»

فعل حين يُفَصِّلُ الراقي المفعول به، ويحول الجملة تحويلًا تحليليًا، يؤرخ به تطور تخصيص البطل النفسي ـ بقصر شاكر الجملة، وبغير الأشخاص، وبجرأة الأحداث.

٦ وجملة أول فصل الراقي السابع، فعلية ماضوية ثالثة بين أجزاء اعتراض كبير بعضه في آخر الفصل السادس، وبعضه في أول الفصل السابع:

«فأَمَرَ (...) ـ (...) قالَ (...) ـ فَجِيءَ (...)».

وجملة أول فصل شاكر السابع فعلية ماضوية معطوفة بالفاء على جملة آخر فصله السادس الفعلية الماضوية:

«قُلْتُ: (...) ثُمَّ مَضَيْتُ (...)».

فعل حين يتخلص الراقي الفصل الأخير في الذي قبله، يحركه شاكر حركة جديدة واضحة، ويجدد ترتيبه.

لا ريب في أن غلبة الفصل في الفصل تزييفًا لإطار السابق ليشمل اللاحق ـ أكثر واضح من آثار انتهاج الراقي منهج الاسطاط المثالي الصوفي. ثم لا ريب في أن التحديد

حدود الفصول وإسراع الأحداث، أثر واضح كذلك من أثر منهاج شاكر منهج الاستنباط الواقعي الفني.

رَبْطُ الأقوالِ

[١٣] إذ تتبعنا عند الرافعي أواخر جمل ما قبل الفعل القول وأواخر جمل ما بعدها، وجدنا هذه العبارات.

١ «جاءه كِتابٌ ( ) قالَ فَجَمَعْتُ ( )».

التي عطف فيها جملة «جَمَعْتُ ( )» بالفاء على جملة «جاءه ( )»، وكلتاهما من كلام أبي على الراوي الكبير.

٢ «هُوَ الَّذي كان ( ) قالَ أبو عَلِيٍّ. وَقَدِمْتُ ( )».

التي عطف فيها جملة «قَدِمْتُ ( )» بالواو، على جملة «هُوَ الَّذي كانَ ( )»، وكلتاهما من كلام أبي على الراوي الكبير.

٣ «فَلَمَّا لَقِيتُهُ لَقِيتُ رَجُلًا (...) قالَ أبو عَلِيٍّ. وَخَمَسْتُ ( )».

التي عطف فيها جملة «خَمَسْتُ ( )» بالواو، على جملة «فَلَمَّا لَقِيتُهُ لَقِيتُ رَجُلًا ( )»، وكلتاهما من كلام أبي على الراوي الكبير.

٤ «قالَ. لَوْ (...) قالَ أبو عَلِيٍّ. وَلَمُتِّعْتُ ( )»

التي استأنف فيها جملة «لَمُتِّعْتُ ( )» بالواو، عن جملة «قالَ لَوْ ( )»، وأولاهما من كلام البطل، والأخيرة من كلام أبي على الراوي الكبير.

٥ «فَلَمَّا بَلَغَ هؤُلاءِ كانَتْ نِيَّتُهُ (...) قالَ. وَكانَ عَقْلُهُ ( )».

التي عطف فيها جملة «كانَ عَقْلُهُ ( )» بالواو، على جملة «( ) كانَتْ نِيَّتُهُ ( )»، وكلتاهما من كلام الديتوري، راوي الصغير.

٦ «أَمَرَ ( ) .قالَ وَكُنْتُ ( ) فَجِيءَ ( )»

التي عطف فيها جملة «جِيءَ ( )» بالفاء على جملة «أَمَرَ ( )»، واعترض بينهما بجملة «كُنْتُ ( )» المقترنة بالواو، وكلتاهما من كلام الديتوري، راوي الصغير.

٧ «لَوْ أَنَّ حَطَرَةَ ( ) قالَ وانْصَرَفْنا ( )».

التي عطف فيها جملة «انْصَرَفْنا ( )» بالواو، على جملة «لَوْ أَنَّ حَطَرَةَ ( )»، وكلتاهما من كلام الديتوري، راوي الصغير.

- وإذا تأملنا أدب هذا عند شاكر كذلك، وجدنا هذه العبارات.

١ «قالَ عُمَرُ بْنُ أَبي رَبِيعَةَ: ( ) فَبادَتْ ( )».

التي عطفت فيها جملة «بادَرْتُ (...)» على جملة محذوفة، وكلتاهما من كلام عمر نفسه الراوي الوحيد.

٢ ـ «قالَ: بَلى (...) قالَ (...): فَهُوَ (...)».

التي استأنف فيها جمله «هُوَ (...)» بالفاء، عن جملة «بَلى» الباقيه منها أداةُ الجواب، وأولاهما من كلام سيدنا أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ والأخيرة من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم!

٣ ـ «قالَ عُرْوَةُ: (...) إنَّا (...) نالَ أبو الحَكَمِ. فَنَسْقيكَ (...)».

التي استأنف فيها جملة «نَسْقيكَ (...)» بالفاء، عن جملة «إنَّا»، ومصدرها واضحان.

٤ ـ «قالَ عُرْوَةُ: (...) قالَ عُمَرُ بْنُ أبي رَبيعَةَ: وَألاحَ (...)».

التي عطف فيها جملة «ألاحَ (...)» بالواو، على جملة، قالَ عُرْوَةُ: (...)، وكلتاهما من كلام عمر نفسه الراوي الوحيد.

٥ ـ «قالَ لَها: أنْشُدُ اللهَ وَحْدي! فَذالَكِ. وَما تُبالي (...)».

التي استأنف فيها جملة «ما تُبالي (...)» بالواو، عن جملة «أنْشُدُ وَحْدي!»، وأولاهما من كلام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم! ـ والأخيرة من كلام امرأة الباكية.

إن الاستئناف عن الجملة مثل العطف عليها، وجه من ربط أخيرتها بالأولى في نسيج النص الواحد مهما يكن اختلاف المجاورة التي في الاستئناف وبداخلة التي في العطف[1].

ثم إن من طبيعة الحوار الحي، أن تتوالى الجمل فيه بما يلائمها من وجوه الربط وأدواته المختلفة (العطف وأدواته، والاستئناف وأدواته، ...)، وسواء أتوالت تلك الجمل من طرف واحد من أطراف الحوار، أم من أكثر من طرف؛ فمن ثم كان جرْسُ الكلمتين على تلك الأدوات، وَجْهًا من نَفْخ روح الحياة الطبيعية في مصبها، على حين يتناساها كثير من كتاب اللغة العربية إذا أقبلوا يسجلون ذلك الحوار الحي، وكأن كل طرف من أطراف «يُكَلِّمُ نفسه»!

ثم إن منهج كل من الكاتبين في نسج نصه، لأثرًا قوي الوضوح في وضع العطف على ما تَقَدَّمَ، والاستئناف عنه، في كلام طرف واقعيٍّ واحد في أكثر العبارات السابقة، لاشتغال الواقعي بتحليل الأشخاص والأحداث كما هي ـ ووضع العطف على ما تَقَدَّمَ والاستئناف عنه في كلام أكثر من طرف شاكريٍّ في أكثر العبارات السابقة، لاشتغال شاكر بتحريك الأشخاص والأحداث، كما سبق

عَطْفُ المُتَشابِهاتِ

[١٤] إذا تَشَبَّث عند الراقي تراكيب العطف، رجدنا هذه العبارات.

١ «خالطوه، ضجيعه»

٢ «قاربها، أو لا تشبهها».

٣ «افصل بها، أو صاحبها».

٤ «فَتَلهم صبرًا، أو ماتوا في سجنه».

التي عطف فيها جملًا فعلية ماضوية بالواو و«أو» على مثلها

٥ «يخرق العادة، ويخرج عن النسق».

٦ «يثور، ويهدأ».

٧ «يزجر، ويزأر».

٨ «لا يطرق إلى الأشياء، ولا يخلد إليها».

التي عطف فيها جملًا فعلية مضارعية بالواو، على مثلها.

٩ «يجيادكم، ويرفده».

١٠ «في شهد الحياة وأباطيلها».

١١ «قصائده، ومقاطيعه».

١٢ «صحة وجودها، وكمال تلقيها»

التي عطف فيها مركبات إضافية بالواو، على مثلها

١٣ «الرقاد، وأهل الورع».

١٤ «غيظه، أو بطن واد».

التين عطف فيهما مركبين إضافيين بالواو و«أو» على مفردين

١٥ «كالشمعة والشمعة»

١٦ «رفعها، وتورهما».

١٧ «العزم، والرصيد، والإصرار».

١٨ «أقرب، وأيسر»

١٩ «الفراق والذوبان».

التي عطف فيها المفردات بالواو، على أمثالها، حتى عطف المفرد على نفسه في ظاهر عبارته الأولى!

- وإذا تتبعتها كلها عند شاكر، رجدنا هذه العبارات

١ «أكلت مني السن، وتمزقني أنياب الكبر».

٢ «بَرَقَ وَجْهُهُ وَتَوَقَّدَ».
٣ «ما تَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَلا تَنَقَّصَ».
٤ «فَارَ الدَّمُ مِنْهُ وَلَمْ يَتَغَيَّرْ».
٥ «تَحَلَّقَ النَّاسُ حَوالَيْنا وَتَكَنَّفُونا».
٦ «قَدِ اخْتَطَفَهُ أَجَلُهُ فَجَلَبَهُ فَهَوَى بِهِ».
٧ «وَقَارٍ أَنا فِيها لَمُحْتَمِلٌ حَتَّى أَلُمَّها».
٨ «قَدْ نُجِدُّ فَنَفْسَخُ وَجْهَهُ بِالْعَرَقِ»

التي عطف فيها جملاً فعلية مصدرية بالواو والفاء، على مثلها

٩ «نَعَبَتْ وَنَلْهو».
١٠ «تُواسِرُهُ وَيُصَبِّرُ نَهُ».
١١ «وَيُبْكِي وَيُسْكِتُهُ وَيَنْفُثُ مِنْهُ الْفَزَعَ»

التي عطف فيها جملاً فعلية مضارعية بالواو، على مثلها

١٢ «لا يَنْفَعُ التَّقَحُّمُ وَلا الْبَزُّ»
١٣ «لا تَكُونُ عَلَيْهِ نائِحَةٌ وَلا مُعْوِلَةٌ».

التي عطف فيها مفردين بالواو، على مثليهما.

لن يستغني الصراع القصصي عن عطف الأحداث و الأعيان والصفات، كل منها بعضه عن بعض، على وجوه العطف المختلفة. ولقد جرى شاكر مجرى الرافعي، في عطف متشابهات الأحداث والأعيان والصفات، التي لا يعلمُ فَرْقَ ما بَيْنَها كَثيرٌ مِنَ المُتَلَقِّينَ، تنبيهًا على الفروق الدقيقة التعبيرية، تحقيقًا للثقافة العربية الإسلامية في نسيجها ثم تميزًا لها من غيرها من الثقافات.

ويريد بعطف المتشابهات سطوعها، أو لزومَها أي أن تتعلق أوزان المتشابهات - إن كانت مفردات - أو عناصرها - إن كانت مركبات - وسواء أكانت مسجوعة أم لا، فمتى تم كانت «لزوم» ظاهرة بديعية أخص من السجع[٣٠]، مثلما في عبارات الرافعي السابقة (٢، ١١، ١٨)، وفي مثل عبارتي شاكر السابقتين (١١، ١٢)[٣١]. وإن المتشابهات إذ تلازمت أغرت المتلقي بالإسراع إلى الحكم عليها بالاتحاد (أن المتعاطفين شيء واحد)، حتى إذا ما تأملها فاجأته باختلافها، فكانت لذلك تأثيرًا فيه.

ولقد احتفى بذلك الرافعي أكثر من شاكر، حتى استعمله في خمسة أنواع من التراكيب، وَشَحَنَها بما سبق من تكرير وتعليق، ولم يستعمله شاكر إلا في ثلاثة فقط. ثم هو حين اجتمع الرافعي وشاكر على استعمال الواو، افترقا في «أو» والفاء: فاستعمل الرافعي «أو»، واستعمل شاكر الفاء، وجرى كل منهما على ما يلائم منهجه؛ فاستفاد

الرافعي عما في «أو» من إبهام في تحليل تلك التشبيهات، واستفاد شاكر عما في الفاء من ترتيب وتعقيب[٣]، في تحريك تلك التشبيهات عن جامدة، فأما إبراهيم فيريدها تشابيه، وأما إسرع تحريكها فلا يتيح للمتلقي أن يتأملها!

من ذلك مثلاً عبارة الرافعي الرابعة؛ فقد أراد أن يجلو طبيعة البطش في أحد بني طولون؛ مستفيداً من الفرق اللطيف بين قتله خصومه صبراً (أقعدهم شجّهم حتى يهلكوا)، وموت خصومه في سجنه (إهمالاً هم فيه حتى يهلكوا)، ومن عطف جملتيها بـ«أو» الإبهامية - وعبارة شاكر السادسة؛ فقد أراد أن يصور حرص الموت على الشاب النبيل؛ فاستفاد من الفرق اللطيف بين اختطاف الشيء (أخذه سريعاً)، وجذبه (مده)، واهوى به (إسقاطه)، ومن عطف جملها بالفاء الترتيبية التعقيبية

وعبارة الرافعي الخامسة عشرة دليل زيادة حماوته بعطف التشابيه؛ فقد حذف من كلا المعطوفين صفتيهما (الكبيرة)، و(الصغيرة) المفهومتين مما بعد[٣]، وترك للمتلقي يعجب لارتكابه هذا الحذف الذي ألغى بين عطف كلمة على مثلها أي إلى إفراد ما يَنْبَغي تَثْنِيَتُه خطأةً منه بعطف التشابيه كما سبق، وإمعاناً في المواربة

تَرْكِيبُ المُفَاجَأَةِ

[١٥] إذا تَبَيَّنَّا عند الرافعي «إذا» الفجائية عثرنا على هاتين العبارتين:

١ «فإذا هِيَ الوَرَقَةُ الضَائِعَةُ»

٢ «فإذا هُوَ سامِعٌ مُفَكِّرٌ»

اللتين اقترنت فيهما «إذا» بالفاء، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها ضمير هي

■ وإذا تَبَيَّنَّاها كذلك عند شاكر، وجدنا هذه العبارات

١ «وإذا هُوَ ساكِنٌ ساجٍ»

التي اقترنت فيها «إذا» بالواو، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها ضمير هي

٢ «وإذا طائِرٌ يَهوِي»

التي اقترنت فيها «إذا» بالواو، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها نكرة.

٣ «وإذا رَنِينُ اللَّهَبِ تَحْتَ سابِكَيها»

٤ «وإذا فِيهِمْ شُلَيَّانُ»

٥ «وإذا عُزَّةُ كَأَن لَيْسَ بِهِ شَيْءٌ»

٦ «وإذا عُزَّةُ قَد قُضِيَ عَلَيْهِ»

التي اقترنت فيها «إذا» بالواو، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها علم

٧ «وإذا وُجوهُ النّاسِ قَد جَلَسوا إِلى عُزَّةَ»

٨ «وإذا وَجْهُه قد صَفِرَ مِنَ الدَّمِ».

التي اقترنت فيها «إذا» بالواو، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها مضاف إلى معرفة.

إن هذا مجيء أسلوب مهم من أساليب تنمية صراع الأشخاص الذي لا تستغني عنه قصة، فيريد من أسلوب التعجيب السابق ذكره، ومن ثم مال إليه شاكر الفوائد بتحريك الأشخاص والأحداث، أكثر من الرافعي الذي يوجز بتحليلها، حتى استعمله في أربعة أنواع من التراكيب وضَّحتُها بما سبق من تمييز وتعليق، ولم يستعمله الرافعي إلا في نوع واحد فقط.

وأعجب ما في العبارات السابقة، التي تأتي «إذا» بالفاء في عبارتي الرافعي كلتيهما على قلتهما، واقترانه بالواو في عبارات شاكر الثلاثي كلها! ولكن إذا تأملنا سياق كل عبارة، وجدنا الواو هي المستعملة فيما قبل عبارتي الرافعي كلتيهما، والفاء هي المستعملة فيما قبل عبارات شاكر الأربع (٣، ٥، ٦، ٧)، وقبل الجملتين المقترنتين بـ«إذا» الفجائية نفسها، اللتين قبل عبارته (٤، ٨)! فمن ثم يكون كل من التأليفين قد جُهِّزَ التركيب من قبل مجيء «إذا»؛ حتى تطمئن في مكانها، إحساسًا تامًّا واحدًا، اجتمع عليه الأستاذ والتلميذ.

الإجمالُ ثُمَّ التَّفصيلُ

[١٦] إذا تتبعنا عند الرافعي، أطراف الجمل التي اليء وجدنا هذه العبارات

١ «كان يَوْمُه كَاللَّهَارِ ( ) ما يَرْضَى أَحَدٌ إِلَّا ( )»

٢ «جَعَلْتُ أُفَكِّرُ فِي طَعْمِ النَّصْرِ ... مَا هُوَ».

٣ «لَهُ مَعْنَى أُبُوَّةِ الْأَبِ فِي أَبْنَائِهِ لَا يَرَاهُ مِنْ بَرَاءَةٍ مِنْهُمْ ( )».

٤ «تَمَالَ أُحَدِّثْكَ الْحَدِيثَ كَانَ أَحَدٌ ( )».

٥ «كُنْتُ أُفَكِّرُ فِي لُعَابِ الْأَسَدِ. أَهُوَ طَاهِرٌ أَمْ نَجِسٌ»

التي قدم فيها جملًا إجماليةً، ثم أُبدِلَ منها جُمَلًا تفصيليةً

٦ «كَانَ عَقْلُهُ بَيْنَ أَلْفِ عِبَادَتِهِ ( ) فَلَهُ يَدٌ مَعَ الْمَلَائِكَةِ ( )».

٧ «لَمْ يَرْتَعْ إِلَّا دُعُولُ الْأَسَدِ عَنْ وَحْشِيِّهِ فَأَمْشَى عَلَى ذَنَبِهِ ( )»

٨ «يَكْشِفُ لَهُ عَنْ قُرْبِ الْحَقِّ (...) فَهُوَ لَيْسَ بَيْنَ يَدَيِ الْأَسَدِ ( )».

٩ «كَمْ خَرَجَ الشَّيْخُ ( ) تَخْرُجِ الْوَحْشُ (...). فَلَيْسَ فِي الرَّجُلِ (...)»

١٠ «اجْعَلْ كُلَّ مَا يَقُلْنَ ( ) قَوْلَ قَائِلٍ ( )»

التي قدم فيها جملًا إجماليةً، ثم عُطِفَتْ عليها جملٌ تفصيليةٌ.

- وإذا تتبعناها كذلك عند شاكر، وجدنا هذه العبارات.

١ «قد يرى ـ والله ـ محمدنا قد اختطفه أجله (...)».
التي قدم فيها جملة إسمية، ثم أبدل منها جملة فعلية.

٢ «إني ـ والله ـ محدثك عني بخبري (...) فقد بت (...)».
التي قدم فيها جملة إسمية، ثم عطف عليها جملة فعلية.

في الإجمال إفاضة، ثم في التفصيل إيضاح، ولكن لا سبيل إلى اكتشاف الإجمال وإفاضته إلا بعد الفراغ من التفصيل وإيضاحه؛ فإن المتلقي لا يستطيع أن يعبر ذلك حتى يأتيه هذا، وعندئذ يحتاج إلى أن يعود مرة أخرى إلى الإجمال الذي لم يتبينه من أنه إجمال، ليحسن فهمه وربطه بتفصيله بعد أن انتهى إلى أنه تفصيل[١٠٣]!

وإن عطف التفصيل بالفاء على الإجمال[١٠٤]، لأشد ثقلاً على المتلقي من إبدائه منه؛ فإنه يظل في جملة المقترنة بالفاء كُلَّ حين، حتى يتبين أنها تفصيلٌ ذلك الإجمال، فأما الإبدال فأقرب وجوه التفصيل؛ فمن ثم يظهر وجه ميل الرافعي إلى الإجمال والتفصيل المباشرين لنهجه أكثر من شاكر، وإن اتفقت عبارتان أو اختلفتا بشاكر منه، على وجهي الإبدال والعطف، كما اتفقت عبارات أسلفه.

فَصْلُ الْحَدَثَانِ

جَوَامِعُ الدُّرُوبَيْنِ

[١٧] هذا فصل الحدث الذي تتأرم به سائر الأحداث، بل الذي من أجله كان كثير منها؛ فهو الحدث الأكبر المسمى (الحَدَثان)، الذي لم يستطع معه أي من الكاتبين المحققين، أن يخترعا لكبيرة ما يُمَهِّدُ به، ويُجَلِّبه. عن ذلك مثل فصل المداولة بالكي إذا تخيلنا له فصلاً معينًا، تكون فيه أحداث من التمهيد والتجبية، كاستعمال المرس، وظهور ضرورة الكي، والسعي إلى الطبيب، ومشورة المريض أمامه، وتجهيز ملابسه، وإعلانه، وحضور المستعدين، واضطراب الأصحاب في أثناء الكي، وهدوء الموضع بعد الكي، وصعوبة حركة المريض بعقبه ـ ولكن أهم ما فيه من أحداث هو الكي نفسه، الذي يجتمع فيه على المريض: المَرَضُ والطَّبِيبُ والمِلْيَاسُ والمُسْعِدون!

في هذا الفصل يُعَرِّضُ الرافعيُّ البطلَ للافتراس فلا يُفْتَرَسُ، ويُعَرِّضُه شاكرٌ لقطع رجله فتُقْطَعُ؛ فلم يكن تعريض البطل لقطع رجله من دون أن تقطع، بكفه، لتعريضه للافتراس وإن لم يفترس؛ بعد تَمَثُّلٍ بالأسد المفترس بمثل أنيابه وأشداقه وأظفاره، وشتان التَّعَرُّضُ لِفَقْدِ النَّفْسِ وَالتَّعَرُّضُ لِفَقْدِ رِجْلٍ! ثم إن مكانة البطل التاريخية التي حملت كلا الكاتبين على

الكتابة عنه والتَّمثُّل به بين تنقيب «المُنقِّب» موكولة في كثير من شأنها، بل بقائه حيّ رغم الفقدان مثالاً حيًّا يُكبِّره الناس ويؤثرون فيه أقواله وأفعاله وأحواله

تقدير الفقير

[١٨] كما أفرد الكاتبان عدد فصول الخصيص (سبعة فصول)، واجتمعا عليه، أفرد عدد فقر فصلي الخصائص (خمس فقر)، واجتمعا عليه، جريًا على منهج التَّدوير نفسه، اجتهد بشدة التأثير؛ فيها تَشعَّبت معاني فِكْرة القَصْص، وتَقَصَّرت بها الفقر، تلاقَتْ في فقرة تغلق عالمها وتحكم رسالتها

ولقد كانت فقرة «بين البطل»، أطول فقر فصل الخصائص عند الكاتبين جميعًا، هي الفقرة التي أطلقا بها لمتلقي دائرة الخصوصية التي تتيسر للمثقف المتعمق بهذه الثقافة العربية الإسلامية؛ فبمعرفة حدود الوجود وغايته وقدرة المُوجِد ومراده، يتكون مثل هذا اليقين الذي يكمل لمتلقي مواقف أمثال هؤلاء الأبطال وإن لم تبلغه كُنْهَ أفعالها

صِفَةُ الطَّبِيبِ كَصِفَةِ الأَسَدِ

[١٩] أخرج شاكر فقرته الأولى (صفة الطبيب)، مخرج فقرة الرافعي الأولى (صفة الأسد)؛ فكان الطبيب لديه بمنزلة الأسد لدى الرافعي. إن متلقي المثال إذا ترجم التشبيه، أن تكون «الأُثْلَة» هي التي تُشبِّه بالأسد، لا الطبيب؛ ولكن لما كان الطبيب هو الذي عرفها وذكرها وهاجمها بما يشبه الافتراس، نزَّله شاكر منزلة الأسد. ثم هنا لطيفة فنية؛ فلقد حرك الرافعي الأسد إلى أعمال ومشاعر لم يستطع شاكر أن يحرك إلى مثلها «الأثلة»، وكان من أثر استلاب عَفْوًا أو قَصْدًا؛ فاستفاد من وجوه الطبيب!

ولقد تأنق كل منهما في وصف موصوفه؛ فأكثر من صفاته، وألبس بعضها ببعض على طريقة «عطف المتشابهات» السابقة نفسها .. وكلا النعوت والمعطوفات توابع - ثم جعلها في طلب خبر جملة اسمية. أما الرافعي فنَسَخَها بـ«كان»، ثم أورد الأوصاف أخبارًا أخرى، مُعَدَّدَةً مُفَرَّقَةً. وأما شاكر فجرَّدها من النواسخ، ثم أورد الأوصاف صوتًا للمخبر، مُعَدَّدَةً مُفَرَّقَةً

	الرافعي	شاكر
	«إذا الأسد الذي هو مشاور إشبع أفظع ما يخافه»	هو نفسه
١	جسيما	نصراني
٢	ضخما	خبرك
٣	عاوي الوحوش	ثائر
٤	مقتول قتيل	مصروع فريسة
٥	كسيد ضرب ظالم	قد خانك الله
٦	فزلك	أخزه
٧	فزلته	أخزه
٨	أغرب الشدق	أسكت الرأس إلا شعرات بيضا قد نبتت له
٩	ثائر يحقد بين جنبيه وتوثبه فتتصور الذي يثور إن جرأه مخرجا	كلب فاجر
١٠	ويخطر رأسه خارجا من إطاره ثم أن يتوثب على من وراء قيافته	طريدها
١١	...	ثم هيهات أن يتم المقارنة به

وعلى رغم مُضيّ أحداث القصتين كلتيهما، وكون قصة شاكر المُتَوَفّى رجالًا في أواخر القرن الهجري الأول، أوغلَ في القدم من قصة الرافعي المُتَوَفّى رجالًا في أواخر القرن الهجري الثالث .. أخرجَنا الرافعيُّ من إطار نصه منذ دخل إليه، على منهجه في الكتابة، وكأنما خشي أن تُدنّسه، وأحاطنا شاكرٌ بإطار نصه منذ دخل إليه، على منهجه في الواقعية، وكأنما خشي ألا تُأثّره؛ فلم يكن غريبا ألا ينسخ شاكر جملته بـ«كأنه» مثلما سنّها الرافعي.

ثم على حين جعل الرافعي أوصاف الأسد أخبارا طبيعتها النحوية التجاور لا التداخل، بيانا لوجه من قدرة اختياره؛ إذ مَهّرَ الأسود بعضها من بعض قليلا قليلا دون عجلة، بالصفة من صفاتها بعد الصفة، حتى اختار، بحيث تجمع فيه الصفات كلها؛ فإذا ما هاجم البطلَ، كان مِنْ جماعه في قطيع أسود تُهاجمه ـ جعل شاكر أوصاف الطبيب نعوتا طبيعتها النحوية التداخل لا التجاور، بيانا بمواطأة شأن هذا الطبيب الذي قَوّبَه أعداء المسلمين في ذلك الزمان العزيز، وحكموه على رغم نصرانيته، كيف كان أزهر (تَزِرًا) على

رغم شيخوخته، و أصلع على رغم كتافة لحيته، حتى إذا ما أقبل، أقبل بمزاج غريب، فكأنه عجوز شريرة.

الرجل اليقين

[٢٠] ولقد جرى شاكر في فقرته الثانية (يقين البطل)، مجرى الرافعي في تسميتها الرابعة (يقين البطل)، فأتبعه في بطله اليقين بكلام الحق ـ سبحانه، وتعالى! كما أتبعه الرافعي.

قال الرافعي: فقد أطلق الراوي بقوله في البطل: «كان مُسْدَدًا في يقين هذه الآية {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}»، الذي يعبر عن فهم الراوي لحال البطل من اليقين، فهو يتكلم عنه، ولم يستطع أن يُنطق البطل نفسه.

ورأى شاكر فقد كان في مقام يتيح له أن يُطلق البطل بما يريد من أفكار التثقيف القرآني الإسلامي»، فجعله يقول: {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ " رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}

كانتا العبارتين من كلام الحق ـ سبحانه، وتعالى! ـ ولكن ثم فرقًا بين البطل الشاكري، المجتمع الناس حوله وفيهم الطبيب النصراني المغلفة به آمال الحاضرين على رغم كفره عمله، والبطل الرافعي المفرد الصامت، الذي ذهب الناس في تخيل سره المذاهب.

إن العبارة القرآنية عند شاكر شعار إسلامي، يُثبِّتُ به البطل نفسه وأصحابه، ويدعو غيره من غير المسلمين إلى الإسلام الذي بنى في البطل مثل هذا اليقين، وليس أدل من قول شاكر يعلق على لسان عمر بن أبي ربيعة:

«أَرَأَيْتُ أَبَا اسْتَكُمْ رَفَدَ يَرْفَأَ وَجْهُهُ وَأَوَلَّدَ قَبْلَهَا أَسْلَمَ بَعْدَ كُفْرِ»!

مَجْلِسُ الْقَطْعِ كَهَجْمَةِ الْأَسَدِ

[٢١] ثم أخرج شاكر فقرته الثالثة (مجلس القطع)، فخرج فقرة الرافعي الثانية (هجمة الأسد)، في رَشَاقَة معجمة الحداثة، وتأنق في وصفها بقوله في الطبيب:

«نَشَرَ دُرْجًا كان في يده، وَأَخْرَجَ مِنْشَارًا دَقِيقًا طَوِيلًا صَقِيلًا يَضْحَكُ فيه الشُّعَاعُ، وَوَضَعَ الطَّسْتَ».

كما تأنق الرافعي في وصفه بقوله في الأسد:

«انْطَلَقَ يُزْجُرُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَرُ، تَتْفَقُ لَهُ الْمَرَابِضُ، وَيَتَوَهَّمُ مَنْ يَسْمَعُهُ أَنَّهُ الرَّعْدُ وَرَاءَهُ الصَّاعِقَةُ. ثُمَّ جَمَعَ الْوَحْشَ فِي نَفَسِهِ، وَاقْشَعَرَّ، ثُمَّ انْطَلَقَ كَالْمُنْجَنِيقِ يَقْذِفُ الصَّخْرَةَ»

وكما كانت صفات الأسد والطبيب تتطابق في العنصرين الأوليين، كانت حركات هجمتيهما تتطابق هنا؛ فقد جعلها شاكر ثلاث حركات

١ «انْكَسَرَ»

٢ «وَانْحَرَجَ»

٣ «وَوَقَعَ»

وجعلها الرافعي أربعة بمنزلة ثلاث.

١ «انْطَلَقَ»

٢ «ثُمَّ اجْتَمَعَ»

٣ «وَاقْشَعَرَّ»

٤ «ثُمَّ انْطَلَقَ»

ولكن إذا أضفنا الاقشعرار إلى الاجتماع لأنه من لوازمه، وإلا لم يكن الاجتماع من نافع الهجوم - كانت حركتا الأسد الثانية والثالثة حركة واحدة، وكانت الحركات كلها عند الرافعي ثلاثا مثلما هي عند شاكر. ولا سيما أن الجمل الرافعية كلها، متعاطفة بـ«ثم»، إلا الثالثة والثانية المتعاطفتين بالواو لتكونا بحدث المتزلة الواحدة السابق ذكرها.

جعل الكاتبين فعلية ماضوية، وعلى حين تعاطفت بـ«ثم» عند الرافعي، تعاطفت بالواو عند شاكر؛ إذ لا ترتيب في الشاكرية مثل الذي في الرافعية؛ فربما جمع الطبيب بعضها مع بعض أو قبل بعض، فأما الأسد فيجري على ترتيب حركاته فطرة الله التي فطره عليها، من دون أن يخرم منها حرفا، أو تكون له فيها يد!

ولقد سكتت الرافعي فطرة الأسود الثابتة على حركات وبحدة وترتيب واحد مهما كانت الأسود ومهما كان التكرار، من أن يستوهبها ويتأنق في وصفها، إلى ذلك الحد الذي لم يتيسر لشاكر!

عَمَلُ الْقَطْعِ كَدُخُولِ الْأَسَدِ

[٢٢] ثم أخرج شاكر فقرته الرابعة (عمل القطع)، فخرج فقرة الرافعي الثالثة (دخول الأسد)، في دروة مجمعة الخدعان، حيث يتصاول كفاحا الخصيمُ الباطش والبطلُ المبطوش به. ولكن على حين قدم الرافعي الجملة الأولى في البطل

«وَرَأَيْتَ عَلَى ذَلِكَ (...) الرَّجُلِ»

ثم أخر الجملة الثانية في الخصيم.

«وَلَمْ يَرْعَ إِلَّا دُهُولُ الأُسْدِ فِي وَحْشِيِّه»

حاصلًا الست الباقيات (٣ ـ ٨) تفصيلًا لإجمال تلك الجملة الثانية

«أَأَمْسَى (...) وَرَاءَهُ اللهُ»

قدم شاكر الجملة الأولى في الخصيم.

«وَضَعَ أَبُو الْحَكَمِ (...) يَوْمَهُ ذَاكَ»

ثم الجمل الأربع التاليات (٢ ـ ٥) في البطل.

«مَا تَضَوَّرَ وَجْهُه (...) مِنْ تَهْيِيدِه وَتَكْبِيرِه»

ثم الجمل الثلاث التاليات (٦ ـ ٨) في الخصيم

«فَتَحَلَّ بِرِجَالٍ (...) حَتَّى حَمِيَمَ الدَّمَ»

ثم آخر الجملتين الباقيتين (٩ ـ ١٠)، في البطل

«إِذَا عُرْوَةٌ (...) لَحِقَتِ النَّدَى»

إنه لما أخر الرافعي فقرة (يقين البطل) عن فقرة (دهول الأسد)، اضطر إلى تقديم جملة أولى من جمل (دهول الأسد) في بطله، ولولا هذا ما ذكر بطله؛ فقد ألقى المصارعة المتخيرة بين الأسد وبينه، وجعلها بين إرادة ابن طولون وإرادة الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على رغم امتناع الكفاءة، دلالة على جهل ابن طولون؛ فمن ثم لم يجد في فقرته ما وجدناه في فقرة شاكر بين جمل الخصيم الباطش (أبي الحكم وعشيره ورجاله) وجمل البطل (عروه) من تداخل.

لقد كانت قوة العصمة عند الرافعي، من عمل الأسد وحده دلالة على انقطاع ما بينه وبين البطل، فأما عند شاكر فلقد كانت قوة العصمة في سؤال أعمال القطع من الطبيب ومساعديه، وتوبي أعمال الصبر من عروة.

دَهْشَةُ الطَّبِيبِ كَدَهْشَةِ الشُّهُودِ

[٢٣] ثم أخرج شاكر فقرته الخامسة (دهشة الطبيب)، فخرج فقرة الرافعي الخامسة (دهشة الشهود)، بحيث تكون بمنزلة الدائرة تحيط بالبطن من كل جهة، وتبهر من حوله، وتزيد من الأثر الذي يريده.

ولكن أطرف ما اختلف فيه الكاتبان، أن يخرج الرافعي الدهشة من الشهود، ولا يتجاوزهم إلى الخصيم الذي صار الأمر ابن طولون نفسه، إلا بعد ما يدل على أنهم أكثروا من دهشتهم حتى اضطر الخصيم إلى إظهار اندهاشه هو، حين يخرج شاكر الدهشة من الخصيم صريحة واضحة.

«لم رأيتُ كاليوم، يا أميرَ المؤمنين! إنه رجلٌ، وإنَّ الحقيقةَ لمؤنسةٌ، وإنَّ إيمانه ليحوطُه، ويثبّته، ويُسكّنه، وينفُض عنه الجزع».

ينبغي ألا نغفل عن أن شاكر انثر ابتلاءات بطله على أرجاء القصة، فصحبتهم دهشات متعددة مختلفة لم يحتج إلى الزيادة عليها، ولكنه لما وصل إلى آخر أمر فصل الخصمان، تحرى أن يجعل فضل البطل من شهادة خصيمه الذي لا يدين بدينه. ثم إن لكون فصل الخصام آخر فصول قصة الرافعي، أثرا في تكثيفه دهشة الشهود، بعبارة من كلام البطل

«لم يمسَّني عليَّ بأسٌ، وإنما كنتُ أفكّر في لُعاب الأسد أطهرٌ طاهرٌ أم نجسٌ»

وهي عبارة شديدة السخرية من الخصيم، تظل عالقة بأسماع المتلقين، لتملأ السخرية فيما بعد.

عبارة الرافعي جملتان اسميتان منسوختان بأداتين فعليتين (مضارعية محولة إلى الماضوية وماضوية صريحة)، ثانيه الجملتين الاسميتين فيها أسلوب الإجمال والتفصيل الواضح عند الرافعي كما سبق -وعبارة شاكر خمس جمل، فعلية ماضوية، وفعلية مضارعيه موجزة، وثلاث اسمياتٍ، تعبر ثالثتها جملة فعلية مضارعية، معطوف عليها ثلاث مثلها، لا يخفى ما بين الأربع كلها من تفصيل وترتيب وتأنق.

لقد تحرى الرافعي في عبارة بطله التي كُشِفَ فيها فكرة العقرة: أن تدل بقصرها على سخرية البطل الشديدة من خصيمه، التي لا تخفى من كمد عليه، فأما شاكر فقد كان في محبوحة من المشاعر التي يريد أن ينقلها لمتلقي ولا سيما غير المسلم؛ فهو يزيد ويرتب ويتأنق!

تَرْكِيبُ الْفِقَرِ

[٢٤] كيا انتقلت بين الكاتبين فقر هذا الفصل، انتقلت مواضعها، حتى لَتَسْتَطِيعُ أن تصير منها قسمين واضحين:

١ فقر التمهيد لمحمة الخصمان: كانت عند الرافعي اثنتين (صفة الأسد، وهجمة الأسد)، وكانت عند شاكر ثلاثًا (صفة الطبيب، ويقين البطل، وحبس القطع)

٢ فقر محمة الخصمان: كانت عند الرافعي ثلاثًا (دخول الأسد، ويقين البطل، ودهشة الشهود)، وكانت عند شاكر اثنتين (عمل القطع، ودهشة الشهود)

لا يخفى أنه لولا موضع فقرة (يقين البطل)، لتطابقت الفقر في مواضعها كي تطابقت في أنفسها.

ولا ريب في أن شرح ذلك اليقين بعد سطوع أثره هي ما جعل الرافعي، أقوى وضوحا وأنجع أثرًا منها يجعل الرجل العمل الصالح، ثم يدل الناس في بعد عن إيمانه الذي

سفره إليه؛ عسى أن يأتيوا به من مثل ما قص الحق ـ سبحانه وتعالى ـ من خبر سيدنا يوسف ـ عليه السلام! ـ وصاحبي السجن؛ إذ لم يدعهما بل هيأ لهما تأويل رؤياهما

ولكن أين عصيم البطل عند شاكر (الطبيب النصراني)، من خصيمه عند الرافعي (الحيوان الأعجم)!

لقد هجم الحيوان الأعجم على نبعل لا يأتي على شيء، ولا يبارح ولا يبارى؛ فأما الطبيب النصراني فقد اليأس إلى الكثير مرة والى أزيد ثانية ومن المتمسكين ثالثة؛ فاحتاج الكاتب بين أن يبادر إلى تبيان يقين البطل؛ يعني أعمال اليقين المتوارية، علاج أعمال المخصومة متوالية

خاتمة

[٢٥] ـ حياة لغاتنا العربية الإسلامية مستديرة مثل حَيَوان عبرها من الثقافات الكبيرة تتوالى فيها من قديم إلى حديث، أحوالُ الوصال والهجران، والاستيعاب والجهل، والقوة والضعف.

وإن مصطفى صادق الرافعي وتلميذه محمود محمد شاكر، مدرسة واحدة من استيعاب الثقافة العربية الإسلامية والإيمان بها والحرص عليها، ثم التأتي إلى تعليمها والإخبار بمراجعتها ـ استحدثت أساليب أدبية متعددة مختلفة، أثرت في المتلقين تأثيرًا شديدًا.

وإن في خلال الغاية التي أمّها الكاتبان، وفي صدق معنى المدرسة الثقافية الواحدة بينهما، وفي نجاح أحد أساليبهما ـ ما يستغرق تأمل النحوي؛ حتى يوازن بينهما موازنة نصية نحوية؛ فيشرح من معالم الغاية والمدرسة والأسلوب، ما يتقدم بدراسته النحوية في سبيل وعي علمي جديد.

ولقد تأملت نصوص الرافعي وشاكر من خلال الأسلوب الناجح، طويلًا، حتى عثرت لأحد نصوص شاكر القتيلة على نص يلائمه مقدارًا ومسألة، من نصوص الرافعي الكثيرة. ثم تأملت هذين النصين طويلًا، حتى فهرست في بينهما الأربع عشرة مسألة، التالية:

جَوامِعُ التَّضْمِين، وحُضورُ الأعلام، ومَوْتا الكاتِبَيْن، وتفصيلُ الفُصول، وتَرْتيبُها، وتَنَسُّمُ الضَّمِير، وتَرْصيلُ الفُصول، ورَبْطُ الأقوال، وعطفُ المُتَشابِهات، وتَرْكيبُ المُتَجاوِر، والإجمالُ ثُمَّ التَّفْصيل، وجوامِعُ التَّرْكيب، وتَنَقُّرُ الوِقْر، ومَرْسِيُّها.

تَحَصَّصْتُ النَّظَرَ في كُلِّ مسألةٍ منها بمبحث، حتى أكّد لي ما ذكرته بين الرافعي وشاكر، من معنى «مدرسة الثقافة الواحدة (المذهب الثقافي الواحد)»، ولكنه دلني كذلك على منهجين تنازعاهما بدقائق تواريهم:

١ ـ الإسْتِطْلاقُ الدَّلالِيُّ الفَوْقِيُّ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الكامنة في العناصر القصصية، يتحرك حركة عمودية من أعلاه إلى أسفله، ومن أسفله إلى أعلاه، فوقانيًا.

٢ ـ الإسْتِطْلاقُ الوِتِدِيُّ الفَنِّيُّ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الظاهرة على العناصر القصصية، يتحرك حركة أفقية من ورائها إلى أمامها، ومن أمامها إلى ورائها، قدّاميًا.

انتهج هذا الأخير شاكر، بعد أن انتهج ذلك الأول أستاذه، من دون أن يأتي اختلاف منهجين لاثنين بينهما، عن معنى المدرسة الثقافية الواحدة.

حواشي البحث

١ الشكرية: ٥٠

٢ السابق، ٥٠، ٥١. والعجب للدكتور الشكعة الذي عاصر الرافعي وشاكرا كليهما، وعرف علاقة ما بينهما، يضع كتابه هذا في سنة ١٩٧٠م التي سلالات السنين فيها مقالات شاكر الشهيرة ((أباطيل وأسمار))، ويقول فيه ((هل يوجد بيت الآن رافعي آخر.. وقد بدأت المفرحوتية والسعوبية والتطاول على القيم تطل بوجهها الكريه من جديد.. لا يتهاون في عقيدته ولا يرخص في دينه ولا يتكاسل في الدفاع عن حرماته ولا يخفي، أو يتخفى إذا ما هو جلست حتف وصلى رؤوس الأشهاد.. والتفت حوله الأيام أن يعتدي عليها.. فيحالها معركة فكرية مقدسة لإظهار مقدسه وقداسة هؤلاء الذين يعتزون العربية وآدابها وهم منها في جهل معيب وفراغ في كل شيء إلا من دروس ملأها الحفظ وأكلتها الذاكرة))!

٣ السابق ٩٦. انظر شاكر في مقدمته لكتابه ((حياة الرافعي)) للأستاذ محمد سعيد العريان، يأتي يتبشر للأستاذ الكبير من تلامذته من بعد في تراثه، كما بر محمد سعيد العريان أستاذه الرافعي؛ فيبشر له بالخلود للعبقرية الدكتور عادل سليمان جمال الذي بره في تراثه، كفاه الله شر الأثر على السنة الحفاظ، وشر ذلك فيها

٤ شاكر ١/ ٤٠
٥ السابق ١/ ١١١
٦ السابق، ١/ ٢٣٤
٧ السابق ١/ ٢٥١
٨ السابق ١/ ٢٦٥
٩ السابق ١/ ٢٧٢
١٠ السابق، ١/ ٣٤٧
١١ الرافعي ١/ ١٠٣
١٢ السابق، ١/ ١١٣
١٣ السابق ١/ ١٢٤
١٤ السابق، ١/ ١٣٣
١٥ السابق ١/ ١٤٣
١٦ السابق، ١/ ١٥
١٧ السابق ١/ ٢٢١
١٨ السابق، ١/ ٢٢٩،
١٩ السابق ١/ ٢٣٧
٢٠ السابق، ٢/ ٧٤،
٢١ السابق ٢/ ٨٢
٢٢ السابق، ٢/ ٨٩
٢٣ السابق، ٢/ ٩٦
٢٤ السابق، ٢/ ١٠٢
٢٥ السابق، ٢/ ١١٠
٢٦ السابق، ٢/ ١٣٥
٢٧ السابق، ٢/ ١٤٣
٢٨ السابق ٢/ ١٤٩
٢٩ السابق ٢/ ١٥٤
٣٠ السابق، ٢/ ١٦٦،
٣١ السابق، ٢/ ٤٥
٣٢ السابق، ٢/ ٥٢.
٣٣ السابق ٢/ ٤٥ ٥١
٣٤ هي في النص ((إذا))، ولا ريب -إن شاء الله- في صواب ما أثبت؛ فلا أصالة لاستعمال

«إذ» في المتن

٣٥ شاكر ١/١١٦ـ١١٧

٣٦ في النص وبعده ترخيمها كثيرة من عمل الدكتور محمد سعيدان جمالة، بين أقواس كزيادته: (((عمرو الوليد بن عبد الملك))) بعد «أمير المؤمنين» مباشرة أو ما شاكلها في عادة هذه الموازنة.

٣٧ بين الأرجيحتين في النص واو، ولا موضع لها بين طرفي التركيب.

٣٨ الكلمة الكنائية كل عنصر كنائي من عناصر تركيب الفقرة الكنائي، محوطة من جانبيه بمسافتي بياض، يعدها الحاسوب كلمة واحدة مفردة سواء كان في نفسه أو مركباً، ولا يأس بهذا للمتعلمين هنا ما دام «تمتمتها» بين قائمة واضحة.

٣٩ لا يعنيني أن أنبه هنا إلى أن الكاتبين شاعران تركا الشعر للنثر. ومن علم شاكر أنه كان يعرف مكانته من الشعر، مثلما كان يعرف مكانة الشعر منه، فقد كشفت لنا «الجمهرة مقالات»، أنه كان يرى بمصر ثلاثة شعراء كبارا يستحقون التقدير، ذكر اسمي اثنين منهم ((علي محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل)). وكتم ذكر الثالث؛ لعرفت أنه يريد نفسه. وربما كان شاكر أشعر الثلاثة عند بعض الأدباء! ولقد عاش شاكر حياته ـ ولا سيما في رمان شبابه الصعب ـ شاعراً عربياً مسلماً متمسكاً بقافته، تكفّر بها لتهجه بعض الشعراء من منهج الكفر والفسوق والعصيان، وكأنه منهج الشعر

٤٠ استقرت أعلام نص الرقمي في نصه وفي أنهم من الثقافة العربية الإسلامية جيدًا بقاء فكان تصنيفها على النحو الجدول التالي

أعلام الرقمي		معانيها	حالاتها الإعرابية			المجموع	
			فرع	نصب	جر		
١	الله	العقيدة	٧	٣	٧	١٦ (٢٧٥٪)	
٢	أحمد بن طولون	السلطان	٤	١	٦	١٦ (٢٧٥٪)	١١
	خمارويه بن أحمد		٢		١		٣
	المأمون				١		١
	موسى بن أسد		١				١
٣	أحمد بن محمد	الزهد	٥			١٥ (٢٤٪)	٥
	بنان		١	١	٣		٥
	بكار بن قتيبة				٢		٢
	الجنيد				٢		٢
	يوسف بن الحسين				١		١
٤	مصر	الحج			٥	١٤ (٢٢٪)	٥
	بغداد				٣		٣
	القرى والجبال				٢		٢
	طرسوس				٢		٢
	أنطاكية			١			١
	بخارى				١		١
٥	أحمد بن عبد الله	العلم		١		١ (٢٪)	
٦	طولون	القدر	١			١ (٢٪)	
المجموع			٢١	٦	٣٦	٦٣	

٤١ كذلك عملت بأعلام نص شاكر ١ فكان تصنيفها على النحو الجدول التالي

أعلام شاكر	معانيها	حالاتها الإعرابية			المجموع
		فرع	نصب	جر	

١	الله	العبادة	٣٠	٨	٣٦	٧٠	٨١ (٤٢٪)
	رسول الله		٢	٥		٧	
	أبو بكر			٢		٢	
	أسماء بنت أبي بكر		١			١	
	الزبير بن العوام		١			١	
٢	عروة بن الزبير	الزهد	١٠	١٥	١٠	٣٥	٣٧ (١٩٪)
	أبو مصعبة			٢		٢	
٣	أمير المؤمنين	السلطان	١١	١١	٣	٢٥	٢٦ (١٣٪)
	سليمان بن عبد الملك		١			١	
٤	أبو بكر	بكر	١٢	٤		١٦ (٨٪)	
٥	عمر بن أبي ربيعة	الغزل	٤	١٠		١٤ (٧٪)	
٦	محمد بن عروة	المروة	٧	٣	١	١٠	١٢ (٦٪)
	هشام بن عروة		٢	١		٣	
	عبد الله بن عبد الله		١			١	
٧	عمر بن عبد العزيز	العدل	٣			٣ (١٪)	
٨	القاسم بن محمد	بغية	١			١ (١٪)	
٩	المدينة	الحج			١	١ (١٪)	
المجموع			٨٦	٥٦	٥١	١٩٣	

٤٣ الزركلي، ٢/ ١٣١ ـ ١٣٢. ٤٣ ابن منظور، حنم.

٤٤ يستفاد ذلك من مقدمة الأستاذ محمد سعيد المولوي، لـ((وحي القلم))

٤٥ يستفاد ذلك من تأريخ الدكتور عادل سليمان جمال، للمقالات التي جمعها

٤٦ ابن مالك، ١١٧.

٤٧ الجرجاني، ٤٣ ١٢ قد شرح القارئ التصرف في وجوه عطف المجدد واستئنافه

٤٨ العلوي، ٣/ ٣٨، وإن لم يستوعب أنواع الموزنة التي أجدتها كلها، وإنه من ذلك.

٤٩ قد أحصيت من الموزنة للراضي تسعا وعشرين عبارة وثلاثة عشرين، من مثل ما تبهت عليه، وهي لا تنحصر بين المعطوف والمعطوف عليه، بل تكون بين الشرط والجزاء، والمشبه والمشبه به، من وجوه مختلفة من التركيب، وبين الجمل المتجاورة غير المتعاطفة.

٥٠ ابن مالك، ٣/ ٣٥١، ٣٥٧.

٥١ ابن جني، ٢/ ٣٧٠ ـ ٣٧١، وهو عنده من الشجاعة العربية.

٥٢ العمري، ٢/ ٢٠٤؛ فقد ذكر ((الإجمال والتفصيل)) و((اللف والنشر))، ذكر، وبعد من بعد أن جعل ((اللف والنشر))، هو الصنف السادس من صنوف ((الفصاحة اللفظية))، التي جعلها السمط الأول من البديع - ثم جعل ((الإجمال والتفصيل = اللف والنشر)) ((يطلق اسمه في الشروح في ردّ كلّ شيء إلى ما يليق به))، وأبي ((اللف والنشر)) على ما شرح العلوي وتمثّل، وجعلَ من ((الإجمال والتفصيل)).

٥٣ ابن مالك: ٣/ ١٣٥؛ فقد نبه على اختصاص العام بعطف المفصل على المجمل

كُتُبُ الْبَحْثِ

- ابن جني (أبو الفتح عثمان): ((الخصائص))، تحقيق محمد علي النجار، وطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الثالثة في ١٩٨٧م.
- ابن مالك (جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي الأندلسي): ((شرح التسهيل))، تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد والدكتور محمد بدوي المختون، وطبعة دار هجر بالقاهرة، الأولى في ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م.
- الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن النحوي): ((دلائل الإعجاز))، قراءة أبي فهر محمود محمد شاكر، وطبعة المدني، ونشرة الخانجي بالقاهرة.
- الرضي (محمد بن الحسن الإستراباذي): ((شرح الكافية في النحو))، نشرة المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، دون بيان آخر.
- الرافعي (مصطفى صادق): ((وحي القلم))، طبعة دار المعارف بمصر، الثانية.
- شاكر (محمود محمد): ((جمهرة مقالاته))، طبعة الخانجي بالقاهرة، الأولى في ٢٠٠٣م.
- الشكعة (الدكتور مصطفى): ((مصطفى صادق الرافعي كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا))، طبعة ١٩٧٨م الثانية، ونشرة عالم الكتب ببيروت ومكتبة المتنبي بالقاهرة.
- العلوي (يحيى بن حمزة بن علي): ((كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز))، طبعة ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م، ونشرة دار الكتب العلمية ببيروت.

فهرس الموضوعات

مُقَدِّمَةٌ ٧

الفَصْلُ الأَوَّلُ رِعايَةُ النَّحْوِ العَرَبِيِّ لِمَرْوِيَّةِ أَطْوارِ اللُّغَةِ وَالتَّفْكِيرِ ٩

مقدمة، عطاء أحوال اللغة على صاحبها، فضل عمل ستكيفتش، أفكار ستكيفتش الثانية الخطيرة، المَسْأَلَةُ الأولى: اللُّغَةُ والتَّفْكِيرُ، «اللغة أداة»، الفِكْرُ والتَّفْكِيرُ والفِكْرُ، العَلامِيَّةُ وعَلاقَةُ اللُّغَةِ بالفِكْرِ، التَّعْبِيرُ اللُّغَوِيُّونَ وعَلاقَةُ اللُّغَةِ بالتَّفْكِيرِ، التَّقْنِيُّونَ وعَلاقَةُ اللُّغَةِ بالتَّفْكِيرِ، قُدَماؤُنا وَعَلاقَةُ اللُّغَةِ بالتَّفْكِيرِ، دلالات فكرة ستكيفتش الأولى، المَسْأَلَةُ الثانِيَةُ: الجُمُودُ والتَّطَوُّرُ، بيان التطور العام، بيان تطور اللغة العربية القديم، بيان تطور اللغة العربية الحديث، منزلة اللغة العربية حديثًا من منزلتها قديمًا، أثر الإسلام والقرآن اللغوي التفكيري، أثر علوم الأوائل اللغوي التفكيري، أثر الفكر الغربي الحديث اللغوي التفكيري، مراحل الاستفادة من صحيح الفكر الحديث، اطراح الفكر القديم كاطراح الفكر الحديث، المَسْأَلَةُ الثالِثَةُ: نِظامُ الأَطْوارِ، علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة أهم منها، علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة عمل النحو، «وجْهُ النَّحْوِ الفَلْسَفِيِّ المُجَدِّدِ»، نقد الدكتور تمام حسان لعمل الدكتور عثمان أمين، دلالة عمل الدكتور عثمان أمين، النحو العربي نظام أطوار اللغة والتفكير العربيين، ظاهرة تغريب التعبير، تمسك دعاة التطوير بنظام أطوار اللغة والتفكير العربيين، المَسْأَلَةُ الرابِعَةُ: مِثالُ الأُصُولِ، دعوى حداثة طه حسين وقدامة الرافعي، حكم ستكيفتش لمذهب طه حسين على مذهب الرافعي، مادة الموازنة، تَعَلُّمُ طه حُسَيْنٍ، تَعَلُّمُ الرَّافِعِيِّ، الجداول ورسم البيان، الرسالة والأسلوب، الاعتذار عن اعتماد الإحصاء، نقد جهتي الخطاب المستولي على النصين، بين فعل الأمر الحُسَيْنِيِّ والفعل الماضي الرافعيِّ، اختلاف علاقات الكلم والجمل بين النصين، تحليل علاقات أبرز جمل النصين، مِثالُ طه حُسَيْنٍ، مِثالُ سَنَ الرَّافِعِيِّ، طَوْرُ

الثَّوْرَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَطَوْرُ الْمُدَّاحِ وَالْأُمَرَاءِ، خَاتِمَةٌ، حَوَاشِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ وَكُتُبُهُ.

الْفَصْلُ الثَّانِي — هَلْهَلَةُ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ جَزَالَةً أَوْ رَكَاكَةً: ٥٧

مُقَدِّمَةٌ، هَلْهَلَةُ الشِّعْرِ، الْجَزَالَةُ وَالرَّكَاكَةُ عِنْدَ الْقُدَمَاءِ، الْجَزَالَةُ وَالرَّكَاكَةُ عِنْدَ الْمُحْدَثِينَ الْمُسْتَوْحِينَ، الْجَزَالَةُ وَالرَّكَاكَةُ عِنْدَ الْمُحْدَثِينَ غَيْرِ الْمُسْتَوْحِينَ، الدَّعْوَى الْأُولَى: أَنَّ الْجَزَالَةَ وَالرَّكَاكَةَ مِنْ صِفَاتِ الْكَلِمَةِ الْمُفْرَدَةِ، الدَّعْوَى الثَّانِيَةُ: أَنَّ الْجَزَالَةَ فِي الشَّهْوَةِ وَالرُّقِيِّ، الدَّعْوَى الثَّالِثَةُ: أَنَّ التَّجْزِيلَ حُكْمٌ الطِّبَاعِ (فَوْقِيٌّ)، الدَّعْوَى الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْجَزَالَةَ فِي الْخَصَائِصِ، خَاتِمَةٌ، حَوَاشِي الْفَصْلِ الثَّانِي، كُتُبُ الْفَصْلِ الثَّانِي.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ — بَيْنَ الْأَعْشَى وَجَرِيرٍ مُوَازَنَةٌ نَصِّيَّةٌ نَحْوِيَّةٌ: ٩٩

مُقَدِّمَةٌ، شَرْحُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ، مَقَالَةُ أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ، مُوَازَنَةُ الْكَلَامِ بِالْكَلَامِ، شُعَرَاءُ مَقَالَةِ أَبِي عَمْرٍو، شِعْرُ الْأَعْشَى وَجَرِيرٍ، مَادَّةُ الْمُوَازَنَةِ، لَامِيَّةُ الْأَعْشَى، نُونِيَّةُ جَرِيرٍ، تَفْصِيلُ الْقَصِيدَةِ، فَصْلُ الرِّسَالَةِ، رِسَالَتَا الشَّاعِرَيْنِ، يَقْصِدُوا الرِّسَالَتَيْنِ، إِحَاطَةُ الرِّسَالَتَيْنِ، وَكْرُ الْخَصِيمَيْنِ، اسْمُ رِسَالَةِ الْأَعْشَى، تَقْسِيمُ أَجْزَاءِ الرِّسَالَتَيْنِ، أَصْحَابُ الْأَقْسَامِ، تَتَابُعُ الْأَقْسَامِ، أَزْمَانُ الْأَجْزَاءِ، مَصْدَرُ الْمُتَكَلِّمَيْنِ، تَقْفِيرُ الْفَصْلَيْنِ، الْبَعْثُ وَأَبْيَاتُهُ، مَنَازِلُ الْبَعْثِ، جَرَّرَا بِفَرَسَيِ الْأَعْشَى، جَرُّوا بِفَرَسَيْ جَرِيرٍ، مَا وَرَاءَ تَرْكِيبِ الْمُحَاوِرِ، فَصْلُ النَّاسِ، النَّاسُ بِمَعَازِلِهِمْ الْمُتَبَايِنَةِ، تَفْصِيلُ مَعَانِي الْأَعْشَى وَتَوْصِيلُهَا، تَفْصِيلُ مَعَانِي جَرِيرٍ وَتَوْصِيلُهَا، مَا وَرَاءَ تَفْصِيلِ الْأَعْشَى وَتَوْصِيلِهِ، تَفْصِيلُ مَبَانِي الْأَعْشَى وَتَوْصِيلُهَا، مَا وَرَاءَ تَفْصِيلِ جَرِيرٍ وَتَوْصِيلِهِ، تَفْصِيلُ مَبَانِي جَرِيرٍ وَتَوْصِيلُهَا، انْتِهَابُ تَفَاصِيلِ الْفُصُولِ، مَا وَرَاءَ الْأَقْوَالِ الْكَائِنَةِ، خَاتِمَةٌ، حَوَاشِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ، كُتُبُ الْفَصْلِ الثَّالِثِ.

الْفَصْلُ الرَّابِعُ — بَيْنَ الرَّافِعِيِّ وَشَاكِرٍ مُوَازَنَةٌ نَصِّيَّةٌ نَحْوِيَّةٌ: ١١٩

مُقَدِّمَةٌ، التَّثْقِيفُ الْعَرَبِيُّ الْإِسْلَامِيُّ، أَشَدُّ الْأَسَالِيبِ التَّثْقِيفِيَّةِ تَأْثِيرًا، جَوَامِعُ الْأُسْلُوبَيْنِ وَفَوَارِقُهُمَا، نُصُوصُ الْأُسْلُوبِ الْأَخِيرِ، مَادَّةُ الْمُوَازَنَةِ، «الْأُسْدُ» لِلرَّافِعِيِّ، «الْحَقِيقَةُ الْمُؤَسَّدَةُ»

لِشاكِرٍ، جَرايِحُ التَّضْيِيقِ، فُصولُ الأَحْداثِ، حُضورُ الأَعْلامِ، صَوْتا الْكاتِبَيْنِ، تَفْصيلُ الْفُصولِ، تَرْتيبُ الْفُصولِ، نَسْجُ النَّصَّيْنِ، تَوْصيلُ الْفُصولِ، رَبْطُ الأَقْوالِ، حَذْفُ الْمُتَشابِهاتِ، تَرْكيبُ الْمَفاجَآتِ، الإِجْمالُ ثُمَّ التَّفْصيلُ، فَصْلُ الْحَدَثَيْنِ، جَرايِسُ النَّوْرَتَيْنِ، تَحْقيرُ الْوَفْرِ، صِيغَةُ الطَّبيبِ تَحْصيفَةِ الأَسَدِ، الْيَمينُ الْيَمينُ، مَجْلِسُ الْقَطْعِ كَهَجْمَةِ الأَسَدِ، حَمَلُ الْقَطْعِ تَحْلُوبِ الأَمَرِ، دَهْشَةُ الطَّبيبِ كَدَهْشَةِ الشُّهودِ، تَرْتيبُ الْوَفْرِ، عائِجَةٌ، حَواشي الْفَصْلِ الرّابِعِ، كُتُبُ الْفَصْلِ الرّابِعِ.